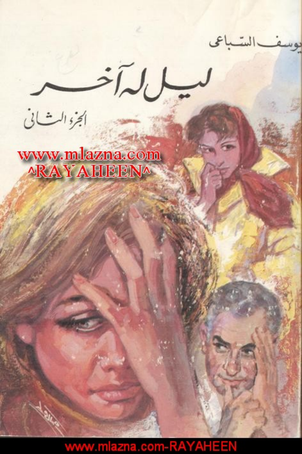

يوسف السباعي
ليل له آخر
الجزء الثاني
www.mlazna.com
^RAYAHEEN^
www.mlazna.com-RAYAHEEN

سَـــهرة

دق جرس التليفون يوم الخميس بعد الظهر وسمعت صوتك يتسـاءل في رقة :

— سهير ؟ !!

وكنت قد وضعت التليفون على مقربة مني بعد ان تناولت الغداء ، وخذلتني السماعة بضع مرات قبل أن أسمع صوتك .

وعندما وصل صوتك إلى سمعي .. احسست بأنفاسي تتلاحق .. واحتجت لبضع ثوان اهدىء ذلك الشيء المصطخب في حناياي .. والذي منح نفسه حرية الطرب من صوتك والانتشاء بهتافك .

ولم اكن احاول أن أكبح جماح نفسي عن نشوة انتظار لقائك .. والاستمتاع بذلك الشعور الذي يغمـرني بالســعادة في كل ثانية ، ويملؤني بالفرحة بأي شيء .. حتى ولو لم يكن له بك علاقة .. ويصبغ بالتفاؤل تفكيري حتى ولو كنت بعيدا عن نطاقه .. وكأن بشحنة السعادة المستمدة من فرحة انتظاري لك قد استقرت في نفسي وأضحى لها القدرة على ان تمنحني السعادة من غير حاجة إلى وجودك . فأنا سعيدة لأني انتظر لقاءك .. وأشغل عن انتظارك .. بشئون حياتي وبمن حولي .. فلا يتبدد إحساسي بالسعادة ، بل أشعر أني سعيدة دون أن أعرف لمه ؟

سعيدة عندما أفكر فيك .. وسعيدة عندما تغيب عن تفكيري .

لم أر مثلك فى الحياة .. يبسط ظله على الذهن .. حتى ولو غاب عنه .

فأثرك .. ابقى فى نفسى .. حتى منك .. من وجودك .. من كيانك .

أهناك أدل على ذلك .. من كل هذا التفاؤل الذى أشعر به وأنا أكتب إليك فى رقدتى هذه ؟ !

من كل هذا اليقين بمطلع الفجر .. برغم كل هذه الحلكة التى تحيط بنا .

من كل هذا الإيمان .. بآخر ليل .. لا يكاد يبدو له آخر ؟ !!

وامسكت بالسماعة فى فرحة انصت إلى صوتك ينطق باسمى .. ولم أكن أظن لاسمى مثل هـــذا الرنين الحـــلو .. الذى انبعث من نبراتك .

واجبتك هاتفة فى فرحة :

— حمدى ؟

— مساء الخير .

ولم أجد وقتا لأرد التحية .. وسألتك فى لهفة :

— أين أنت ؟

— فى البيت .

— متى ستحضر ؟

— متى تريدين أن أحضر .

— الآن ؟

وضحكت وقلت فى رقة :

— أنت دائما لطيفة .

— لم أقصد أن أكون لطيفة .. ولكنى فعلا أحبك أن تحضر الآن .

— الآن .. الآن ؟

— ولِمَ لا !! أهناك ما يشغلك ؟

ورددت فى لهجة رقيقة :

— أبدا .. لقد أتيت لأراك .. وليس هناك ما يشغلنى عنك .

ومنحنى قولك إحساسا عجيبا بالثقة والايمان بالله .. الثقة فى نفسى وفى الحياة ، والإيمان بالله ، وبقدرته على أن يحقق كل أمانى .

كانت كلماتك القليلة البسيطة .. التى حملتها السماعة إلى أذنى .. على غير توقع ولا انتظار .. أبلغ من كل أحاديث المناجاة .. ومواثيق الحب .

ومضت برهة صمت .. منحت الفرصة لذلك الشىء المصنق فى صدرى أن ينعم بالكلمات الرقيقة التى انسابت من السماعة إلى أذنى .

وعدت أتساءل قائلة :

— لماذا لا تأتى الآن إذا ؟

— لقد وصلت فى التو .. سأبدل ملابسى ، وأجلس من أمى برهة حتى تعود نادية .. ونحضر إليك سويا .

وعندما ذكرت نادية .. أحسست لأول مرة .. أنى أتصرف تصرفا غير سليم .

كان المفروض أن تتحدث نادية إلينا وتتفق معنا على الزيارة .. ولكن مشاعرنا فرضت أقصر السبل للاتصال ، وعبرت ببساطة عن لهفة كل منا إلى لقاء الآخر .

ولم تكن هناك من وسيلة لكى نبرر لأنفسنا ما تدفعنا إليه مشاعرنا من تصرفات قد تبدو للعقل المجرد عدم سلامتها ، إلا الاعتذار بأن ثمة صداقة متينة تربط بين أحدنا والآخر منذ لقائنا فى لندن .. تبرر لنا كل هذه التصرفات ، وتصبغها بصبغة .. لا غبار عليها ، ولا حرج منها .

ذلك كان عذرنا لأنفسنا .. رغم يقيننا بأن شيئا أكبر كثيرا من هذه الصداقة .. قد نبت بيننا .. وأنه هو وحده الدافع إلى كل هذه التصرفات .. المندفعة .. اللهفى .

وعندما يتضح لنا طريق السعادة ، نحس دائما فى أنفسنا الرغبة فى تخطى الحواجز التى تحول دونه ، والخلاص من القيود التى تشدنا

عنه .. ونصبح وحدنا اصـــحاب الحق فى تحــديد ما يجب ، وتبرير ما لا يجب .

ولم احس فى فترة من حياتى .. بوضوح الطريق امامى ، كما احسست حينذاك .. فمنحت لنفسى حق السير فيه .

ولست اظننى جانبت الصواب كثيرا .. فى تحديد ما يجب لنفسى وتبرير ما لا يجب ، مما حاولت ان اسوغه لها .

كنت دائما عاقلة ؟ !

الم تشهد لى انت بذلك .. برغم ان شهادتك غير جائزة لانك كنت طرفا فى المخالفة ؟

زرتنا ليلتذاك مع « نادية » .

وكانت زيارتك إحدى خطواتى الطويلة فى طريق سعادتى .

فعلت خلالها كل ما دفعتنى مشاعرى إلى فعله .. ووضعت انا لنفسى مقاييس ما يجب وما لا يجب .

ويعلم الله مدى ما جاوزت الاصول فى استمتاعى بليلتى تلك ..

كانت الشمس قد أوشكت على المغيب .. وقرصها الارجوانى يتوارى وراء قباب المدينة واطراف حورها .. مرسلا خيوطه الحمر لتطرز حواشى السحب بالنور الاحمر ، وكانما وراء كل سحابة شمس تغرب .

وقدتك إلى الشرفة لاجلس وإياك على الاريكة الارجوحة ، وموكب السحاب الارجوانى فى السماء يشيع الشمس الغاربة فى مظاهرة حافلة من النور الاحمر .

ورحت ترقب المنظر مأخوذا .. واخذت أنقل البصر بين وجهك وموكب السماء الارجوانى .. وسالتك فى إعجاب كأنى صانعة الموكب :

— ما رايك ؟

ونظرت إلى وجهى ورحت تتأمل عينى وقلت فى إيمان :

— جميل .

وانتظرت ان تحول بصرك إلى الافق الاحمر ، ولكنك استمررت تحدق فى عينى .. وعدت تهمس :

— جميل جدا .

واصابتنى رجفة .. غمرتنى بسعادة عجيبة .

وفى غمرة نشوتى واضطرابى .. حولت بصرى إلى الافق ، وسالتك وابتسامة مرتبكة تعلو شفتى :

— ما هو هذا الجميل ؟

وعدتك ابتسامتى فارتسمت على شفتيك ابتسامة اوسع وقلت ونظراتك ما زالت معلقة بعينى :

— كل شىء .

وقطع علينا الحديث صوت « امى » وقد اقبلت من المطبخ تجفف يديها .. وقد علت وجهها إشراقة ترحيب .. وهى تهتف بنادية التى جلست فى البهو تقلب بعض الكتب مع حسان :

— اهلا وسهلا .

وصافحت « نادية » ثم اقبلت على الشرفة لتصافحك متسائلة :

— اين ماما ؟

واكتشفت انا بسؤالها تقصيرا عن واجب شغلتنى لهفتى عليك من ادائه ، ورحت الاحق « امى » بالسؤال :

— اجل .. لماذا لم تحضر ؟

واجبت قائلا :

— متعبة قليلا .

وسالتك « امى » فى لهفة :

— كيف .. ماذا بها ؟

— لا جديد .. اكثر من مرض السكر الذى تعانيه .

وبدا الاسف الصادق على وجه « امى » واجابت :

— يا عيب الشوم .. نجلس هنا ونتركها وحدها .. سأحدثها فى التليفون .. وارسل الاسطى على لإحضارها .

وردت نادية :
ـــ لقد حاولت ان احضرها .. ولكنها فضلت ان ترتاح .. لان خروج الليل يرهقها .
ولم تقتنع « امى » وذهبت لتطلب امك فى التليفون وتلح عليهـــا فى الحضور .
كان يجب علىّ انا .. ان افعل هذا .
ولكنى شغلت بلقائك .. عما يجب .
مخالفة من مخالفات الليلة الممتعة .. الحافلة بالمخالفات .
وجلست وإياك على الارجوحة ، وانا اصيح بنادية :
ـــ لماذا لا تأتين للاستمتاع بالتأرجح امام أجمل لوحات الطبيعة ؟
ورد حسان ضاحكا :
ـــ الأساتذة لا تتأرجح يا سهير .. التأرجح للتلاميذ فقط .
وصحت أنت ضاحكا والأرجوحة تهتز بنا :
ـــ احتج بشدة .
ورد عليك حسان :
ـــ لا داعى للاحتجاج .. اعتبر نفسك قائد عموم المراجيح .. بالجمهورية العربية المتحدة .
وعاد « حسان » ليتشاغل بالحديث مع نادية ..
وعدنا نحدق سويا فى الأفق ، وكانت الشمس قد غابت وموكب النور قد انفض .
وهبت علينا نسمة خفيفة حملت اريج الياسمينة المتسلقة على حافة الشرفة .
وملأت صدرك بالنسمة الحلوة ، وهتفت متسائلا :
ـــ رائحة عجيبة .. من اين ؟
واجبتك وانا اترك الأريكة متجهة إلى الياسمينة :
ـــ من شجرة الياسمين المتسلقة على الشرفة .
واردفت وانا امد يدى لاجمع الياسمين :

ـــ ساجمع لك بعضها .
وقفزت من الاريكة وانت تقول :
ـــ ساجمعه لك انا .
واخذت تجمع الزهور البيض .
ولم يطف بذهنى من قبل ان جمع الياسمين يمكن ان يكون ممتعا إلى هذا الحد .
ورفعت يدك بكوم من الزهور تشمها فى نشوة .. ثم مددتها إلىّ قائلا :
ـــ اتعرفين كيف تصنعين منها عقدا ؟
ـــ لست فى حاجة إلى العقد .. ساعمل لك منها مسبحة .
ـــ مسبحة بالياسمين ؟
ـــ ولِمَ لا ؟ ! اهناك اجمل من الياسمين وسيلة للتسبيح بحمد الله ؟
واجبت باسما :
ـــ وسيلة جميلة ، ولكنها سريعة الذبول .
وعدت تنظر إلى عينى وتسترسل فى لهجتك الرقيقة :
ـــ وانا اشعر انه قد منحنى ما يستحق التسبيح بحمده إلى آخر العمر .
ومن جديد عدت تلمس اعماقى .. وتملؤنى إيمانا .. وضوح طريقى .. وبان النهاية المبهمة .. لم تعد بعد مبهمة وانها باتت اشد من البداية إشراقا واكثر وضوحا .
وسمعت صوت عربتنا تقف بالباب .. ووصل إلىّ صوت « ابى » يتحدث مع الناس .. وملأنى صوته بمزيد من الثقة والتفاؤل وتمنيت لو استطعت ان انقل إليه مشاعرى واحدثه عن إشراقة بدت فى طريق حياتى .
كنت ادرك مدى انعكاس مشاعرى على مشاعره . ومدى انفعاله بانفعالى .. وسعادته بسعادتى .

وتمنيت ان أخبره بان ثلوج الياس المتراكمة فى نفسى ، والتى سدت الطريق أمام آمالى الطبيعية .. قد ذابت .. وانى بت اشعر بحرية التمنى وانطلاقة الآمال .. دون ان اضع لنفسى قيودا من خشية او حواجز من قلق وخوف .

ولكنى لم اكن اتصور كيف يمكن ان اخبره ؟

او حتى ماذا اخبره ؟ . وليس ثمة شىء يمكن ان يقال . ليس اكثر من احاسيس فى اعماق الاعماق .. قد اثارتها كلمة .. او نظرة .

وغادرنا الشرفة لنستقبل « ابى » وكوم الياسمين ما زال فى يدى .

وفتحت الباب قبل أن يدق الجرس .

واقبل « أبى » ومن ورائه بعض الاقارب .. خالتى حفيظة .. وزوجها عبد الله ، واخوه عبد الحميد وزير المالية السابق .. وزوجته كوثر وابنتهما عادلة .

واخذت بمجموعة الاقارب التى صحبت « ابى » ، ولم يكن لدىّ ادنى فكرة عن اية دعوة سابقة لهم ، وبدوا لى نوعا من القيد على حريتى فى التصرف معك .. وعاد يساورنى الإحساس بانى ارتكب معك ذنبا .. يجب الا يكشف امره للناس .. وإذا استطاع اولئك الاقربون إلىّ .. والذين قد يجدون فى صلتنا القديمة ما يبرر طريقة تصرفنا معا ان يفهموا .. ويقدروا .. ويتسامحوا .. فلا اظن بقية الاقارب يسيغون بسهولة تلك الطريقة .. مما يجعلنى إما ان اتحفظ امامهم فى تصرفاتى معك .. او اثير تساؤلهم واتسبب فى عدم رضائهم علىّ .

وانتهت ضجة الترحيب والتعارف واستقر بنا المقام فى مجموعات فى البهو المفضى إلى الشرفة وإلى حجرة المائدة .

وكان علىّ ان اتركك تتحدث مع الرجال ، وتشاغلت عنك بالإقبال على « عادلة » وامها وخالتى « حفيظة » .

ولم يحاول « حسان » ان يضع اى قيد على تصرفاته فلم يشغل

نفسه بغير « نادية » ، واقبل عليها بغير تحفظ وبلا اى اعتبار .. سوى انها شىء خاص به .. لا يهمه سواه .

واقبلت « امى » من المطبخ تبدى الترحيب والله اعلم بما اثاره منظر الضيوف الذين احتشدوا فى البهو من إزعاج .. وكيف حاولت ان تدبر مسألة العشاء لهؤلاء جميعا .

واخذ ابى يفسر لأمى ــ فى شبه اعتذار ــ كيف اتى بثلة الاقارب قائلا :

ــ التقينا فى نادى الشرق وتأخر السائق عليهم .. فعرضت ان اوصلهم .. واصر « عبد الحميد » ان يصعد لتحيتك .

وردت امى مرحبة :

ــ اهلا .. وسهلا .. البيت نوّر .

واردف ابى قائلا :

ــ وجدتها فرصة طيبة لتتعرفوا بضيوفنا .

ورحت أنت و « نادية » تتبادلان عبارات الترحيب مع اقاربى .

وقال عبد الحميد بك :

ــ اهلا وسهلا .. فرصة طيبة .

وصمت برهة ثم استرسل يقول :

ــ كيف وجدت بلدنا ؟ !

واجبت فى رقة :

ــ وجدتها بلدى .

وهز عبد الحميد راسه مؤمنا وقال :

ــ اجل .. اجل .. نحن بلد واحد .

وبدا كأنه يريد ان يقول شيئا يتردد فى قوله .. وبعد بضعة هزات من راسه اكمل قائلا :

ــ ولكننا كنا نريد من الوحدة .. اشياء كثيرة .

وساد صمت محير لم يقطعه سوى تساؤل « حسان » مستفسرا :

ــ كيف ؟

ورفع عبد الحميد رأسه وأجاب قائلا :
— كل شيء يبدو لي كما كان قبل الوحدة .. لا يوجد هنا من يحسم في أمرنا .. كل شيء يبدو معطلا .
وأردفت خالتي حفيظة تقول ببساطة :
— بلد بلا حاكم .
ورفعت أنت حاجبك في شيء من الدهشة .. ولكنك لم تجسر على التساؤل .. وتساءلت أنا عنك قائلة :
— كيف ؟ وماذا يفعل الحكام هنا ؟
ورد عبد الحميد قائلا :
— يحكمون لحسابهم .. لا لحساب الناس .
وأردف عبد الله يكمل حديثه بقوله :
— وحكام القاهرة بعيدون عنا .
وأيد أبي قوله مرددا :
— ومشكلاتنا هنا تحتاج لحسم سريع عادل .
وقال عبد الحميد :
— لقد وصل المشير إلى هنا منذ بضعة أيام .. لماذا لا يبقى معنا .. حتى يخلص الناس من كل هذه المشكلات والمتاعب .
ورد عبد الله قائلا :
— سمعنا أنه سيمكث بيننا فعلا .
وهتفت خالتي حفيظة داعية :
— يا ليت .
واستمرت المناقشات ملؤها التبرم بالحكم والضيق بالحكام .. وقال حسان في شيء من السخرية :
— لا يعجبكم العجب ولا الصيام في رجب .
وأجابت خالتي حفيظة :
— لا يعجبنا الحال المائل .
وقلت أنت معلقا على الحديث كله :

— كل شيء سينصلح إن شاء الله .. لم يكن من السهل تحقيق الوحدة بالسرعة التي تمت بها .. وهي تجربة جديدة لابد أن نحاول حل مشكلاتها بالصبر .
وردت خالتي حفيظة قائلة :
— لعل الصبر لا ينفد قبل أن تحل .
وأقبلت أمي تعلن إعداد العشاء .
لم أحاول أن أتحفظ في دعوتك للمائدة أو الجلوس بجوارك .. فقد أحسست أن هذا واجب لا يمكن أن ألام عليه ..
وقدمت إليك « فتة المجدوس » وأنا أقول ضاحكة :
— لعلك لم تنس اسمها ؟
— فتة المجدوسة .
— المجدوس .
وانتهينا من الطعام .. وأحسست أن « أمي » قد منحتك الجزء الأكبر من اهتمامها .. لست أدري .. ألأنها أقامت الوليمة من أجلك .. أم لأنها أحست أنك بت تعني شيئا لدي .. وأنك بت من أسباب سعادتي .
وتركنا المائدة وعدنا إلى مقاعدنا في البهو .
ونظرت إليك متسائلة :
— أتريد أن تسمع التسجيلات التي حدثتك عنها .
وألقيت نظرة على الساعة في يدك ، وعلى الضيوف من حولك .. ثم قلت في تردد :
— أظن أن الوقت قد حان للانصراف .
وأحسست بما تشعر من كلفة وسط هذا الجمع من الأقرباء .. ولم أعرف كيف أرفع عنك قيود الكلفة .. وتمنيت لو انصرفوا حتى تستطيع أن تجلس بغير إحساس بالحرج .
وأجبتك في دهشة من رغبتك في الانصراف :
— الساعة لم تتجاوز العاشرة بعد ؟

وقال حسان ساخرا :
ــ لقد تعود على النوم المبكر فى الثكنات .
واجبت انا ضاحكة :
ــ سنعلمه السهر .. إنه لم يعد بعد صغيرا .
واتجهت إلى جهاز التسجيل وانا اتساءل قائلة :
ــ ماذا تريد أن تسمع ؟
ــ قلت لى إن لديك تسجيلا لأغنية عبد الوهاب بصوت « فيروز » .
ومددت يدى انحص الاشرطة .. وعدت اتساءل :
ــ يا جارة الوادى ؟
واشرت براسك مجيبا :
ــ اجل .
وقبل ان اضع التسجيل فى الجهاز قلت لك متخابثة :
ــ سأسمعك آخر تسجيل لفيروز .. من تلحين عبد الوهاب ايضا .
ــ شيئا غير يا جارى الوادى ؟ .
ــ اجل .
ووضعت التسجيل وبدأ الموسيقى .. واقتربت منـك وهمست باسمة :
ــ شيئا يفيدك .
وبدأت فيروز تغنى « اسهار بعد اسهار » .
وعلت شفتيك ابتسامة عريضة .. وانت ترهف سمعك للأغنية .. وجلست على مقعد صغير بجوارك .. اشرح لك ما غمض عليك من كلامها .
وسرى صوت فيروز ناعما حالما يردد :
« اسهار بعد اسهار »
« تايحرز المشوار »
وهمست فى اذنك قائلة :

« اسهر حتى يستحق المشوار » .
واستمرت فيروز تغنى .
« كتارها الزوار »
« شوى وبيفلو » .
وعدت اهمس .
« بعد قليل سينصرفون » .
واستمرت الأغنية ولم اجد بها ما يحتاج إلى شرح وهى تقول :
« بيتك بعيد .. وليل .. بخليك ما يخليك ترجع .. احق الناس إحنا بيك » .
ولذت بالصمت واخذت تنظـر إلىّ وانت ترهف السـمع إلى الاغنية .
وهمست متسائلة :
ــ فاهم ؟ !
واشرت براسك مجيبا فى إطراق دون ان تنبس بكلمة .
وانتهى التسجيل وصوت فيروز ما زال يردد فى آذاننا :
ــ بس اسهار .. اسهار !
وهمست وانا اتجه إلى جهاز التسجيل :
ــ اما زلت تريد الانصراف ؟
وهززت راسك بالنفى ، ورحت تنظر فى عينى باسما .
واسمعتك « يا جارة الوادى » .. و « خايف اقول اللى فى قلبى » .. وانصت إليهما فى طرب وإعجاب .
ورحنا نسمع ونتحدث ، واقبلت عليك ببسـاطة وبغـير تحفظ ولا إحساس بالحرج .. حتى انتصف الليل .
ونظرت إلى الساعة وهمست لى قائلا :
ــ اظن الوقت قد حان للرحيل ؟
وصمت لحظة ثم استرسلت تهمس .

— كتارها الزوار .. لكن ما بيقلو .

والتفتت نادية وقد سمعت همساتك وقالت ضاحكة :

— نقل نحن .

ثم نهضت وهي تردد قائلة :

— هيا بنا .. لقد تأخرنا .

ونهض أبي وهو يراكما تستعدان للرحيل قائلا :

— ولِمَ هذه العجلة ؟

وقلت أنت معتذرا :

— انتصف الليل .

— وبدأ السهر يحلو .

وردت نادية ضاحكة :

— سيحتاج كل منا إلى فراش .. إن هذا اقصى ما نستطيعه من سهر .

— إذن دعى الأسطى على يوصلكما .

ونهض عبد الحميد قائلا :

— لا داعى للأسطى « على » .. سأوصلهما بعربتنا .. لقد وصلت أخيرا .. أين تسكنان ؟

وردت نادية قائلة :

— في حى المزرعة .

— سنحملكما فى طريقنا .. هيا بنا .

وقال أبى لعبد الله وهو يراه يهم بالقيام :

— ابق معنا .. سأدع عربتى توصلكم .

ونظر عبد الله إلى « خالتى حفيظة » متسائلا عن رأيها فأجابته :

— لنبق قليلا .

وودعكم أبى وأمى عند الباب .. وتمنيت لو استطعت أن أهبط معك حتى العربة وأن أمنح نفسى حق الحديث إليك على حدة .. كما منح « حسان » لنفسه مع نادية .

كنت أريد أن أسألك متى سنلتقى ثانية .

فقد أحسست أن لقاءنا .. قد بات حقا طبيعيا لنا .. لا يصح أن نتساءل فيه .. أو نتركه للظروف .. تدبره حيث تشاء .

وأمسكت بيدى تشد عليها شدة الوداع وفى عينيك السؤال الذى تسأله عيناى .. « متى سنلتقى » .

وكان على أحدنا أن يقول شيئا .

وكنت أشعر أنى أكثر منك قدرة على التصرف .. فقلت أتساءل ببساطة :

— سنتصل بك لنراك قبل أن ترحل ؟

— طبعا .. إذا لم أتسبب فى إقلاقكم .

— أبدا .. نحن نستيقظ مبكرين .. واتصل بنا فى أى وقت تشاء .

وأحسست بشىء من الطمأنينة وأنا أراك تنصرف إلى لقاء آت .

وأويت ليلتذاك إلى فراشى .. وأنا أستعيد لنفسى كل ما حدث بيننا .. وفى مسمعى صوت فيروز تردد .. أحق الناس أحنا بيك » ونظراتك فى عينى .. تنفذ إلى قلبى .. وترسب فى أعماقى .

قلق

احسست من تلك السهرة بان وثاقا جديدا قد شدنا سويا وباتت الارض تحت اقدامنا اشد صلابة والطريق اكثر وضوحا .

وببساطة سلمنا لانفسنا بحقنا فى اللقاء كلما حضرت إلى دمشق ، بل سلمنا بانه واجب علينا .

وبدت الصداقة بيننا لكل من حولنا امرا طبيعيا سليما ، واستطعت برقتك الطبيعية وصفاء ذهنك وخفة دمك .. ان تكسب محبة الجميع وأن تجعل من زيارتك امرا مرغوبا فيه .. حتى من خالتى « حفيظة » .

نعم .. حتى من خالتى .. لانى اراها خصما لك .. فلا شك انها ادركت بذكائها الخارق ، انك تشكل عنصرا جديدا من عناصر الخطر على مشروعها المزمن .. الذى تابى التسليم بإخفاقه .

ويبدو ان سهرتنا تلك .. قد دفعت فى نفسها إحساسا بازدياد الخطر على مشروعها .. فعزمت أن تتخذ خطوة إيجابية تحسم بها الامر .

ولست ادرى أكانت دعوة الغداء التى دعتنا إليها فى بيتهم قد دبرت من اجل المناقشة التى اثارتها .. ام ان المسألة قد اثيرت عفوا بعد الغداء .

كنا نجلس فى البهو الزجاجى المشرف على الحديقة ، والابواب الزجاجية العريضة تحجب عنا نسمة باردة قد اخذت تتلاعب بأوراق

الشجر ، وخرير المياه يصل خافتا إلى مسامعنا من المجرى المتدفق بجوار السور على طول طريق برمانة .

واسترسلت خالتى تتحدث عن مشروع قرى الحدود النموذجية التى تعاون الجمعية الجديدة التى تعمل بها على إتمامه قائلة :

ـ لقد اوشك المشروع ان يتم ، وبعد بضعة اسابيع ستصبح القرى الجديدة صالحة للسكنى ، وستخلو القرى القديمة من سكانها .

وقال زوجها « عبد الحميد » وقد بدا عليك الشك :

ـ لست ادرى ما الذى يدفعنا إلى إقامة قرى جديدة على قيد خطوات من إسرائيل .. تكون عرضة للضياع فى اول هجوم لهم .

ورد « حسان » على ابيه فى حماسة :

ـ كيف تضيع ؟ إن اهلها سيزودون بالسلاح وسيكون منهم مقاومة شعبية تستبسل فى الدفاع عن كل شبر من الارض .. سيدافعون لآخر قطرة من دمائهم ذودا عن بيوتهم واسراتهم ، وكيانهم .

وقالت خالتى :

ـ إنها ستكون قرى دفاعية تحل محل القرى القديمة بحيث تصبح صالحة للسكنى الصحية ، والدفاع عن ارض الوطن ..

وهز « عبد الحميد » راسه وقال فى غير اقتناع :

ـ تقاليع . المفروض ان تخلو القرى من اهلها هناك وتصبح مراكز دفاعية .. يحتلها الجيش .

ورددت انا مدافعة :

ـ إن اليهود ينشئون المستعمرات على الحدود . فلماذا لا نحصن قرانا هناك .. ونشرك اهلها فى الدفاع عنها ! ؟ إن كل فرد منا مسئول عن الدفاع عن هذا الوطن ، واهل القرى هناك احق الناس بالدفاع عنها ويجب أن يمنحوا فرصة الدفاع .

إنه مشروع ممتاز ، ويجب ان نسهم فيه كلنا .

وقالت « خالتى » فى فورة الحماسة التى اثارتها :

— سآخذك معى إلى الجبهة فى اول رحلة .. لترى ما استطعنا ان نعاون فى إنجازه من هذا المشروع .

ورنت لكمة الجبهة فى مسمعى .. رنينا عذبا ، ووجدت ذهنى يجمح اليك ، وتدفقت ذكريات لقائك فى خاطرى ، وتقفك بجوارى امام الوادى الأخضر السليب .. وكفى فى كفك تساعدنى على تسلق الربوة .. والغداء سويا .. ومعرض الفاكهة .. وكلماتك الحلوة التى استقرت فى أعماقى « احبك كما انت » .

ووجدتنى اهتف متسائلة بغير وعى :

— اسيذهبون إلى الجبهة ؟

وردت خالتى :

— طبعا .. لقد ساهمنا مساهمة فعالة فى المشروع .. وسنعاون فى إخلاء القرى القديمة ، وانتقال الاهالى إلى القرى الجديدة .. لابد ان نكفل لهم حياة طيبة .

— ساذهب معكم .

وقالت امى تنهرنى :

— الم تذهبى مرة فى مهرجان الشعر ؟

وقلت ببساطة :

— ومن اجل ذلك اريد ان اذهب مرة ثانية وثالثة ، لقد كانت زيارة ممتعة .

ولم اعرف على اى محمل اخذ قولى .. ولكنى وجدت الشرود يبدو على قسمات « خالتى » ، ولم اتبين .. ما إذا كان طيفك الذى يحوم فى ذهنى وانا اتحدث بحماسة عن الجبهة .. قد نمت عليه حماستى .. ام كان « شرود » خالتى فى امر لا علاقة له بك .

وكان يمكن ان تمر المسالة .. فانا اعرف ان « خالتى » اذكى من ان تترك انفعالها يسيطر على اسلوبها فى الحديث ، واعرف انها تحبنى وتحذر من كل ما يضايقنى .

ولكن حسان نظر فى الساعة ، ونهض مسرعا وهو يقول :

— الساعة الثالثة إلا عشر دقائق .. وموعدى مع نادية فى الثالثة .. عن إذنكم .

وبدا الضيق على وجه « خالتى » .. ولم تستطع ان تمنع نفسها من لوم « حسان » بقولها :

— عندما يدعو الرجل المهذب ضيوفا للغداء .. لا يتركهم ويذهب .

ورد « حسان » ضاحكا :

— ماذا تقولين ؟ اتسمين هؤلاء ضيوفا ؟

واسترسلت « خالتى » فى لومها :

— لم يكن هناك ما يدعو الآن ترتبط بموعد فى هذه الساعة ..

واجاب « حسان » مستمرا فى مزاحه :

— متاسف جدا .. فى المرة القادمة لن افعلها .

وفجاة ، وبغير سابق إنذار ، اطلقت « خالتى » قذيفتها قائلة :

— كنت اوشك ان اتحدث فى موضوع هام .. يخصك انت .

وتساءل « حسان » فى دهشة .. دون ان تكون لديه ادنى فكرة عما توشك « خالتى » ان تقول :

— يخصنى انا ؟

— اجل .

— بخصوص ؟

— زواجك .

— زواجى انا ؟ !

— اجل .

ونظر « حسان » إلينا فى دهشة وعاد يسائل امه قائلا :

— اتتكلمين جادة ؟

— طبعا جادة .. اهذا موضوع يحتمل المزاح !

ورد حسان :

— إنه موضوعك الدائم للمزاح .. طول عمرك تمزحين به .. لقد زوجتنى مئات المرات .. لصاحبة العصمة الجالسة بجوارك .

وضحكت انا .
ولكن « خالتى » لم تضحك .. بل ازدادت تجهما وردت عليه قائلة :
ـــ إذا كنت قد اخذت قولى فيما مضى مأخذ المزاح ، فقد حان الوقت لتاخذه مأخذ الجد .
واستمر حسان فى عبثه قائلا :
ـــ ولماذا ! ؟
ـــ لانى اريدك ان تتزوج سهير .. إنها امنية عمرى .
وعلت علامات الضيق وجه « حسان » وهو يرى امه مستمرة فى جدها ، واحس بالكثير من الحرج وهو يرى المناقشة تتطور إلى مثل هذا الوضع .
وتحدث ابوه قائلا فى هدوء :
ـــ هذه امور لا تؤخذ بهذه الطريقة .. كل شىء مرهون بوقته .
وقالت خالتى :
ـــ إنه لم يعد صغيرا .. وانا غير راضية عن تصرفاته .
وتساءل «حسان » فى تحد :
ـــ من اية ناحية ؟
ـــ من ناحية نادية .
ـــ إنى اتصرف معها التصرف الطبيعى .
وقبل ان تجيب « خالتى » القى « حسان » قنبلته ببساطة قائلا :
ـــ لقد قررت ان اخطبها .
واحمر وجه « خالتى » ورفع زوجها حاجبيه فى شىء من الدهشة وقال « ابى » فى إخلاص :
ـــ نادية مخلوقة ممتازة .. كل شىء فيها يدعو إلى الإعجاب .
وفقدت « خالتى » قدرتها على التحكم فى اعصابها وصرخت فى « ابى » قائلة :
ـــ ما هذا الذى تقوله يا عبد الهادى .. إنكم تساعدونه على الخطأ

.. بدل ان ترشدوه إلى الصواب .. من يقارن نادية بسهير .. سهير ....
وكرهت اسلوب « خالتى » فى التفكير .. وبرغم ان ما كانت توشك ان تقوله لن يتجاوز المديح لشخصى فقد وجدتنى اقاطعها قائلة :
ـــ نحن لا نكره على الزواج يا خالتى .. إن لحسان الحق فى ان يختار من يشاء .. وانا ايضا اعتقد انى املك هذا الحق .. إننا نحبك .. ونتمنى رضاءك .
وقاطعنى « حسان » قائلا :
ـــ ولكن ليس بالرضوخ لاوضاع ، ترفض مشاعرنا التسليم بها .
وردت « خالتى » وقد انقلب غضبها إلى حزن يائس :
ـــ انا ادرى منك بكل هذه الامور .. ادرى منك بنزوات الشباب .. كنت اتمنى ان اجهز بيتكما .
وضحك « ابى » قائلا :
ـــ جهزى بيتين .. بدلا من بيت واحد .
واجابت « خالتى » وهى تلوى عنقها :
ـــ لن اخطو بقدمى إلى بيته .
واقبل « حسان » يسأل فى استعطاف :
ـــ لماذا ! ؟ إن نادية طيبة ، وهى تحبك جدا .
واقتربت من « خالتى » اربت ذراعها ، وتساءلت ضاحكة :
ـــ وستخطين إلى بيتى انا ؟
وردت خالتى :
ـــ ولا انت .. إنكما لا تعرفان مصلحتكما .
وقال « حسان » مؤكدا :
ـــ انا اعرف مشاعرى .
ونظر إلى ابيه واسترسل يقول فى لهجة حازمة :
ـــ ومن اجل هذا ساخطب نادية .

وردت « أمى » تؤكد ما قاله ابى :
ـ إنها فتاة طيبة .. واصيلة .
ووجه « حسان » الحديث إلى « امه » قائلا فى لهجة مترددة :
ـ أيمكن ان تذهبى إلى امها ؟
ورفعت « خالتى » حاجبيها فى دهشة وتساءلت :
ـ من اجل ؟
ـ خطبتها .
ـ انا ؟ ! تقطع قدمى ولا أخطو هناك .
وقالت « أمى » لها ناهرة :
ـ ما هذا العناد يا حفيظة .. إنه لا يرتكب منكرا .
ثم نظرت إلى حسان قائلة :
ـ سآخذها إلى هناك .. سأتصل بهم فى التليفون .. وتحدد موعدا لزيارتهم .
وتهللت أسارير حسان ..
لم يكن يتوقع ان تنتهى الزوبعة بمثل هذه السرعة .. ويتم الامر فى مثل هذه السهولة .
واقبل على « امه » يضمها بين ذراعيه قائلا :
ـ ستذهبين مع خالتى .. إن أمها طيبة جدا .. وهم يحبوننا .
وضحك أبوه قائلا :
ـ يحبونك أنت يا جحش .. أنت الذى ستتزوجهم ؟
ورد حسان فى حماسة :
ـ بل يحبوننا جميعا .
ونظرت إلى الساعة فإذا بها قد جاوزت الثالثة .. فقلت لحسان :
ـ موعدك قد ضاع .
واندفع حسان إلى الباب فرحا وهو يقول لأمى ولأمه :
ـ سأخبرها أنكما ستزورانهم .
وقال أبوك وهو يهز رأسه :

ـ هذه أشياء لا يمكن التخطيط لها .. او النبوءة بها ، الأمر فيها متروك للقدر .
ورد ابى قائلا :
ـ ونعمة الله إنه إنسان طيب .
وهكذا وضعت المناقشة العاصفة فى بضع دقائق .. خاتمة مشروع الزواج الذى ظلت « خالتى » تعد له السنين الطوال .
وكان عليها ان تسلم أمرها لله وهى ترى الرأى العام العائلى مع ابنها .. بل وهى ترانى اتخذ موقفا حازما واضحا ينبىء عن زهدى فى المشروع زهدا تاما .
وبرغم أنى لم أفكر مرة واحدة فى جدية الموضوع .. وبرغم أنه لم يسبب لى أبدا أى إحساس بالقلق اللهم إلا فى تلك اللحظات عندما كانت « خالتى » تتحدث عنه كأمنية من أمانيها .
وبرغم ذلك كله .. فقد احسست بعد ذلك القرار السريع الحاسم بالموافقة على خطبة حسان إلى نادية .. بأن عبئا قد انزاح عن كاهلى .. وأنها قد وضعت حدا حتى لمجرد المزاح فيها .
واسعدنى أكثر من هذا إحساسى بأن ثمة ارتباطا واضحا قد بات يشدنا ويقرب بيننا ويمنحنا فرصة أكثر للقاء .. ويبرر ما قد تدفعنا إليه مشاعرنا من مظاهر المودة التى قد لا يبررها للناس مجرد الصداقة العادية .
ومرت الأيام .. وأنا أنتظر لقاءك بإحساس جديد .. إحساس بمزيد من الطمأنينة والثقة .. ومزيد من الآمال الحلوة والأمانى الطيبة .. وطريق الحياة أمامى يزداد إشراقا والنهاية تبدو أكثر تألقا .
ومضى الأسبوع الأول ولم تأت .
وعلمت من نادية أنك نوبتجى .. بعد ان مرت بى الساعات وقلق الانتظار يضيق الدنيا الواسعة من حولى .. ويثير اعصابى .
ولم ارك فى الأسبوع الثانى ولم اعرف لمه .. وخجلت ان اسأل .

وذهبت إلى بيروت خلال الاسبوع الثالث ، وعند عودتى عرفت انك اتيت لبضع ساعات ثم عدت إلى الجبهة فى اليوم نفسه .

واحسست بضيق شديد .. وتمنيت لو لم اذهب إلى بيروت .. وبدا لى ان القدر يعاندنى ، وانه ياخذ بيد ما يمنح باليد الاخرى ، وان الإحساس الجميل الذى منحنيه بالتقريب بيننا ، بمشروع « حسان » فى خطبة « نادية » .. لن تتاح لى فرصة استمرائه والاستمتاع به .. وانا اجد لقاءك قد استعصى على .

وملأنى شعور بالحزن ، وانا اجد نفسى عاجزة عن الاتصال بك .. عاجزة عن الاستفسار عنك .. دون ان اجد من الجراة ما يمكننى من الإفصاح حتى عن مجرد إحساسى بالضيق .

وبدت لى قصور امانى .. قصورا من ورق .. تعصف بها ريح القلق والشك .. ولم اجد امامى سوى « سلمى » .. ابثها ما بنفسى من ضيق وانفس عما بى من قلق .

كنت اجلس فى شرفتها ، وقد شردت بعينى فى الساحة المزدحمة بالناس والعربات .. دون ان ابصر شيئا .

وربتت سلمى ركبتى برفق قائلة :

ــ ما بك يا سهير ؟

وهززت راسى دون ان انبس بكلمة .

وعادت سلمى تسال :

ــ تبدين شاردة هذه الايام .. وكان هناك ما يقلقك ؟

ولم اعرف كيف اجيب .

فقد كان هناك فعلا ما يقلقنى ، ولكن هل اجسر على الإفصاح عنه ؟

هل اجسر ان اقول .. إن غيابك اقلقنى ؟

كيف !! وما تكون انت بالنسبة إلىّ .. واى حق لى فى ان اقلق لغيابك ؟

إنى لم استطع ان احدد ــ حتى لنفسى ــ ما تكون بالنسبة إلىّ !.

لماذا امنح نفسى حق انتظارك ؟

إذا كنت ابرر ترحيبى بك ، وإقبالى عليك .. بأنك صديق قديم ؟ وصاحب فضل على سابق .

اى شىء إذن ، يبرر لهفتى على لقائك وقلقى لغيابك ؟ !

اى شىء .. يقال للناس ، او حتى لنفسى .

إن كل ما بيننا اشياء راسبة فى الأعماق .. لم نجسر حتى على تحديد وصفها ، ولا على تسميتها ، او الإفصاح عنها .

اهى حب ؟ !

حتى وقتذاك لم اكن ادرى .

لم اكن ادرى انك تترك فى نفسى إحساسا بالثقة وإيمانا بالحياة .. وانك تمنح طريقى إشراقة تذهب عن نفسى الخوف منه والشك فيه .

لقد منحتنى إحساسا بالتفاؤل ، والارتياح والطمانينة ، وتركتنى انتظر شيئا جميلا ، اسعى فى حياتى لآخذه .. وهو اجمل ما يمكن ان يمتعنا فى حياتنا .

ومن جديد أتساءل :

اهو الحب ؟ !

كيف اقول إنه الحب .

وانا لا اعرف بعد ما هو الحب .

ولو كان الحب .. فما اقربنى إلى قول الشاعر يقول :

عندى الهوى موصوفه لا صفاته   إذا سالونى ما الهوى قلت ما بيا

ولم اكن قد حدثت أحدا « عما بيا » سوى نفسى .

وترددت ماذا اقول لسلمى .

ولم يكن ترددى لانى لم اعرف ماذا اقول .

كيف اصف لها ما بيننا ؟

وكيف احدد لها موقعك من نفسى ؟

وعادت سلمى تسأل فى رفق :

ــ كلمينى يا سهير .. حدثينى عما بك ؟

وتمتمت بكلمات مترددة وجلة :

ــ لا أعرف يا سلمى .

ــ الا تعرفين ما بك ؟

ــ بل لا أعرف كيف أحدثك عنه .

ــ حدثيني ببساطة كما تحدثين نفسك .. ضعي أفكارك في كلمات .. بلا جهد ولا تنميق .. قولي أي شيء .. أنا لست غريبة عنك .

ــ أعرف يا سلمى .. أعرف أنك كنفسي .. ولكني لا أعرف كيف أقول ما بي .. حتى لنفسي .

قالت سلمى وهي تقترب بمقعدها مني :

ــ إذن أحدثك أنا .

ــ عمن ؟

ــ عن نفسك .

وأطلقت زفرة حارة ، وقلت لها :

ــ تحدثينني عن نفسي ؟ !

ــ أجل .. إن فرط قربي منك وإحساسي بك .. يجعلني أرى .. حتى ذلك الشيء الراسب في أعماقك .

ــ ماذا ترين ؟

وصمتت سلمى برهة وبدا كأنها تستجمع شجاعتها ثم قالت في صوت خافت :

ــ أهو حمدي الذي يقلقك ؟

ونظرت في عينيها وأطرقت .

وعادت سلمى تسأل :

ــ ماذا يقلقك منه ؟

ــ غيابه .

ــ فقط ؟ !

ووجدتني أسأل نفسي .. أهو غيابك وحده الذي أقلقني .. ولم أستطع أن أجد الإجابة المقنعة .

كان شيئا أكثر من غيابك .. وحاولت أن أفسره لسلمى :

ــ لا أظن غيابه وحده .. بل هو حيرتي في موقع كل منا من الآخر .. إن ما يربط بيننا خفي كامن في الأعماق .. لا يمكن أن يمنحنا حقا واحدا .. أحس أن ما بيننا شيء كبير .. ولكني لا أجد له معالم محددة .. حتى لنفسي .

وصمتت سلمى برهة ثم قالت هامسة :

ــ حدثيني .. ماذا قلت له .. وماذا قال لك ؟ !

وحاولت أن أسترجع لنفسي ماذا قلت لي وماذا قلت لك .. ولم أستطع أن أذكر شيئا .

لا شيء أكثر من بضع كلمات .. لو ذكرتها مجردة لبدت مثيرة للضحك .

وهمست قائلة :

ــ هذه أشياء لا تقال يا سلمى .. ولكنها تحس .

وبعد برهة صمت قالت « سلمى » تتساءل في صوت خافت :

ــ أهو يحبك ؟

وشردت في الأفق البعيد .. في ملتقى بردى بالجبل .. وقلت وكأني أحدث نفسي :

ــ لم أحاول أن أسأل نفسي هذا السؤال .. لم أجد نفسي في حاجة إليه .. لقد منحني أشياء أكثر كثيرا من مجرد كلمة .

وأطلقت تنهيدة مريحة وأنا أستعيد لنفسي ما منحته لي ، وأحسست أن حديثي مع « سلمى » قد خفف كثيرا من شعور الضيق الذي حملته .

ورحت أسترسل في الحديث .. مرددة ذكرياتي الحلوة ، وأنا أسترجع لذهني زيارة بلودان ، والجبهة ، والسهرة الأخيرة .

وأخذت أردد قولك وأنت تنظر في عيني نظراتك الرقيقة المعجبة عندما عرضت عليك أن أصنع لك مسبحة من الياسمين :

ــ إنها سريعة الذبول .. وسيكون لدي ما أحمد الله عليه طول العمر .

وابتسمت سلمى وبدا عليها الرضا و السعادة وهى تقول :

ــ ماذا يقلقك إذا يا سهير ؟

وقلت لها باسمة :

ــ لا نستطيع ان نعيش على ذكرياتنا إلى الابد يا سلمى ؟

ــ بضعة اسابيع .. ليست طويلة .. ليست إلى الأبد ..

وعدت إلى البيت وانا اكثر طمانينة ، واقل قلقا .

لقد استطاع إفضائى إلى « سلمى » ان يمنحنى الصبر والسكينة .

ولم اكد أصل إلى البيت حتى وجدت « خالتى حفيظة » توشك ان تغادر البيت ، وحيتنى قائلة :

ــ سأذهب غدا إلى الجبهة مع الجمعية .. اتريدين الذهاب معنا ؟

ولم استطع ان اكتم فرحتى ، وانا اجيبها :

ــ طبعا .. لقد قلت لك إنى اود ان اسهم فى الجمعية بكل ما املك .

ــ سأمر عليك صباح الغد .

وصاحت امى من الداخل :

ــ والكلية ؟

ورددت عليها فى إصرار :

ــ لن أذهب إلى الكلية .. ليس لدينا شىء هام .

ولاول مرة منذ بضعة اسابيع .. نمت سعيدة هانئة .

عَـوْدة خائبـة

استيقظت فى اليوم التالى يملأ نفسى إحساس بالتفاؤل . ولم اكد أتناول الإفطار حتى سمعت صوت عربة خالتى تقف بالباب .

وهبطت الدرج تلاحقنى تحذيرات امى وتوصياتها بأن آخذ بالى من نفسى .. ولاحقتنى من الشرفة تواصل توصياتها لخالتى بالا تتاخر فى العودة ، وقذفت من الشرفة بشال من الصوف آمرة إياى بلهجتها المذعورة :

ــ لفى راسك وعنقك بالشال .. واحذرى البرد .

ووقفت اتلقف الشال وانا ارد عليها فى غيظ :

ــ إنى ارتدى الفانلة الصوف والبلوفر والبالطو .. ماذا افعل اكثر من ذلك ؟

ودخلت إلى العربة وقذفت بالشال إلى جوارى وانا احيى خالتى قائلة :

ــ صباح الخير .

ولم اجد فى العربة سواها فتساءلت قائلة :

ــ الن يأتى حسان ؟

وهزت راسها بالنفى ثم قالت :

ــ سنلتقى ببقية اعضاء الجمعية فى ميدان السبع بحرات ثم نتجه إلى الجبهة راسا .. إن موعدنا فى القيادة الساعة العاشرة .

— أسينتظرنا هناك أحد ؟

— طبعا . .لقد اتفقنا على الزيارة منذ أول امس .. وكان المفروض أن تتم بالأمس .. لولا انشغالهم ببعض التحركات .. ففضـل قائد الجبهة أن تتم اليوم حتى يستطيع أن يرسل بعض الضباط للقائنا والطواف معنا بالقرى الجديدة .

وعاد ذهنى يجمح بى إليك .

والأسئلة تتلاحق فى رأسى دون أن تجد مجيبا .

أتراك تعلم بنبأ هذه الزيارة ؟

أتعرف من سيكون بها ؟

أيمكن أن يخطر ببالك انى سأكون بينهم ؟

غير معقول .. ماذا يدعوك إلى التفكير فى كل هذا ؟

ولِمَ لا ؟ !

لو كنت مكانك لفعلت .

إنى أكاد أراك فى كل حلة عسكرية تعبر الطريق .. وأتوقع مجيئك وراء كل نبأ عن الجبهة .

محتمل جدا أن تعرف أن أعضاء الجمعية سيزورون قرى الجبهة اليوم .. وجائز جدا أن تعرف أنهم سيصلون إلى قيادة الجبهة فى العاشرة .

وليس من المستبعد أن تعرف من الذى سيحضر .. وتميز من بينهم اسم خالتى .. وقد يخطر ببالك أنى سأحاول أن أصطحبها لأراك .. ولا أظن حضورك للقائنا .. والطواف بنا .. أمر يتعذر عليك تدبيره .

لو كنت مكانك لفعلت هذا .

بل لقد فعلت ما هو أكثر منه .

قدمت إليك حتى مقرك .

خطوت إليك معظم المسافة .. وليس أمامك إلا بضع خطوات لكى نلتقى .

لو كان بك نفس لهفتى إلى لقائك .

فلا أظن لقاءنا بمستعص علينا اليوم .

ولكن .. أبك نفس اللهفة ؟

لقد ملأتنى فى كل لقاء لنا إحساسا بهذا .

ولكن .. لماذا لم تدفعك هذه اللهفة إلى محاولة لقائى خلال تلك الفترة الطويلة بعد سهرتنا الأخيرة بدارنا ؟

أهى معاكسات القدر ؟

جائز !

ولكن أيمكن أن تقف معاكسات القدر ، أمام إرادتنا ؟

لماذا لم أستسلم أنا إذا .. وتقدمت إليك لأراك !

ولكنك أيضا قد أتيت .. لتجدنى فى بيروت .

لماذا لم تأت ثانية .. وثالثة ؟

ألا يحتمل أن تكون مشغولا ؟

طوال هذه المدة ؟ ؟

ولِمَ لا ؟

إذا أكتب .

وهل تستطيع ؟ !

أتسمح لك فرط حساسيتك أن تضعنى فى حرج تسلم رسالتك واحتمال وقوعها فى أيدى الغير ؟

أتسمح لنا علاقتنا الشكلية أمام الناس .. بأن نتكاتب ؟

بالطبع لا .

أى حرج يمكن أن أوضع فيه أمام أبى وأمى ، عندما تصلنى رسالة منك ؟

إذا تحدث بالتليفون ؟ !

غير معقول .

ماذا يقول أهل البيت عندما تطلبنى من الجبهة ؟

أى شىء عاجل هام .. يدفعك إلى الحديث إلىّ ؟

إذا قل لنادية اختك ان تخبرنى باى شىء ؟

او تعرف نادية ان بيننا شيئا .. او هل هناك بيننا ما يمكن ان يسمى أمام الغير ؟

هل بيننا ما يبيح لنا اللهفة على اللقاء .. او الاعتذار عن الغياب ؟

المصيبة .. كما قلت لسلمى :

ان الوثاق الذى يشدنا .. وثاق خفى .. يربط الاعماق بالاعماق .

دون ان يبدو له اثر على السطح .

دون ان يبدو له اثر ظاهر حتى لنا نحن .

وهكذا رحت طوال الطريق اسألك واجيب عنك .

اتهمك .. وارد عنك التهمة .

وحدثتنى خالتى برهة ، واجبت عليها بما ينم على شرودى .. فاخلدت إلى الصمت حتى عبرنا بوابة الأسلاك الشائكة .. ووقفنا امام مبنى قيادة الجبهة .

وكنا فى الأيام الأولى من نوفمبر وريح الشتاء قد بدأ عصفها .. والشمس قد توارت وراء السحب .

ولم احس من حولى بذلك الإشراق الذى احسست به اول مرة ، ووجدتنى فى حاجة إلى بعض الجهد لاحتفظ بإحساس التفاؤل .. امام قتامة الجو وعصف الريح :

ومدت خالتى يدها بالشال قائلة :

ــ لفى راسك يا سهير فالريح شديدة باردة .

ولففت الشال حول عنقى وحثثت الخطا وراء الجمع المسرع من العربات إلى داخل المبنى .

وتركتنا « خالتى » فى قاعة الانتظار ثم دخلت مع إحدى زميلاتها فى حجرة مواجهة ، وبعد برهة خرجت إلينا ومعها ذلك الضابط الرقيق الذى لقينا اول مرة فى زيارة الشعراء ، يتبعه ضابط شاب .

وحيانا .. متسائلا فى رقة :

ــ تشربون القهوة .. ثم نذهب للمرور بالقرى .

واجابت خالتى :

ــ لا داعى للقهوة الآن .. نفضل الذهاب راسا .

واكد قولها بقية عضوات الجمعية واعضاؤها .. فرد الضابط قائلا :

ــ حسن .. نذهب الآن .. ثم نعود لتناول الغداء سويا .

واعتذرت خالتى باسمة :

ــ إنهم فى عجلة .. وهم يريدون العودة فى اقــرب وقت قبل انتهاء مواعيد العمل فى مكاتبهم .

وعقب البعض بأنهم قد اجلوا مواعيدهم حتى العودة .

وقال الضابط محتجا :

ــ هذا غير معقول .. المفروض ان تتناولوا الغداء معنا .. أم ترى طعامنا العسكرى لا يعجبكم ؟

ورددت انا ضاحكة :

ــ على العكس .. لقد تناولنا مع الشعراء طعاما ممتازا .

وابتسم الضابط قائلا :

ــ هذه شهادة نعتز بها ، ونصر من اجلها على دعوتكم للغداء ..

وتكرر الاعتذار .

وخرجنا إلى العربات يتبعنا الضابط الكبير والضابط الشاب ..

وكنت خلال وقفتى فى المبنى اتلفت حولى فى قلق .. وانا اتوقع مفاجاة ظهورك بين لحظة واخرى .

واحسست بالضيق وانا اجد الزيارة توشك ان تختطف اختطافا ، وتمنيت لو قبلنا دعوة الغداء .. حتى تتاح لنا فرصة اطول للبقاء .. ولكن الجميع بدوا فى عجلة من امرهم .

وتلكات قبل ان ادخل إلى العربة ، احاول أن اجدك هنا أو هناك .. وتمنيت لو استطعت الاقتراب من احد الضابطين لاساله عنك ، ولكنى وجدتهما يقفزان إلى عربتهما العسكرية واشار اكبرهما قائلا :

— سنذهب اولا إلى قرية ناصر الجديدة .
وقالت « خالتى » تستحثنى على ركوب العربة وهى تجدنى اقف متلفتة حولى :
— اركبى يا سهير .
وعندما جلست بجوارها استرسلت تقول ضاحكة :
— أم تريدين ان تصابى بالبرد ، وتشمتين فينا امك ؟
— ليس الجو شديد البرد .
— ولكن الريح عاصفة .
وانطلقت العربات فى طريق غير ممهد .. وانا احدق من خلال النافذة علنى اراك فى احد المواقع التى نمر بها او فى إحدى العربات التى تنطلق بجوارنا .
ولم يطل بنا السير حتى وقفنا امام القرية الجديدة . وهمت خالتى بالهبوط من العربة قائلة :
— الريح شديدة يا سهير .. ولا داعى لنزولك .
وكانت الريح فعلا قد ازداد عصفها .. حتى بدت كانها تصارع ما يقف فى طريقها وتصر على اقتلاعه .
ولكن الدافع لنزولى .. كان اقوى فى نفسى من عصف الريح .
لم اكن من الحماقة بحيث آتى إلى ذلك المكان ارابط فى العربة .. لافقد فرصة لقائك .
الم يكن هناك احتمال .. لوجودك فى القرية الجديدة ؟
احتمال ولو واحد فى المائة ..
وهبطت من العربة وانا احكم الشال حول عنقى . ولم تكن الارض قد مهدت بعد بين الابنية الواطئة المتناثرة حولنا ، وكان علينا ان ننتقل بين الحصى والحجارة واكوام البقايا المتخلفة من عمليات البناء .
ولم اجد السير سهلا .. وافتقدت يدك التى كنت استند إليها خلال زيارتى الأولى ، وحاولت خالتى ان تسندنى احيانا ولكنها لم تلبث ان

شغلت عنى بتتبع احد الضابطين والاستماع إلى حديثه ومناقشة العمل الذى جاءت من اجله .
ووصلنا إلى احد الابنية الخالية المشيدة بقوالب الاسمنت الكبيرة ، وكانت على بساطتها تحوى كل ما يحتاجه ساكنها إلى جانب الاستحكامات التى يمكن ان يزود بها اى موقع دفاعى ليتحول المسكن إلى حصن صغير للمقاومة .
ووقفنا نستمع إلى شرح الضابط ، والريح تعصف من فتحة فى الجدار لم تركب نافذتها بعد .. حتى ختم حديثه قائلا :
— سيتم تشطيب عمليات البناء خلال الاسبوع القادم ، وسينتقل إليها اهالى قرية التوافيق .
وبدانا نغادر الحصن الصغير الذى يكمن داخل كل بيت من بيوت القرية الصغيرة الجديدة ، ووقفنا فى العراء نواجه معركة الريح مع اجسادنا .. واسترسل القائد يشير تجاه الحدود وراء القرية :
— نحن نقف على مقربة من ملتقى الحدود السورية الاردنية الإسرائيلية ، وقرية التوافيق كغيرها من قرى الحدود السورية الصغيرة على الحدود الإسرائيلية تشرف على الأرض المنزوعة السلاح ، وهى تتعرض من اجل هذا لاعمال استفزازية مما دعانا إلى تسليح اهلها وتكوين مقاومة شعبية تكون على اهبة دائمة للذود عنها .. وهذه القرى الدفاعية الجديدة ستمنح لهم الفرصة لدق العدو إذا ساورته نفسه للقيام باعماله الاستفزازية التى تعود عليها .
واتجهنا إلى العربات .. وبدانا الاستعداد لركوبها واردف القائد يقول قبل ان نهم بالركوب :
— هذه القرية نموذج لبقية القرى .. وهى اكثرها استكمالا .. إذا كنتم تريدون المرور ببقية القرى ...
وارتفعت معظم الاصوات مبدية اكتفاءهم بما راوا مؤكدين رغبتهم فى العودة .
وتملكنى إحساس بخيبة الامل .. وتمنيت رغم الريح العاصفة والجو

القائم ان نمر بكل القرى وبكل المواقع ، وبكل مكان يحتمل ان تسنح فيه فرصة لقائك .

ولم اكن املك السيطرة على موعد الزيارة .

كان كل ما املكه هو ان احكم الشال حول عنقى واتجه فى هدوء إلى العربة .

ولكنى قبل أن افعل اغتنمت فرصة مرور الضابط الشاب بى فاقتربت منه اسأله فى غير اكتراث :

— اتعرف النقيب حمدى عبد الفتاح ؟

وابتسم الضابط قائلا :

— طبعا .. إنه قائد بطاريتى .

— واين هو ؟

— فى مؤتمر مع قائد الجبهة .

وازدردت ريقى وانا احس بمرارة الخذلان وقلت له وانا اجده ينتظر تعليقا على رده :

— بلغه تحيتى .. قل له سهير .

ورسمت ابتسامة على شفتى ثم اتجهت إلى العربة بعد ان سمعت صوت خالتى ينادينى .

وعدت إلى دمشق .

عودة خائبة .. يائسة .

قد لا تكون انت مسئولا عما اصابنى بها من مرارة الخيبة والم اليأس .

فما اظنك قد طاف بذهنك قط احتمال مجيئى مع اعضاء الجمعية لزيارة القرى الجديدة .. حتى تذهب للقائى .

ولكنى رحت احملك لومى .. خلال العودة ، واجزم فى عناد بانك مذنب فى كل ما وجهته إليك من تهم .

من جديد عدت اتهمك وادينك .

غير معقول الا تعرف أن اعضاء الجمعية ياتون إلى الجبهة .

وكأنى — بغباوة — قد افترضت ان واجبك فى الجبهة ليس الدفاع عن الوطن .. وإنما استقبال الزوار .

ورحت ابنى على افتراض علمك بالزيارة .. افتراض علمك باسماء الزوار .

ولو كان بك لهفة على لقائى ، لرحت تسأل عن كل قادم من دمشق .

فإذا عرفت أن خالتى حفيظة ستاتى ضمن القادمين .. فلماذا لا يخطر ببالك انها قد تصطحبنى ؟

ولماذا لا تدبر امر لقاء الزوار لعلك واجدى معهم .

لو كنت تشعر كما اشعر .. لفعلت هذا .

ولكنك لم تفعل .. فانت إذا لا تشعر بما اشعر وكل ما اوهمت نفسى به من أمانى .. كان وهما فى وهم .

وكل ما لاح فى طريقى .. لم يكن سوى بريق سراب .

والضوء الذى لاح فى آخره .. كان فجرا كاذبا .

وإلى هذه النتيجة المرة سقت نفسى .. ورحت اجرعها كأس المرارة حتى ثمالته .

ما اقدرنا على ان نمعن فى الأوهام ؟ !

ليس فى اوهامنا .. قيود .. من عقل ولا منطق .. تحد من حركتنا فيها .

نسرى فيها بأجنحة الطير .. نحلق ونحلق .. حتى نصل إلى الذرا دون ان توقفنا حوائل ، ولا تعترضنا سدود .

ثم نهبط فجاة .. إلى اقصى قرار .

المنطق الأحمق الذى رفعنا إلى ذروة الأمانى بمنتهى السهولة .. لينحدر بنا على السفح بنفس السهولة او بسهولة أكثر .

حتى نجد أنفسنا فى قاع اليأس .

ووصلت إلى البيت ، وانا أجر نفسى من القاع الذى استقررت فيها طوال الطريق .. بعد ان اقنعتها بأن حماقتى هى التى دفعتنى إلى أن اشيد قصور آمالى .. على هواء مجاملاتك .

اجل .. لم اعتبرك اكثر من مجامل .

واحسست بنفسى بلهاء كبيرة .

ولم يفلح ما رايت من بشاشة ابى وحسن استقباله لى .. فى إزالة احزانى .. لقد اقبل علىّ يضمنى فى شوق .. وقد استخفه طرب لم ادر مبعثه .

ويبدو ان قسمات وجهى قد نمت على ضيق .. فقــد سألنى فى دهشة :

ــ ماذا بك ؟

وهززت راسى وانا احاول السيطرة على نفسى .. ورسمت ابتسامة واسعة على شفتى وقلت متضاحكة :

ــ لا شىء .

ــ تبدين وكأنك اشتبكت مع إسرائيل ؟

ــ الرحلة متعبة ، ولم نسترح هناك .

ــ وماذا رايت ؟

ــ عمل ممتاز .

ــ كيف ؟

ورددت عليه بلا تفكير :

ــ رايت بيوت الفلاحين على الحدود .. قد اصبحت معاقل ، وفى الوقت نفسه تحوى سكنا صالحا من كل ناحية .

ــ شىء عظيم .. عظيم .

ولم يبد على ابى انه كان يفكر كثيرا فيما قلت ، ولم اشك أن إعجابه كان لشىء ابعد من قرى الحدود .

واقبلت امى من المطبخ ونظرت إلىّ فى لهفة مشوبة باللوم وكان اول ما نطقت به سؤالها إياى :

ــ بردت ؟

ــ لا .

ــ كل هذه الرياح .. والبرد ، وتذهبين فى الخلاء .. أكانت هناك ضرورة لهذا المشوار المزعج ؟

وقلت لنفسى بمرارة :

« ابدا .. لم تكن هناك اية ضرورة » .

وقلت لها فى عناد :

ــ طبعا .

ــ ربنا يستر .

والتفتت إلى ابى وأردفت تتساءل :

ــ تريدون الطعام ؟

ــ طبعا .

وامسك بذراعها وربت كتفها برفق .. وهو يسترسل قائلا :

ــ فكى عقدة وجهك .. كل شىء على ما يرام .

ثم صمت قليلا وقال فى اغتباط واضح :

ــ اخذت العدالة مجراها .

وهزت امى راسها وسألته :

ــ كيف ؟

ــ البركة فى لجنة التحكيم التى وضعت لكى تضمن عدالة تطبيق قانون الإصلاح .

واطلق تنهيدة راحة ثم اردف يقول :

ــ لم يضايقنى ان تؤخذ منى الأرض بقدر ما ضايقنى ان يخرق القانون من اجل ان يشفى بعضهم حقده ، بالتنكيل بالناس .. لقد قلب معنى القانون .. وجعل للثأر الخاص .. بدلا من العدالة العامة .. إن هذا يوغر صدور الناس على القانون وعلى مطبقيه .

ولم يكن « ابى » وحده الذى احس بالارتياح لأن المسئولين عن وضع القانون مصرون على حمايته من العابثين به أيا كانوا .

لم يكن وحده الذى احس بالارتياح .

فقد سرت فى البلد كله موجة طمأنينة واغتباط بعد ان منح المشير

سلطات رئيس الجمهورية فى سوريا .. ولم يعد يحس الناس ان الحكم يمارس من أجل فئة دون فئة .. وان هناك من يستطيع ان يحسم فى مشكلاتهم فى التو ويؤكد العدالة والمســاواة وتكافؤ الفرص بين الجميع .

وإلى جانب هذا الإحساس العام بالارتياح .. كان هناك إحساس خالص بالضيق .

والحكام البعثيون الذين حاولوا أن يتخذوا من أداة الحكم وسيلة للسيطرة وفرض النفوذ على جهاز الحكم والتنكيل بالخصوم قد احسوا بأن قيدا قد وضع على حرية السيطرة ، واستغلال النفوذ .

ووجدها الشيوعيون فرصة لإثارة الخواطر ، وإشاعة البلبلة .

ولم اكن احس بشىء من هذا حتى ذلك الحين .

كنت انت وحدك شاغلى الشاغل .. بكل ما منحتنيه من آمال ، وسببته من آلام .

حتى فرحة « ابى » يومذاك لم تفلح ــ كما قلت لك ــ فى انتشالى من هوة احزانى عقب عودتى من الجبهة مخذولة النفس خائبة الرجاء .

وذهبت فى اليوم التالى إلى الكلية .. بعد ليلة مسهدة حاولت خلالها ان احدد لنفسى موقفى منك .. وان ابرر ذلك التناقض بين إقبالك علىّ وغيابك عنى . التمس لك المعاذير تارة ، والقى عليك باللوم تارة اخرى .

وقبيل الظهر ذهبت إلى المدرج الرئيسى لاستماع محاضرة عامة لأحد الأساتذة عن « الاشتراكية العربية » .

وفى الطريق إلى المدرج سرت و « سلمى » وحولنا الطلبة زرافات وقد علت ضوضاؤهم واشتد صخبهم .. واحسست ان « سلمى » تسترق النظر إلىّ بطرف عينها ، ونحن سائرون ، وكأنها تود ان تقول شيئا .

وكنت احس ان المشاعر المصطخبة فى باطنى تحتاج إلى شىء من التنفيس ، ولم يكن هناك صمام أمن لكربى خيرا من « سلمى » ..

ولكنى لم اجد الوقت ملائما للحديث ، ولم يكن هناك من شك فى انها كانت بحساسيتها المفرطة تدرك كل ذلك ، ولكن يبدو ان قلقها علىّ غلب قدرتها على الصبر .. وعندما يئست من ان اقول لها شيئا سألتنى وهى تضع ذراعها فى ذراعى :

ــ شىء جديد ؟

وباقل وسائل الرد واشدها اختصارا .. بهزة من راسى .. اجبتها :

ــ لا ..

وعادت تسأل :

ــ علام التجهم إذا ؟

وبنفس الاختصار اجبت :

ــ ابدا .

ــ القيته امس ؟

ــ لا .

ــ وكنت تأملين لقاءه ؟

ــ طبعا .

ــ ولماذا لم تلقيه ؟

ــ وكيف اعرف ؟ .. ببساطة لم أجده .

ــ الم تسألى ؟

ــ سألت .

ــ وماذا قيل لك ؟

ــ فى مؤتمر .

ــ لابد وانه لم يعلم بقدومكِ .

ــ ربما .

ــ ماذا يحزنك إذا ؟

ــ كل شىء .

ــ عدت إلى التشاؤم ثانية ؟

ــ لم يكن هناك من سبب للتفاؤل .

— لماذا تسيئين الظن به ؟
— الأصح هو « لماذا أحسنت الظن به » ؟
— أنت ظالمة .
— أنا ؟
— أجل .
— بعد كل ما حدث .. أكون أنا الظالمة ؟
— ماذا حدث ؟

وأحسست برغبة جارفة فى ان أعود لأردد لها كل ما قلت لنفسى فى ليلتى المسهدة .

أحسست برغبة فى ان أحول قضيتك إليها .. او استأنفها عندها .. علها تنصفك .. فتريح قلبى .

لقد حكمت عليك بالإدانة ، وخرجت من المحاكمة .. وكأنى أنا المساقة إلى العقاب .

كنت ألهف على من يبرئك .

كدت أجر سلمى من ذراعها وأذهب بها بعيدا عن المدرج لأحدثها عن كل شىء ، ولكنى أبصرت « حسان » مقبلا مع « نادية » ولم يكد يرانى حتى هتف بى :

— سهير .. صباح الخير .

ورددت تحيته محاولة الابتسام .

— أهلا .
— أذهبت إلى الجبهة أمس ؟
— أجل .

وهتفت نادية متسائلة :

— ولقيت حمدى ؟
— لا .
— عجيبة !! تذهبين إلى الجبهة ، ولا تلقينه ؟
— لم أجده هناك .

— ولماذا لم تسألى عنه ، وتطلبيه او تذهبى إليه ؟
— قيل لى إنه فى مؤتمر .
— لقد أصبح غير معقول .. منذ أن سهرنا عندكم .. لم يحضر سوى مرة واحدة لبضع ساعات .

ورفعت حاجبى فى دهشة ، وكأنى أعرف لأول مرة .. وقلت أعلق على قولها بغير اكتراث :

— عجيبة !

وقال حسان :

— معذور .

وسألته نادية فى غيظ وكأنها تعبر عنى :

— معذور ألا يرى أمه طوال تلك المدة سوى مرة واحدة ؟
— إنهم على أهبة الاستعداد دائما .. إن الإجازات موقوتة .. لأن اليهود يتحفزون لشىء .. إنهم يجسون نبضنا بين آونة وأخرى ، ولا يعلم إلا الله ماذا يريدون .. أهو مجرد استفزاز .. أم وراءه شىء أعمق .. على أية حال المفروض أن تكون قواتنا دائما على استعداد حتى لا تؤخذ على غرة .

وأراحنى حسان من حيث لا يدرى .

لقد قدم عنك اعتذارا .. بت فى أشد الحاجة إليه .. لتبرئتك .

وكنا قد دخلنا المدرج ، واتخذنا أماكننا بين الحشد الذى امتلأت به مقاعد المدرج ، ولمحت شكيب يقبل علينا باسما .

وحيانا واتجه إلى مقعده بجوارنا .

وبعد دقائق بدأ المحاضر حديثه .

ولم أسمع بالطبع شيئا .. فقد كان من العسير علىّ ان أسيطر على ذهنى الذى أبى إلا أن يستدعيك مرة أخرى ليعيد محاكمتك على جريمة الغياب الكبرى التى ارتكبتها .

وفى ضوء البيانات الجديدة عدت استجوبك .

ولم يكن ما قاله حسان بالشىء الجديد ، فقد كان هذا هو عذرك

الطبيعى فى الغياب عنى ، ولقد سقته لنفسى من قبل ، ولكنى فى نوبة اليأس والغضب أبيت قبوله ، وكأنى كنت أنعم بأحزانى .

واحسست بعد أن فاض بى الحزن ، أنى عدت أتلهف إلى الاعتذار منك ، فتلقفت كلمات « حسان » وعدت أقلبها فى ذهنى .

وانتهت آخر كلمة من كلمات المحاضر .. مع حكمى عليك بالبراءة .. وانك — برغم انه كان يتحتم عليك أن تفعل كل شىء من أجل لقائنا — إلا انك غير مذنب ، وانك — وهذا أجمل ما فى الأمر — صادق فى مشاعرك نحوى .

وغادرنا المدرج ، ومعنا « شكيب » .

ودارت مناقشة بين « حسان » و « شكيب » عما جاء بأقوال المحاضر ، ولم أجد هناك ضرورة لتتبع المناقشة بعد أن أخفقت فى تتبع المحاضرة التى بنيت عليها المناقشة .

ولكن شيئا فى أقوال « شكيب » أثار اهتمامى .

فقد وجدته يقول فى عناد :

— الحرية أولا .

وأجابه حسان :

— اشتراكيتنا ليست ضد الحرية .

— كيف ؟ أنا لا أستطيع أن أقول ما أريد .

— من يمنعك ؟

— لا أجرؤ أن أكتب ما يردده بعض الناس على المقاهى .

— ماذا يرددون ؟

— لقد فرضت الوحدة علينا استعمارا .

— استعمارا ؟ ماذا تعنى ؟

— يحكمنا حاكم عسكرى .. كأنه نائب الملك .

واحسست أن الدم قد تصاعد إلى وجه « حسان » وهو يتساءل وأصداغه تتلاعب :

— وماذا أيضا ؟

— والعمال المصريون يفدون إلينا بأجور منخفضة ليحلوا محل العمال السوريين وينشروا البطالة بينهم .

ومد « حسان » يده فقبض على كتف « شكيب » بعنف قائلا :

— أنت كاذب ومضلل .. أنت تعرف أنه لم يأت إلينا عمال من مصر .. وأؤكد لك أن مصانعنا ما زالت تعمل بعمالها السوريين كما هى ، وعندما أقول ذلك أقول عن يقين ، لأن لدينا مصانع ، ولأنى أعرف من الذى يعمل فيها .. وأنت تعرف الضيق الذى كانت تعانيه البلد من جهاز الحكم وتراخيه .. ووزراء البعثيين واستغلالهم للنفوذ من أجل ميولهم واتباعهم .. وحاجتنا إلى سلطة باتة حاسمة عادلة ، وتعرف مدى ارتياح الناس لمجىء المشير ، ومع ذلك تطلق هذه الشائعات السامة الخبيثة المضللة .

ودفعه « حسان » بعيدا وهو يقول فى غيظ مشوب بالإزدراء :

— اتق الله يا أخى فى وطنك . اختلف معنا فى المبدأ ، ولكن كن أمينا .. وكفى كذبا وتضليلا ، ونفثا للسموم .

وتركنا « شكيب » دون تحية .

وانصرف كل منا و « حسان » يهز رأسه فى حيرة :

— وبعد .. ما آخر كل هذا ؟

حماقة مُستحبــة

عادت الإشراقة إلى طريقى من جديد .

وانقشعت سحب الهم والقلق التى خيمت على نفسى خلال بضعة الأسابيع السابقة التى لم استطع لقاءك فيها .

ولست اظننى استطيع ان احدد لنفسى ، لماذا عادت الإشراقة .. وانقشعت السحب ، وبدت لى امنياتى اكثر وضوحا واقل سرابية .. فما اظن شيئا جديدا قد حدث يدعو إلى ذلك التغيير فى نفسى .. فقد بقيت انت على غيبتك فى الجبهة دون ان تسنح لى فرصة لقائك او حتى الاتصال بك .

ولكن ثمة اشياء قد لا تكون لها صلة مباشرة بك .. قد تلاقت وتشابكت لتحكم من جديد الوثاق الذى شدنى بك والذى ارخته نوبة اليأس اننى مررت بها ايام بعدك .

كان اول هذه الاشياء هو الاتفاق على عقد قران « حسان ونادية » . وبدء الاستعداد للاحتفال به وتحديد يوم معين له .. مما جعل مجيئك امرا محتوما ، وليس امنية تتلاعب بها الظروف ، فلم يكن من المعقول إلا يسمحوا لك بمغادرة الجبهة لعقد قران اختك .

وسارت عملية إعداد عرس « حسان » على قدم وساق ، وكان علينا ان نشارك فيها جميعا .. فقد كانت « خالتى » بكثرة مشاغلها فى جمعياتها ، وبانتقارها للحماسة لهذه الزيجة التى خيبت املها فى امنيتها

المزمنة تحتاج إلى مساعدة « امى » فى عملية الإعداد ، وكانت « امى » تقبل على المساعدة فى غبطة لحبها لحسان ولإحساسها به كابن لها .

وخرجنا يوم الخميس إلى سوق الحميدية « انا وامى وسلمى » بعد ان تناولنا الغداء فى بيتنا .

ووقفت العربة فى احد الشوارع الجانبية وهبطنا نجول فى السوق ، وكان الغيام قد تكاثف حتى عم الجو ولفحة برد تهب بأن آونة واخرى فتتسلل إلى البدن حتى تكاد تلسع العظم .

واحسسنا بعض الدفء بين جموع الناس فى السوق المزدحمة ، وكانت المصابيح قد اضاءت ارجاءه رغم اننا لم نتجاوز العصر ، وطفنا ببعض الحوانيت ثم استقر بنا المقام فى احد حوانيت الاقمشة .. ورحب بنا صاحبه وبدات « امى » تشاهد اقمشة الفساتين والبياضات .. وبدا الملل ينتابنى ولم اعد احس فى نفسى القدرة على مواصلة عمليات الشراء مع « امى » فنظرت إليها قائلة :

— استمكثين طويلا ؟

ورفعت « امى » إلى عينيها فى دهشة متسائلة :

— إننا لم نشتر شيئا بعد .. والوقت ما زال مبكرا .

— إذا سآخذ العربة لتوصلنى إلى السينما مع سلمى ثم ارسلها لك .

وهزت « امى » راسها فى دهشة وتساءلت :

— الم نتفق اننا سنبقى فى السوق معا حتى نذهب إلى بيت نادية ؟

— اجل .

— ماذا حدث إذن ؟

— تضايقت .

— بنت ملولة .. لا تستقرين على حال .

وبدت الحيرة على وجه « امى » .. وتساءلت فى ضيق :

— وكيف ستلتقيننى بعد السينما ؟

وفكرت برهة ثم قلت :

— تمرين علينا فى بيت سلمى .
وعادت « أمى » تقول فى ضيق :
— وكيف ستذهبان إلى بيت سلمى ؟ .. سأترك لكما العربة ..
— لماذا يا ماما ؟ إن السينما على بعد خطوات من بيت « سلمى » .
— والزحام والبرد ؟
— إننى ارغب فى السير .
ولم تستطع أن تقول شيئا يمس قـدرتى على السـير او يذكرنى بساقى ، وكان عليها أن تستسلم لما أردت .
وحاولت « سلمى » أن تعاون « أمى » قائلة :
— دعينا نسير فى السوق قليلا .
— لقد تضايقت من زحام السوق .. هيا بنا .
ونهضت و « سلمى » واسترسلت أقول وأنا أخطو خارج الحانوت :
— سأرسل لك العربة بعد أن توصلنا إلى السينما .
واتجهنا بالعربة إلى سينما العباسية .. وكنت قد لمحت على لافتتها احد الأفلام التاريخية التى قرأت عنها من قبل ، ولكننا لم نكد نصل إليها ونتوقف ببابها حتى قرأت على اللافتة الكبيرة المعلق عليها اسم فيلم آخر سبق أن رأيته .
ونظرت إلى « سلمى » متسائلة :
— أتذهبين إلى سينما أخرى ؟
وبدا التردد على وجه « سلمى » وهى تقول :
— لماذا لا نعود إلى بيتنا .. تسترخين فى الشرفة .. أو تجلسين أمام المدفأة .
وفكرت برهة ثم أجبتها :
— معك حق .. هيا بنا .
والتفت إلى السائق قائلة :
— إلى بيت سلمى يا أسطى على .. وعد بعد ذاك إلى ماما .

ووصلنا إلى البيت ودقت « سلمى » الجرس ، وهتفت فرحة وهى ترى أخاها « رياض » يفتح الباب :
— رياض .. متى وصلت ؟
— منذ نصف ساعة .
وبدت على وجهه الفرحة وهو يبصرنى أقف بالباب وراء « سلمى » ، وهتف مرحبا :
— سهير .. أهلا وسهلا .. تفضلى .
وأفسح لنا الطريق واسترسل يقول وهو يتبعنا إلى الداخل بعد أن أغلق الباب :
— لم أكن أدرى أنى محظوظ إلى هذا الحد .
وتساءلت « سلمى » ضاحكة :
— كسبت نمرة ؟ !
— بل رأيت سهير .
— هكذا ؟ !
ورددت أنا ضاحكة :
— متشكرة .. لم أكن أظن نفسى بمثل هذا القدر .
واجتزنا البهو متجهين إلى حجرة الجلوس وقالت سلمى :
— لا أظننا نحتمل الجلوس فى الشرفة .. فسواد السحب لا ينبىء عن شعاع شمس يمكن أن يصل إلينا فى يومنا القاتم ..
ثم وجهت السؤال إلىّ قائلة :
— ما رأيك فى أن نجلس هنا ؟
وأردف « رياض » قائلا :
— وسأوقد لكما المدفأة .. سأحضر الحطب حالا .
وردت « سلمى » قائلة :
— لا داعى للحطب .. سنوقد مدفأة الجاز أفضلْ .. أنت تعرف أمكَ وضيقها بوساخة الحطب .
— إنها ليست هنا .

— وعندما تحضر !

واسترخيت على مقعد وثير فى ركن الحجرة حتى يستقر الاخوان على امر .. واستطاع « رياض » ان يقنع « سلمى » بايقاد مدخنة الحطب ، واحسست بامتنان لرياض ، فقد كنت اتوق فى هذا الجو المعتم إلى منظر الجمرات تشتعل فى جوف المدفأة .

وغاب الاثنان برهة ثم عاد كل منهما يحمل كوما من الحطب القاه بجوار المدفأة .

وانحنى « رياض » ينفخ النيران كى تسرى فى الحطب ، وبدا وجهه مقطبا وهو منهمك فى عمله .

ووجدتنى — على غير وعى منى ولا إرادة — اضع وجهك مكان وجهه وابتسم لك . واسائلك فى عتاب رقيق « لماذا لم تأت » ؟

كل الضباط يتركون الجبهة إلا انت ؟

حتى لكانك وحدك الذى بقى فى وجه إسرائيل .

على اية حال .. كلها اسبوع وتاتى فى فرح « نادية » وساحدثك كثيرا .. كثيرا .

سنرسم لكل ما بيننا .. علامات واضحة محددة .

واضحة على الاقل لانفسنا .

سيحدد كل منا للآخر موقعه من نفسه .

لن اتردد بعد ذلك .. لن اتساءل :

« موقعى عندك لا اعلمه » .

آه لو تعلم عندى موقعك .

ساؤكد لك ان موقعك عندى .. رفيع .. رفيع .

وساعرف ان موقعى عندك .. رفيع .. رفيع .

او ليس كذلك ؟ !

شىء فى اعماقى .. يؤكد لى انه كذلك .

واعماقى لا تخطىء قط .

وانتهى النافخ فى النار من عمله ، ورفع إلىّ راسه مغتبطا وهو يقول :

— اجل .. هكذا يكون الدفء .. وإلا فلا .

ثم اقبل علينا وهو ينظر إلىّ نظرة لم يستطع ان يخفى ما بها من إعجاب .

نظرة تشبه إلى حد ما .. تلك النظرة التى ترسلها انت إلى عينى فتملؤنى إحساسا بانها صادرة من اعماقك .. نافذة إلى اعماقى ..

كانت صادرة من اعماقه .. ولكنها لم تصل إلى اعماقى .

لم تجعلنى اضطرب كما جعلتنى نظرتك .

لم تحلق بى ، ولم تتركنى اسرى مع النسيم .

لم تفعل بى شيئا من هذا .

ايكفى هذا لطمأنتك ؟

ومع ذلك .. لا انكر انها كانت صادرة من اعماقه ، مما جعلنى احس لاول مرة ان شعورا جديدا قد نبت فى نفسه ، وانه لا يملك إخفاءه .

ولقد كنا نلتقى من قبل فى بيتهم .. وكان رفيقا كريما مهذبا .. يقبل علىّ فى مودة ، ويلقانى فى عطف .

ولكن ما به هذا اليوم شىء آخر .

ووضع يديه فى جيبيه وتساءل وهو يبتسم :

— ماذا تشربان ؟ ! لا يوجد احد من الخدم هنا ... ولكنى سأتولى خدمتكما !

وقلت ضاحكة :

— اتستطيع انّ تقدم لنا فنجانا من الشاى ؟

واجاب « رياض » فى حماسة :

— شاى فقط ؟ انا استطيع ان اقدم لكما عشاء .. لو اردتما .. طالما طبخت لنفسى فى الجبهة .

ورددت عليه ضاحكة :

— تعنى انك فتحت لنفسك علبة من الاطعمة المحفوظة ؟

— بل كنت اصنع الشوربة .. والمكرونة .
وقاطعته « سلمى » ساخرة :
— وتقلى البيض ؟
ورد « رياض » مؤكدا :
— واصنع كل شىء .. كل ما كانت امك توهم اباك انها اعمال خطيرة لا يستطيع احد ان يقوم بها سواها .. وانه لا يملك من اجلها الاستغناء عنها .. قد قمت بها لنفسى .
وقاطعته ضاحكة :
— لم تعد إذا فى حاجة إلى زوجة ..
وتساءل فى استنكار :
— لماذا ؟
— لانك فى غير حاجة لمن يقوم لك بالاعمال الخطيرة .
ورد على الفور ضاحكا :
— ولكنى فى حاجة إلى من اقوم لها انا بهذه الاعمال ، إذا لم اكن فى حاجة إلى من يخدمنى .. فانا فى حاجة إلى من أخدمه .
وقالت « سلمى » بلهجتها الساخرة :
— منتهى الشهامة .
ثم نظرت إلىّ واردفت قائلة :
— لا تصدقيه .. إنه أكسل مخلوقات الله .. اجلس وكفى ادعاء للشهامة .. سأصنع انا لكما الشاى .
واجاب « رياض » فى إصرار :
— بل سأصنعه انا .. اين الفناجين ؟
ونظرت إليه « سلمى » قائلة :
— فى الدولاب .
— واين الشاى ؟
— على الرف .
— اى رف ؟

— رف المطبخ .
— والسكر ؟
ونهضت « سلمى » هذه المرة قائلة فى حزم :
— صنع فنجان الشاى اسهل كثيرا من كل هذه الاستجوابات .. عن إذنكما .
وغادرت « سلمى » الحجرة لتصنع الشاى .
وجلس « رياض » على مقعد بجوارى .
ومضت برهة صمت لم اجد ما اقوله ، وكاد الذهن يجمح كعادته إليك .. كلما وجد فرصة شرود .. لولا انى سمعت « رياض » يقول فى تردد :
— كنت اتوق إلى مثل هذه الفرصة .. ولم اتوقع ان ينعم القدر علىّ بها بمثل هذه السهولة .
واشتممت فى قوله ريح خطر .. لم تكن كلماته ولا لهجته تنم على الاسلوب الطبيعى الذى يجرى به الحديث بيننا .
ولم املك إلا ان اتجاهل ما شممته من حديثه وحملت قوله محمل المجاملة ورددت عليه قائلة فى لهجة مزاح :
— ليتك تقت لشىء افضل .
ولم يستطع مزاحى ان يغير اسلوبه فى الحديث .
بل لقد ساقته من حيث لا اقصد إلى الامعان فيه .
قال فى لهجة خافتة وكأنه يحدث نفسه :
— افضل منك ؟ ! لا اظن .
لم اعرف بماذا اجيب .. خشيت ان استمر فى المزاح فاسوقه إلى حيث لا اقصد .. واحسست انها المرة الاولى ان أواجه موقفا كهذا .
ووفر هو علىّ مشقة التفكير فى الرد .. وسرعان ما اردف يقول بنفس لهجته الخافتة الرقيقة التى حملهــا كل ما يملك من مشـــاعر مخلصة :

— لست ادرى من اين ابدا حديثى .. بل لا ادرى إن كان مجرد البدء به يعتبر ذنبا .

وصمت برهة وكانه ينتظر ان اقول شيئا ، ولكن حيرتى ازدادت وتمنيت ان تحضر « سلمى » فتنقذنى من ذلك الحرج ومن الاستمرار فى الاستماع إلى ما لا اعرف كيف اجيب عليه .

ولكن « رياض » كان فيما يبدو قد اصر على ان ينتهز فرصة وجودنا على حدة ، وان يفضى إلىّ بكل ما فى نفسه ، فواصل حديثه قائلا :

— لقد حاولت الا اقدم على هذا الذنب .. حاولت ان تحمل سلمى عنى وزرى .. ولكنها تملصت منه .. واصرت على ان احمل عبئه وحدى .

واحسست ان على ان اقول شيئا .. اريحه به .. وارخى من حدة ذلك التوتر الذى شد اعصابه وهو يتحدث إلىّ .

قلت له بهدوء وبقدر ما استطعت من رقة :

— لقد كنا دائما اخوة .. لم يكن بيننا قط حجاب ولا كلفة .. قل كل ما تريد .

وعاد يطرق وهو فى حيرة ..

وخيل لى ان محاولتى لفك عقدة لسانه .. قد زادته تعقيدا .

وبعد برهة صمت رفع إلىّ راسه قائلا :

— لست ادرى كيف يتحدث الناس فى مثل هذه الامور .

— اية امور ؟

— الامور التى تتعلق بها مصائرهم .. التى تحدد لهم الطريق حتى آخر العمر .

واجبته ببساطة دون ان احاول تجاهل قصده :

— لم امر بالتجربة بعد ، ولكن يبدو لى انهم يتحدثون فيها بصراحة ووضوح .. يقولون ما يريدون .

— اخشى ان يكون القول الصريح الواضح .. عملا مجوجا ؟

— إذا كان لابد من قوله .. فقله وانته .

— عندما يحس الإنسان ان إنسانا آخر يمكن ان يصلح وحده لربط مصيره به .. ماذا يكون موقفه منه ؟

ودون ان ادرى اتجه تفكيرى إليك .

تركت الرجل الرقيق الحائر لا يعرف كيف يسوق إلىّ رغبته الحارة دون ان تبدو ثقيلة ولا مجوجة ، وهمت إليك .. بمجرد إشارة إلى الإنسان الذى يصلح وحده لربط مصيرنا به .

ولم يكن الوقت .. وقت شرود .. فقد كان هناك استفهام ينتظر الجواب .

ماذا يكون موقفنا منه ؟ !

وعاد « رياض » يسأل وقد احس بى الشرود :

— انتركه يمر بنا مر الكرام ؟

وبغير تفكير ، وبذهن عالق بك اجبت :

— طبعا لا .

— اليس من حقنا على انفسنا ، ان ننبئه بإحساسنا له ؟

— اعتقد هذا .

— دون ان نتهم بالحماقة او السماجة ؟

وعدت انصت إليه .. واحسست ان علىّ ان اوجه ردودى بشىء من الحذر .. باعتباره هو موضوع الحديث ، لا ذلك الذى يجمع الذهن وراءه ، والذى هو انت ..

اجبته بشىء من الحذر :

— لا اظننا نتهم بالحماقة والسماجة .. إلا إذا ارتكبناها فعلا .

— هل عرض احاسيسنا حماقة وسماجة ؟

— المبادأة بعرضها دون الوثوق من التجاوب معها حماقة .. والإلحاح فيها .. مع الوثوق بعدم التجاوب معها ، هو السماجة .

وابتسم « رياض » وعاد يتساءل :

— الا تغتفر الحماقة .. إذا ارتكبت مرة من اجل تقرير المصير ؟

ورددت ابتسامته بابتسامة ارق ، وقلت له فى لهجة ملؤها التسامح :

— قلت لك .. ليس بيننا حجاب ولا كلفة .. قل كل ما تريد .. فسيكون لك فى قلبى دائما منزلة الاخ .

واحسست انه قد تخلص من قيد الكلفة .. وانى استطعت ان ازيل عنه توتر الاعصاب الذى بدا به حديثه ، فقد قال ضاحكا :

— كنت اود ان اكون فى منزلة .. غير منزلة الاخ .

وصمت برهة ثم عاد يسترسل فى سهولة ويسر :

— لقد احسست انك وحدك اصلح الناس .. لكى يربط المرء مصيره بك .. اشياء كثيرة ملأتنى بذلك الإحساس .. ليست عاطفة هوجاء .. ولا انفعالا ثائرا .. بل إحساسا هادئا ناتجا عن تفكير متزن .. ونابعا من معرفة وثيقة وعشرة طويلة .. وتمنيت لو استطعت ان انقل إليك إحساسى ، ولكن نوع الصلة بيننا ، والتى قلت انت عليها إنها تنزل كل منا منزلة الاخ من اخيه .. تجعل الامر امامى شبه مستحيل .. او كما قلت لك فى اول حديثى .. ذنبا لا يغتفر .

واطرق « رياض » برهة ثم عاد يسترسل قائلا :

— ولكننى احسست ان المرء لا يملك سوى حياة واحدة ، وان الفرصة الصالحة لتقرير المصير فيها لا تتكرر كثيرا ، وان ذنب إغفالها اكبر ثقلا من ذنب الإقدام عليها والإخفاق فى نيلها .. وعزمت على الا اترك فرصتى فى الحياة تضيع .. وان افعل شيئا من اجل محاولة تحقيقها .. وقلت لسلمى باعتبارها اقرب الناس إليك وإلىّ .

وعاد إلى الصمت مرة اخرى . فقلت استحثه على إكمال حديثه :

— وماذا قالت لك ؟

— فوجئت .. ثم قالت إنها تحس انك لا تفكرين الآن فى مثل هذه الامور ، وكنت اشعر انها اقدر الناس على ان تنقل إليك مشاعرى .. فعدت الح عليها قائلا .. إنها إذا كانت لا تفكر فإن احدا لن يدفعها إلى

هذا التفكير ، ولكنها اصرت على انها لا تستطيع ان تتدخل فى مثل هذه الامور الشائكة .. فلما يئست منها .. عزمت على ان اقدم على الذنب .. واحمل وزر نفسى ..

واكملت ضاحكة :

— وترتكب الحماقة ؟ !

واجاب فى شىء من الخذلان :

— اهى حماقة ؟ !

واحسست بحرج شديد .. ولم اعرف بماذا اجيب .

وعاد يقول فى شبه اعتذار :

— إذا كنت قد ارتكبت حماقة .. فأؤكد لك انى لن احولها إلى سماجة .

واحسست بشىء يثقل كاهلى ، ويملؤنى بالضيق والندم والأسى .. وليس ابغض إلى نفسى من ان تخذل إنسانا دون ان تجد وسيلة لإنصافه .. إلا بالمداراة والكذب .

ولم اكن احس بقدرة على الإقدام عليهما .. او تحمل عواقبهما .. فلذت بالصمت .

ولكنى احسست ان الصمت .. غباء .. وسخافة ، وان علىّ ان اقول شيئا .. اى شىء .. يمكن ان يحمل إليه شيئا من الراحة .. ويرفع عنه الإحساس بالحرج والشعور بالذنب .

ولكن كان علىّ ان اقول شيئا .. حقيقيا .. غير مدعى .. شيئا احس به فعلا .

ولقد كنت احس بالضيق من اجل خذلانه .

وكنت اشعر ايضا انه منحنى بحديثه إحساسا آخر .. غير هذا الضيق والأسى .

إحساسا طيبا .. بى .. وبه .

فجميل ان يجد الإنسان إنسانا يحبه .

حتى هؤلاء الذين لا نملك ان نبادلهم حبا بحب .. يملؤنا إحساسنا بحبهم .. شعورا بالغبطة .. والثقة .. ولم يكن هناك إنسان فى حاجة إلى الثقة .. فى هذه الناحية .. اكثر منى .

كنت لا اعدم كلمات الإعجاب .. من الاقارب والأصدقاء .. ولكن الإحساس الجاد .. الذى يملأ الإنسان ثقة بنفسه .. لم يمنحه لى احد من قبل .. سواك وسواه .

ولقد كنت منك — رغم ارتباط احاسيسنا — فى شك من امرى .. لم اعرف اين يمكن ان يكون موقعى منك ، او من اى إنسان فى الحياة .

وكنت اسائل نفسى :

« ايمكن ان تخطو إلىّ خطوات جادة » ؟

وفى اوقات الضيق واليأس ، يصبح السؤال :

ايمكن ان يخطو إلىّ اى إنسان فى الحياة خطوات جادة ؟

إن « حسان » لم يفعلها .

ولم أشعر قط بشىء من الضيق .. لأنى لم اكن قط فى حاجة إلى خطوته تلك .

ولم اكن فى حاجة إلى حق فى الحياة .. كنت احس بعجزى عن الوصول إليه .

فلما لوحت لى به ، واضأت لى الطريق إليه .. وجدت نفسى فى حاجة إلى الإحساس بالثقة فى نفسى من اجل الوصول إليه .

ومنحتنى أنت بعض الثقة .

ثقة استمددتها من الروابط الخفية التى تشد احدنا إلى الآخر .

ولكنى كنت فى حاجة إلى مزيد من الثقة .

ثقة بذاتى .

ثقة بقدرتى على ان اكون وحدى .. امنية يقرر بها إنسان آخر مصيره .

ولقد منحنى ذلك المخلوق الذى خذلته .. هذه الثقة .

منحنى « رياض » ثقة فى نفسى .. لكى اسعى إليك .. لنشق طريقنا معا .

عجيب هذا الإنسان !!

كيف ملأنى عرضه الجاد لاحاسيسه ورغبته فى ان اشاركه المصير .. ثقة فى قدرتى على أن اشارك إنسانا ما مصيره ، والا يكون هذا الإنسان احدا سواك ؟

اجل !

فى نفس الوقت الذى احسست فيه بالثقة فى نفسى .. احسست بأنك وحدك الاهل لهذه الثقة .

انت وحدك الذى يمكن ان استغل من اجله هذه القدرة على مشاركة إنسان حياته ، والارتباط بمصيره .

وفى نفس اللحظة التى احسست فيها بالفرحة لأن إنسانا يسعى إلىّ .. لينشد صحبتى .. فى حياته .

احسست بأنى لا استطيع ان اقبل إلا صحبتك انت .. فى حياتى .

وفى الثوانى التى دار فيها كل هذا براسى .. كان الرجل الرقيق الذى خذلته ينتظر كلمة من شفتى .

وقلت له فى إخلاص وحرارة :

— إذا كنت قد ارتكبت حماقة ، فقد احببت حماقتك وإذا كان القدر قد ابى ان يمنحنى القدرة على التجاوب مع مشاعرك ، فقد منحنى القدرة على ان افهمك واقدر كل شىء فيك ، حتى مشاعرك التى لم استطع الاستجابة لها .. لقد اسعدتنى بكل ما قلت .

وساد الصمت برهة وسمعته يقول متسائلا :

— احقا لم اضايقك ؟

— ابدا .

— ولم ابد فى نظرك احمق ؟ !

— ومن منا ليس أحمق ؟

ونظرت إليه وأنا أرقب رأسه المنكس فى حزن .. وقلت له فى حزن :

— أكره أن أخذلك .

وهز رأسه بخفة وقال فى صوت خافت :

— لا تستطيعى أن تخذلينى .. ستبقين دائما فى نفسى كما أنت .. نموذجا لأجمل ما يمكن أن نصادفه فى حياتنا .

وصمت برهة ثم أردف :

— عندما لا نستطيع أن نحصل على الأشياء الطيبة — فنحن لا نخذل فيها — وإنما نخذل من قدرتنا على الحصول عليها .

— حتى هذه لا أود أن نخذل فيها .. إنى أتمنى أن يوفقك الله .. لن تستحق كل ما بك من عناصر طيبة .

وأقبلت « سلمى » أخيرا تحمل صينية الشاى .

ولم أكتشف طول غيبتها حتى أنت ، وخيل إلىّ أنها إذا كانت قد رفضت أن تعاون أخاها فى نقل مشاعره إلىّ ، فقد عاونته فى منحه الفرصة لإبداء هذه المشاعر .

ووضعت الصينية على المائدة ونظرت إلى أخيها ، وقد أطرق .. ثم نظرت إلىّ وقد استغرقت فى شرودى .. وتساءلت ضاحكة :

— خير .. مالكما .. كأنكما فى معزى ؟

وقال « رياض » متضاحكا :

— بالنسبة إلىّ .. لقد شيعت أملا .

ورددت فى لهجة ملأتها قدر ما استطعت من تفاؤل :

— لم تشيع أملا .. وإنما احتفظت به لصاحبته .

ورد رياض :

— سأحتفظ به طويلا .

وقالت « سلمى » محاولة أن تحول الحديث إلى مجرى ضاحك :

— ضعه فى الفريجدير .. حتى تجده صاحبته صالحا .

وقبل أن يجيب أحد منا دق جرس الباب .

ونهض « رياض » ليفتح .

وبعد برهة أقبلت « عزة » وراءه ، وقد بدا عليها التجهم ، وألقت بحقيبتها جانبا وهى تقول فى ضيق :

— جزاء سنمار .

ولم يفهم أحد ماذا تعنى .. وسألها « رياض » فى دهشة :

— لمن ؟ !

— لنا .

— أنتم من ؟

— الذين صنعنا الوحدة ؟

وضحك « رياض » قائلا :

— تانى !! وهذا الشعب كله .. لم يفعل شيئا .. التيار الجارف الذى جرف الحوائل والسدود ، وفرض الوحدة فرضا .. لا تعتبرونه شيئا ؟

— أنت لا تعرف شيئا .

— ليكن .. أنت تعرفين كل شىء .. وأنا لا أعرف شيئا .

وصمت « رياض » برهة ثم عاد يتساءل :

— كيف أخذتم جزاء « سنمار » ؟

وردت « عزة » :

— ترك وزراؤنا الحكم .

ورد « رياض » فى شماتة :

— طردتم .

— بل استقلنا .. نحن أصحاب كرامة .

وهز « رياض » رأسه وأجاب ساخرا :

— الحمد لله الذى أزال كابوس سيطرتكم من فوق كاهل البلد ..

اخيرا آن للناس ان يخلصوا من استئثاركم بالسلطان ، وفرض نفوذكم ، ونشر اتباعكم فى أجهزة الحكم على حساب الآخرين .. الشعب صانع للوحدة لابد ان يمنح تكافؤ الفرص فى كل مجال .

وقالت « عزة » فى ضيق :

ــ سنرى ماذا ستفعلون بدوننا .

وقبل ان يرد احد سمعنا صوت عربة تقف بالباب ، ثم دق جرس الباب وسمعت صوت السائق يقول :

ــ الست الكبيرة تريد الست سهير .

وهبطت إلى والدتى متجهين إلى بيتكم .

مَسة ضوء

وصلنا إلى بيتكم لنجد امك ونادية وحسان فى انتظارنا .

واقبلت علىّ امك تضمنى إليها فى شوق وترحيب قائلة بلهجتها الرقيقة الطيبة .

ــ اهلا وسهلا .. بست الناس .

ونظرت إلى « امى » واردفت تقول فى لهجة ملؤها الإعجاب :

ــ لم تعد لى امنية .. اكثر من ان يوفق الله « حمدى » إلى زوجة كسهير .

قالتها فى حرارة وإخلاص وبساطة

وتوالت التعليقات الضاحكة .

قالت « نادية » وهى تضمنى إليها :

ــ يكون قد راى ليلة القدر .

وقالت امى :

ــ حمدى يستحق كل خير .. إنى احس دائما بانه ابنى .. ولست اظننى اطمع لسهير فى زوج خيرا منه .

وقال حسان متهتها :

ــ انتهينا .. لنجعلها صفقة واحدة .. سناخذ « نادية » ونعطيكم « سهير » . هذه خير وسيلة لتحقيق الوحدة عمليا .

وكان علىّ ان اقول شيئا وسط هذه الزوبعة المفاجئة من التعليقات الضاحكة .

ولقد كنت دائما اكره المزاح فى هذا الموضوع .. وكنت اضيق بحديث « خالتى » عن مشروع زواجى .

ولكنى — لاول مرة — لم احس بضيق .

قد يكون اصابنى بعض الخجل والاضطراب .. وأنا افاجأ بأمك تطرق الموضوع بمثل هذه البساطة والسهولة .

ولكن الخجل والاضطراب لم يمنعا ذلك الإحساس الممتع الذى اخذ يتسرب إلى نفسى ، وانا اجد الثقة التى منحها لى « رياض » وهو يبسط لى مشاعره ، ليؤكد بها انى اهل الان يسعى إلىّ إنسان ليربط مصيره بى .. احد هذه الثقة تتاكد من اقرب الناس إليك ، واقدرهم — بعدك — على منحى الإحساس بها .

وحلق بى حديثهم البسيط المازح فى سماء الوهم ليضعنى بجوارك ، ويحقق لى اجمل امانىّ .

وملأنى إحساس الطفل .. تحدثه وتسرح به .. عما ستذهب به إليه وما ستحضره له ، وهو ينصت إليك فى متعة ويستزيدك فى لهفة .

وتمنيت ان يطول الحديث، وتمنيت ان أقول لهم ما يقوله الطفل وانت تسرح به « وإيه كمان » ؟

ولكن العقل .. كان يحتم على ان اقول .. ما يجب ان يقال ، لا ما اود ان اقول .

ونظرت إلى « امك » وربت ذراعها فى حنان ، قائلة فى شىء من الخجل :

— لا اظننى استحق كل هذا .

ثم وجهت الحديث إلى « حسان » مازحة :

— إننى على استعداد للمساهمة فى تحقيق الوحـدة .. على استعداد للمساهمة فى تحقيق اى مصلحة عامة .. ولكن ليس على حساب مصلحة حمدى الخاصة .

واردفت اقول مقهقهة :

— ما ذنب حمدى ، تبتليه بالزواج .

وردت « امك » الطيبة تقول فى لهجة جادة :

— الزواج نعمة ، وستر .

ورفعت يديها إلى السماء داعية :

— ربنا يوفقه إلى بنت الحلال .

ونظر إلىّ حسان ضاحكا وهو يقول :

— انتهينا .. مبروك يا سهير .. ليس بيننا بنت حلال خاليـة سواك .. الف مبروك .

وواصلنا الضحك والحديث .

وإحساس بالسعادة يغمرنى ، وكأن رنات الضحك نواقيس يتردد صداها فى طريقى الطويل الذى بدا لى بالأمس معتما ، ضائع المعالم ، غامض الملامح .. فأشرقت جوانبه ، وتفتحت براعمـه ، واخضرت اوراقه ، واعشوشبت ارضه ، وصدح الطير فى اغصانه .

ونحن نحار .. عندما نحاول أن نفسر السعادة .

وهو شىء يدعو إلى الحيرة حقا .

فالسعادة .. كما عرفتها فى حياتى القصيرة .. تحس .. ولا تفسر .. وهى مسة تضىء باطننا .. لتعكس ضوءه على كل ما حوله ، فتبديه باهرا ، مشرقا .

لا نعرف موضع المس فى باطننا ؟ ولا ماذا مسه .

شىء اشبه بمفتاح مصباح فى حجرة مظلمة .. مجهول الموضع ، تخطئه الايدى فى الظلمة ، إلا يدا واحدة ، تمسه فجاة ، فإذا كل شىء مشرق .

وتمسه مرة اخرى ، فإذا بكل شىء قد اعتم .

لا تعرف اين هو ، ولا من يمسه ، ولا متى .

وتبقى الحجرة .. نفسنا المسكينة .. تتلهف إلى مسة الإشراق ، وتخشى مسة الإظلام ، حتى يطبق عليها الظلام الابدى .

أو من يدرى .. ربما .. الإشراق الابدى .

لا تضق بسطورى عن هذه النفس .

فما حيرنى فى هذا الكون .. شىء سواها .

كلما ظننتنى عرفتها .. اكتشفت لها اعماقا ابعد واغوارا اسحق .

وتشعب بنا الحديث فى جلستنا .

انتهينا من مزحة « امك » التى اشعلت الضوء فى نفسى ، واخذت « امى » تتحدث عن الجهاز ، والزفة ، والفساتين ، وعن الإعداد للفرح ، فى الخميس القادم .

وتناول «حسان» خيط الحديث .. لينقله إلى استقالة الوزراء .

وهز « حسان » راسه اسفا ، وهو يختم حديثه الذى لم استطع تتبعه قائلا :

ـ كان لابد ان يحدث هذ ا، فالمسالة هى .. هل يذوب البعث فى الشعب ، أو يذوب الشعب فى البعث .. المفروض ان يذوب البعث فى وحدة الشعب .. لا أن يمتص وزراؤه النفوذ ، ويفرضوا الاتباع ليعزلوه عن الشعب .

ولم يبد أن احدا يتتبع كلامه سوى « نادية » .

فقد كانت امك اشد اهتماما بالأقمشة ، والجهاز .

وكنت انا ما زلت احلق على اجنحة الوهم الذى رفعتنى إليه دعوة « امك » بان يوفقك الله إلى زوجة مثلى .

وانا ــ اكاد ــ لولا الحياء .. ان ادعو الله أن يقبل دعواها .

ولم اسمع من حديث « حسان » .. سوى جملته الأخيرة ، ورحت انظر إليه ، كأنى اتتبع قوله .

وردت « نادية » قائلة فى ضيق واسى :

ـ على اية حال ، ومهما كان الدافع إلى الاستقالة .. فهو شىء يدعو إلى الاسف .

واجاب حسان :

ـ لقد تركت بين الناس إحساسا بالرضا .

ـ انت لا تستطيع ابدا أن تعرف احاسيس الناس .. كل الناس .

ـ ولكنى استطيع ان اعرف معظم الناس .

ـ حتى هذا لا تستطيع أن تعرفه بمجرد سماع وجهات النظر المحيطة بك .

ـ لقد كانت هناك حالة سخط من تصرفاتهم .

ـ جائز ، وجائز ايضا ان خروجهم ، ارضى الإحساس العام ، ولكن المؤكد ايضا ، انه اضاف عنصرا جديدا من عناصر السخط إلى جانب العناصر الموجودة .. لقد بات على الوحدة ، ان تواجه سخطهم إلى جانب سخط الشيوعيين وبقية الأحزاب المنحلة من الرجعيين وغيرهم .. يساند كل هؤلاء عملاء الاستعمار المحيطون بنا ، والذين اعتبروا الوحدة مأتما يستحقون عنه العزاء .

ورد « حسان » فى إيمان :

ـ هذه الأقلية الساخطة يقابلها رضاء الشعب كله .

واجابت نادية :

ـ معك حق ، ولكن السخط اشد دفعا للعمل من الرضاء .. يجب ان تنظم الاغلبية الراضية ليكون لهم القدرة على مقاومة شر الأقلية الساخطة .

وهز « حسان » رأسه وقال موافقا :

ـ اشياء كهذه يجب ان تعمل لصيانة هذه الوحدة .. ومنع سوس الساخطين من ان ينخر فيها .. إن اسوا ما فى الأمر ، ان الخير يحتاج إلى وقت ليصل إلى الناس .. أما الضر فاثره واقع على النفس فى التو .. لندع الله ان يمنح من مسهم الضر الصبر عليه ، ومن ينتظرون الخير الصبر حتى يصل الخير إليهم .

وانتهت الزيارة بذلك .

وعدت بعدها إلى البيت .

وانا اشعر انى مقبلة على شىء جميل .

المسة التى بعثت الضوء فى باطنى .. جعلت الحياة من حولى .. تغريدة متواصلة .

لقيت « أبى » فى البيت يقرأ امام المدفأة .

فاقبلت عليه اعانقه واجلس على ساقه ، واقبله ، واتمسح فيه كما تتمسح الهرة فى صاحبها .

واحس هو انى سعيدة فضمنى إليه وسألنى :

— كيف حالك ؟

واجبته ببساطة :

— كل شىء جميل .. فرح « حسان » يوم الخميس القادم .

ومن اجل هذا تشعرين بالسعادة ؟

— افراح الناس تسعدنى كثيرا .

— انت طيبة .. ولطيفة .

— كل اب يظن ابنته كذلك .

— هذا راى كل الناس فيك .. وإذا كنت تسعدين بأفراح الناس ، فسيسعد الناس بأفراحك كثيرا .

— أفراحى أنا ؟

— ولِمَ لا ؟

— أتتوق إلى مفارقتى ؟ !

— بل اتوق إلى صغارك .

ابتعدت عنه قليلا وقلت له ضاحكة :

— ما هذا ؟ تعاملنى كأنى بقرة .

— الا تريدين ابناء ؟

— طبعا لا .. إنى لا اريد ان اجعلك جدا .. اريد ان احافظ على شبابك .

— دعك منى .. الا تريدين الزواج ؟

وعدت انظر فى عينيه محاولة ان استشف ما يريد من قوله ، ثم اضفت كاذبة :

— لم افكر بعد .

— الم يلح لك الزوج الملائم .

ومرة أخرى عدت اكذب قائلة :

— جائز .

ولم أكن اجسر أن أقول له غير ذلك .

وعاد « أبى » يسأل وانا ما زلت على ساقه :

— اتمنى أن أعرف كيف يمكن أن يكون الشخص الذى يعجبك ، والذى يدفعك إلى التفكير فى الزواج .

واجبت ضاحكة :

— وإذا قلت لك عنه .. ولم يكن على استعداد لزواجى ؟

ورد « أبى » مقهقها :

— أجره لك من اذنيه . وارغمه على الزواج بك .

وتصورت « أبى » يجرك من أذنيك ، ويسوقك امامه ، للزواج بى .

وضحكت .. وظن « أبى » بالطبع اننى اضحك على قوله .

وقبلته وانا انهض عن ساقيه قائلة :

— لا داعى للعنف .. اتركه حتى يقبل راضيا .

ومضى الأسبوع وانا اعيش فى سعادة مطلقة .

سعيدة بانتظار لقائك .. سعيدة بأوهامى التى خلقتها « امك » بدعوتها التى قربت المسافة بيننا وجعلتنا نسير فى طريق الحياة متشابكى اليدين ، متلاصقى الكتفين .

سعيدة بجو العرس الذى يحيط بى ويملؤنى تفاؤلا .

سعيدة بسعادة الناس من حولى .

سعيدة .. واعتدت السعادة .. حتى لم اعد افكر .. لماذا كل هذه السعادة ؟

لم اعد أفكر أن المسة التى القت الضوء فى حياتى .. يمكن ان تعقبها مسة إظلام .

بل بدا لى أن الضوء ، هو الأصل فى حياتى .

بل فى حياة الناس كلهم .

لم اعد احس بطعم الشقاء فى الحياة .

ولا اتصور انه شىء له وجود .

واقبل يوم الخميس ، وكانى انا التى سازف .

لم اذهب إلى الكلية ، وذهبت منذ الصباح إلى بيت « خالتى » وقد حملت معى ثوب السهرة الطويل .. الذى اعددته لليلة .

وكان البيت يصخب بالحركة .

مناضد تصف ، ومقاعد ترص ، وثريات تعلق .

والبيت جميل رحب ، ونوافذه وابوابه الزجاجية العريضة تعرض صبح شتاء جميل .. تلاغى شمسه الكون باشعتها المطلة من وراء السحب المتناثرة ، وكانها تلعب « استغماية » .. تظهر تارة وتختفى تارة .

زرقة السماء جميلة ، وبياض السحب جميل ، واشعة الشمس ظاهرة جميلة ، ومختفية جميلة .

وصوت الخرير الذى يسمع من المجرى المتدفق بجوار السور .. جميل .

حتى الشجر الذى تجردت اوراقه ، وبدت فروعه العارية متشابكة .. بدا يومها جميلا .

اكان كل شىء .. جميلا حقا ؟

أم هى مسة الإشراق .. تبعث الضوء يشع من نفوسنا فيتركنا مبهورين من كل ما حولنا ؟

وصعدت إلى الدور العلوى ، ولقيتنى « خالتى » وزوجها بالترحيب .

وسالتنى « خالتى » وهى تضمنى إلى صدرها :

— اين ماما ؟

— انزلتنى هنا وذهبت إلى السوق .

— لماذا لم تخبرنى ؟ .. كنت اريد ان تشترى لى بعض اشياء .

وصمتت برهة ثم قالت :

— سأضطر إلى النزول للحاق بها .

وقال زوجها :

— سأنزل معك .

ووجدت نفسى سابقى وسط معمعة الإعداد للفرح وحيدة فتساءلت :

— اين حسان ؟

— خرج مبكرا .

— إذن اذهب انا معكما .

— بل ابقى حتى احضر .. إنى لن اتاخر .. ستحضر الخياطة بعد قليل ، فدعيها تنتظر .

وذهبت « خالتى » لتلحق بامى .

وهبطت إلى الطابق السفلى اجول خلال القاعات التى جرت فيها الاستعدادات على قدم وساق .

وعندما ضقت بالضجيج صعدت إلى أعلى مرة اخرى ، واتخذت مقعدى فى الشرفة الزجاجية أرقب الطريق .

وأمارس متعتى الطبيعية .

أفكر .. فيكْ .

ستأتى .. الليلة .. ما فى ذلك شك .

كان يجب ان تأتى بالأمس .

لم لا .. بعد كل هذا الغياب وفى هذه المناسبة السعيدة .. ألا تستحق ان تأخذ لنفسك إجازة لبضعة أيام تقضيها بيننا ؟

لدينا اشياء كثيرة نقولها ، ونفعلها .

سأسرد لك بالتفصيل كل ما دار بنفسى خلال غيبتك .

سأذكر لك ما ساورنى من شكوك وريب ، وما اصابنى من احزان .

سأقص عليك كل ما قال لى « رياض » .. وما تمنته « أمك » .

سأحدثك عن سعادتى .

سأقول لك اشياء كثيرة .. كثيرة .

وسنخرج سويا . سنذهب إلى العين الخضراء .. ونبع بردى .. وبلودان .

سنرى الجليد الذى تحبه .. وسنسهر سويا .

مرة عندنا .. لاسمعك .. يا جارة الوادى .. وإسهار ، ومرة عندكم من اجل والدتك الطيبة .

ومرة فى الواحة .

وسنتغدى سويا .. فى مطعم الشموع .

وماذا ايضا ؟ !

وستقول لى انت اشياء كثيرة .. كيف امضيت هذه المدة الطويلة بعيدا عنى .. اعرفت انى زرت القرية الجديدة ؟ . اتضايقت عندما عرفت انى اتيت إلى الجبهة دون أن ترانى ؟

وماذا ستقول ايضا ؟

استقول لى تلك الاشياء الجميلة التى تقولها وانت تنظر إلى عينى نظرتك المعجبة ؟

ساقول لك ما قاله ابى عن الزوج الذى يعجبنى ، وكيف يجره من اذنيه .. إذا لم يرض بالزواج بى :

هل أجسر ان اقول إنى تصورتك ، وابى يجرك من اذنيك .

لا اظن .

لن اجسر .. على ان اقول إنى لا اتصور ان يكون زوجى .. احد سواك .

لن اجسر .. لن اجسر .

قد تقول انت .. اما انا .. فلن اقول .

سارتدى الثوب الجديد الطويل .. الازرق بلون السماء .

لقد بدوت فيه جميلة وانا اجربه عند الخياطة .

وانا اعرف انك تحب اللون الأزرق .

اعرف اشياء كثيرة عنك ، لا تعرف انت انى اعرفها .

ستحب الفستان ولا شك .

إنه يستر ساقى .. يبدينى كفتاة سليمة ، وساحاول ان اسير كانى سليمة الساق .

ترى كيف تنظر إلى ساقى ؟

كيف نشعر بها ؟

أتضيق بها ؟ أتشفق عليها ؟

وتملكنى إحساس بالضيق .. وانا أفكر فيها .

وتذكرت جزع أمى وابى .. ولهفتهما على شفائى وتذكرت لندن والعملية الجراحية ، وفشلها .

واحسست بالندم لانى رفضت التجربة الثانية ..

ولكنى سرعان ما نفضت كل هذا عن ذهنى .

لماذا اعكر صفو يومى ، واحاول ان القى ظلا قاتما على طريقى المشرق ؟

ونهضت فى حماسة .. لأجرب الثوب .

ودخلت حجرة خالتى .. ونزعت عنى الثوب البسيط الذى ارتديه ، وارتديت الثوب الطويل الأزرق .

ووقفت امام المرآة .. ورفعت راسى .

جميلة .. ما فى ذلك شك .

سالقاك بهذا الشكل .. ملء نفسى الثقة .. بك .. وبنفسى ، وبالحياة كلها .

وفتح باب الغرفة .

وابصرت خالتى تقف بالباب وقد رفعت حاجبيهـــا فى دهشة ، وابتسمت قائلة :

ـــ ما كل هذا ! ؟ تبدين كالأميرات .

واحسست بالخجل وانا اضبط متلبسة بالاختيال امام المرآة .

وقلت لخالتى متلعثمة :

ـــ كنت .. كنت أجرب الفستان .

ـــ جميل جدا .. لم اكن اظنك بمثل هذا القدر من الجمال .
وردت خالتى :
واصابنى قولها بغبطة شديدة ، وانا اتخيل انعكاس شكلى فى عينيك ، ومدى ما يمكن ان يبعثه من إعجابك بى .
واجبت انا وانا اهم بنزع الثوب :
ـــ لا تملئينى بالغرور يا خالتى .
وهزت خالتى راسها فى اسف قائلة :
ـــ كان يجب ان تكونى عروس اليوم ، ولكن ليس لنا نصيب .
ولم اعرف كيف اجيب .. كنت فيما مضى اريح نفسى واقول فى حزم إنى لن اتزوج ، وكنت صادقة فى قولى .. فما احسست قط بان مثل هذا الأمر يمكن ان يكون موضع تفكيرى .
ولكنى احسست انى أكون منافقة لو اجبت بمثل هذا الرد ، فقد اصبح التفكير فى هذا الموضوع ـــ مقترنا بك ـــ امرا محتملا ، وجائزا .. بل ومستحبا .
ولم تعد المسألة كما كانت من قبل .. استبعادا مطلقا لوقوعه مع غيرك .
وكان من المستحيل ان اعبر بصراحة عن تفكيرى فاكتفيت بان اجيب إجابة تقليدية عجائزية قائلة :
ـــ كل شىء قسمة ونصيب يا خالتى .
وتركت خالتى الغرفة وهى تتفوه ببضع كلمات تعبر عن استسلامها للواقع ، ورضائها بالمقسوم .
وجرفتنا دوامة الاستعدادات والاستقبالات .. تليفونات تدق .. واقدام تصعد .. واقدام تنزل .. وعربات تقف بالباب .. وابواق تزعق .. وحسان يروح ويغدو ، وعلى وجهه الطيب علامات الاهتمام .
وحان موعد الغداء فتناولناه بسرعة .. وعدنا ثانية إلى الدوامة .. واقبل ابى بعد الغداء مباشرة والتقى بحسان هابطا الدرج فأمسك بيده وقال مازحا :

ـــ اهلا بسبع البرمبة .. شد حيلك .
وضحك حسان واجاب :
ـــ على الله .. عقبال سهير يا عمى .
وسأله ابى وهو يجده مندفعا إلى الخارج :
ـــ إلى اين ؟
ـــ سأذهب إلى نادية فهى تريد ان تقضى بعض المشاوير فى البلد .
ـــ العروس لا يجب ان تعمل اليوم .
ـــ ليس فى هذا الجيل يا عمى .. لقد القت امس محاضراتها كاملة .
وضحك أبى :
ـــ رحم الله ايام زمان .. كانت ايام عز للنساء .
واجاب حسان وهو يندفع إلى الخارج :
ـــ زمن المساواة .
ورد ابى وهو يكمل صعود الدرج :
ـــ على رايك .. إما المساواة .. او البغددة .
وقلت لأبى ضاحكة :
ـــ انقضى عهد البغددة يا ابى .
ـــ إى والله معك حق .. انقضى إلى غير رجعة .
وكنت اعرف إلى ماذا يشير .. فأنا اعرف لهجته الساخرة .. وكنت احس برغم كل ما يقوله عن الرضاء بالقوانين ان بقايا مرارة ترسب فى باطنه .. تظهر على طرف لسانه .. فى كلمات ساخرة .. بين الحين والحين .. ولكنه برغم تلك المرارة الراسبة .. كان ـــ بافقه الواسع ـــ يسلم بضرورة ما حصل كتطور حتمى لابد ان يحدث .. وعندما كان يناقشه زوج خالتى فى عدم اقتناع كان يؤكد له :
ـــ لا داعى للعناد .. هذا هو التطور الطبيعى لاسلوب الحياة .. فلنحمد الله على الرفق الذى سار به .. نحن ما زلنا بخير .. نتمتع بأشياء كثيرة .

واقبل ابى على خالتى يحييها .. واتخذ مجلسه مع زوجها فى حجرته .. يتبادلان الحديث .

وبدات انا انظر إلى الساعة فى قلق .

كانت قد اشرفت على الرابعة .. وهو الموعد المفروض ان تصل فيه .. او على وجه ادق .. الموعد الذى دق فيه التليفون فى آخر زيارة لك .. يحمل صوتك إلىّ .

ولم اعرف إذا كنت قد وصلت أم لا ..

ولا عرفت كيف اراك إذا كنت قد وصلت ، وندمت لانى لم اصطحب حسان إلى داركم .

ودق جرس التليفون .. فاسرعت إليه .

وسمعت صوت نادية تحيينى وتسأل فى قلق :

ـ اين حسان ؟

ـ لقد ذهب إليكم .

ـ منذ متى ؟

ـ بضع دقائق .

ـ لم يصل حتى الآن .

ـ لابد انه فى الطريق إليكم .

ولم تذكر شيئا عنك ، وخشيت ان تضع السماعة وينتهى الحديث دون ان تخبرنى شيئا عنك . فقلت اسالها :

ـ كيف حالكم ؟

ـ الحمد لله .

وببساطة استمررت اتساءل :

ـ وحمدى ؟

ـ لم يصل بعد .

ودون ان ادرى قلت فى شىء من الضيق :

ـ عجيبة ؟ !

وردت نادية قائلة :

ـ كان المفروض ان ياتى فى الظهيرة .

ولم اعرف ماذا اقول .. وكرهت ان اعبر عن مزيد مما اشعر به من قلق فقلت لها :

ـ متى ستحضرين ؟

ـ ساخرج مع حسان لقضاء بعض الحاجات .. وارجو ان يكون حمدى قد وصل عندما اعود .

ـ وستحضرون سويا ؟

ـ اجل .

ووضعت السماعة .

وكان علىّ ان انتظر فترة اخرى حتى تعود نادية لتجد حمدى .. ثم يحضرون إلينا .

ومضى الوقت بطيئا مملا .

وتملكنى شعور بالقلق .. اقفز إلى التليفون كلما سمعت رنينه .. واطل من الشرفة .. كلما وقفت عربة .. أو علا صوت بوق .

واخيرا .. ضقت بالانتظار ذرعا .

فرفعت السماعة وطلبت رقمكم .

وبعد برهة سمعت صوت أمك تتساءل فى صوت خافت :

ـ آلو .

ـ انا سهير .

ـ اهلا وسهلا .

ولم اجد فى صوتها الترحيب الذى تعودت أن تلقانى به .

فعدت اتساءل :

ـ متى ستحضرون ؟

وردت أمك فى لهجة خائفة بدت فيها رنة حزن وضيق :

ـ لا اعرف يا حبيبتى .

ـ الم تعد نادية بعد ؟

ـ لا ..

ـ وحمدى .

ـ حمدى ؟

ثم اطلقت تنهيدة واسترسلت تقول :

ـ لقد حدثونا فى التليفون بأنه لن يحضر .

ـ وروعنى ما قالت امك .. وبدا لى انى لم اسمعها جيدا ، وعدت اسأل :

ـ لن يحضر حمدى ؟

ـ اجل .

ـ لماذا ؟

ـ لا اعرف .. قالوا إنه مشغول .. وملئوا قلبى بالوساوس .. اخشى ان يكون مريضا .

ولم اعرف بماذا اجيب .

كنت فى حالة يأس شديدة .. وتمتمت بضع كلمات أسف .. ثم وضعت السماعة .. وتهاويت على المقعد .. وسحابة تغيم على عينى .

إنها المسة .. مسة الإظلام المفاجئة .

قد مست باطنى .. فعاد كل شيء من حولى معتما مغرقا فى الحلكة .. مغرقا فى صمت كأنه صمت القبور .

مَـــذلة

اقفر الطريق من جديد .

الطريق الذى اشرقت جوانبه واخضرت اوراقه .. وتفتح الزهر على غصونه .. قد لفه الظلام مرة اخرى .

اية مخلوقة كنت وقتذاك ؟ !

لم اكن طبيعية .

لم اكن .. ولم ازل غير طبيعية .

هذه الحساسية المفرطة .. التى تجعل حياتى تشرق وتعتم .. لغير ما سبب من تلك الأسباب الواضحة الجادة التى يمكن أن تجعل حياة الناس تشرق أو تعتم .

سبب من تلك الأسباب .. القاصمة للظهر .. موت .. او إفلاس .. او مرض .

مرض ؟ !

الم اجرب انا المرض كافجع ما يكون ؟

ومع ذلك لم اشعر انه قد اوقع بى مثل هذا الأسى .. الذى لقيته منـــك .

كيف اظلمت حياتى مرة اخرى ؟ !

ماذا فعلت بى ! ؟

هروب ؟ .. غياب ؟ .. تجنب لقاء ؟

لم اعرف حتى كيف اسميه ؟

ولكن الذى اعرفه .. هو انه تركنى .. محرومة .. يائسة .. ضائعة .

ولست ادرى .. اشذوذ فى نفسى .. ذلك الذى يجعلنى .. امعن فى السعادة .. وامعن فى الشــقاء .. اعلو إلى الذروة واهبط إلى الحضيض .. لغير ما سبب .. ــ مكا قلت ــ واضح جاد .

ام اننا كلنا .. هذه النفس !!

النفس التى قلت لك عنها .. تضيئها مسة .. لا نعرف متى .. ولا كيف .. وتعتمها مسة .. لا نعرف اين .. ولا من اين .

لقد اصابنى رد امك الحزين بخذلان شديد .. اشد كثيرا .. مما يمكن ان يتصور إنسان .

لم تكن المسالة .. حرمانا من لقاء .. او شوقا إليك لم تطفىء غلته .. كانت اعمق من ذلك كثيرا .

كانت سقوطا إلى هاوية الياس .. دفعنى إليها .. الذهن الذى انطلق يحلل ويفسر .. ويسوق النتائج .

كان اول اثر لرد امك .. هو الإحساس المباشر بانى فقدت متعة كبيرة كنت اتلهف عليها .. متعة لقائك .. والحديث معك .. متعة الطفل تؤمله بنزهة او هدية .. ويروح يومه يعد نفسه لاستقبالها .. ثم تعلنه فجاة بالحرمان منها ..

وهو احساس .. على مرارته .. يمكن الصبر عليه والتعزى عنه .. بمتعة او باخرى .

ولكن الذهن انطلق بى .. يجرنى إلى هاوية سحيقة .. من التاويلات والتفسيرات .. التى انتهت بى ــ ليس إلى الياس منك ــ بل من حياتى كلها .

لقد شعرت مرة بالخذلان ، لانك لم تكرر زيارتك ، ومرة لانى لم اتك فى زيارتى للجبهة ، واستطعت بعد ذلك ان التمس لك الاعذار ، وان اعبر هوة الياس .. انطلق فى ميدان الآمال ، وارتع فى مراح

الاحلام .. وان افرش طريقى بالورود .. واطلق فيه الاغاريد .

ولكن ، اى عذر يمكن ان اقتنع به نفسى ، وانا اجدك تهرب من فرح اختك .

واقول تهرب .. لانى احسست انه هروب .

وممن ؟ !

منى ؟ !

ولِمَ لا ؟ ! الا يحتمل ان تكون قد احسست ان شفقتك بى قد ورطتك معى إلى مدى لم تقصده .. ولم تعرف كيف تتراجع عنه .. إلا تجنبى .. حتى انساك ، او ايئس منك .

منطق معقول .

ولكن .. اوصل الحد بتخوفك منى .. ان تهرب من كل التزاماتك امام اختك وامام الناس .. وانت رب الاسرة الوحيد .. ورجلهــا المسئول ! ؟

ولكن اى تورط هذا الذى احسست به نحوى .

نظراتك المعجبة .. وكلماتك الرقيقة ؟ !

ام هو احساسك بانك قد تركت فى اعماقى اثرا .. هز كيانى ، واضاع الياس من نفسى .. واشرق طريقى ؟

اهو ذلك الإحساس بحقيقة ما فعلت بى ، وإدراكك بان مبعثه كان نزوة إشفاق ، وانك لا تملك نحوى الشعور الحقيقى الذى يمكنك من الاستمرار فيه .

وتملكنى إحساس مرير .. بالمذلة .

انت تعرف هذا الإحساس المؤلم .. الذى يجعلنا نرثى لانفسنا .

ولم اعرف كيف اواجه الميساة .. ماساة فى باطنى .. لا يحس بها احد من حولى .

شىء اشبه بالنزيف الداخلى .. لا يحس به الغير حتى يفقدنا الوعى ، ويتركنا جسدا بلا حراك .

ولكنى .. لم اكن املك حتى الاستسلام .. وفقد الوعى .. والرقود بلا حراك .

كان علىّ ان اقوم .. واتحرك .. واتحدث .. وان اخوض ليلة طويلة .. من الأفراح .. بجرح ينزف فى باطنى .

ولمحت « خالتى » تقبل علىّ ، ونهضت اتماسك .. قبل ان تسألنى « ما بك ؟ » !

ولكن يبدو انى لم استطع ان استر كل ما بى .. وان شيئا منه قد طفا على وجهى لينم علىّ .

وسألت « خالتى » فى شىء من الجزع واللهفة :

ـ ماذا بك يا سهير ؟

وهززت رأسى وأنا اتجه إلى الشرفة الزجاجية :

ـ لا شىء .

ـ يبدو عليك الإرهاق ؟

ـ أحسست بدوخة .. وغثيان .

ـ احضر لك اسبرو ؟

ـ لا .. لا ضرورة .

ـ استريحى إذن .

وكنت فى حاجة إلى ان استريح فعلا .. فى حاجة إلى ان اخلو لنفسى .. لأكفكف الدمع الذى يسيل فى باطنى واضمد الجرح الذى ينزف فى اعماقى ، واحاول ان افكر فى شىء من الهدوء .. إن كانت العاصفة التى اثرتها فى جوفى يمكن ان تترك لى املا فى هدوء .

ودخلت حجرة « خالتى » واستلقيت على مقعد طويل ، واغمضت عينى .

ومن جديد عدت افكر بنفس الاسلوب .. لأسوق ذهنى إلى نفس النتائج .. واحس بنفس المذلة .. ونفس الرثاء .

واطلت من ذاكرتى قصة الفتاة المقعدة التى اقدمت على الانتحار عندما اكتشف حبيبها انها مقعدة .. بعد ان ظل يلقاها على الشاطىء ،

وهى جالسة على مقعدها ، تلح عليه فى الانصراف قبل ان تحضر العربة .. ثم اختفى ليرتقب سر إصرارها على انصرافه ورآها وهى تحمل مقعدة إلى العربة .. فلما احست بذلك اقدمت على الانتحار .

ولقد عجبت وقتذاك من الفتاة المسكينة .. عجبت منها .. كيف حاولت ان تخفى إصابتها عن المخلوق الذى احست بحبه .

وعجبت منها . كيف اقدمت على الانتحار لانه اكتشف سرها .

واحسست ان القصة مبالغة غير معقولة .

لم اكن ارى فى اى حدث من الأحداث ما يمكن ان يدفعنا إلى الخلاص من حياتنا .

فى كل ما صادفنى من متاعب المرض .. لم أجد ما يدفعنى إلى التفكير فى الانتحار .. كنت دائما اجد ان الحياة ممكنة بطريقة أو باخرى .

لم اصل قط إلى حد اليأس من الحياة .. كنت احس انه عندما نفقد بها شيئا .. يمكننا ان نستعيض عنه بشىء آخر .. لم اكن ارى بها شيئا بلا بديل .. إذا نقدناه استعصت علينا الحياة .

ولكنى فى تلك اللحظات احسست ان بعض الأشياء فى حياتنا قد يكون بلا بديل ، واننا عندما نفقده .. نحس ان الحياة قد باتت مقفرة .. وضاق طريقها .. واظلم أفقها .. واشتدت مرارتها .

أشياء عندما نفقدها .. يملؤنا الإحساس بالخوف .. والخذلان .. والضياع ، وكان يدا ثقيلة تطبق على انفاسنا وتجثم على صدورنا .. ولا يعود لنا من سبيل إلى النجاة .. سوى الخلاص منها .. من كل ما فيها .. ونرى ان الموت هو البارقة الوحيدة التى تلوح لنا وسط ظلمات اليأس المكتسحة حولنا .

وراودتنى وقتذاك فكرة الموت .. كملجأ وحيد الوذ به من كل هذا اليأس والمذلة والخوف .

وقد تبدو رغبتى فى الموت .. شعورا مبالغا فيه .. وإفراطا فى الحساسية .

وإنه لم يحدث .. ما يدعو إلى كل هذا .

وقد يكون هذا صحيحا .. ولكنى عندما احاول الآن ان احلل مشاعرى وقتذاك .. وافسر ما اصابنى .. من ياس وإعياء وضياع .. اجد إن هناك ما يبرره ، وما يقوم لى بعض العذر عنه .

كان اسوأ ما اصابنى ، واضاع قدرتى على المقاومة .. هو شعور الظلم ولإذلال ، وبأنى اعاقب .. على غير ذنب .

كنت اشعر بنفسى اشبه بذلك الكلب الذى قرات قصته فى احد كتب المطالعة القديمة .. الكلب المسكين المريض الذى يسير فى إعياء وخوف فيضع له احد الصبية العابثين عظمة فى طريقه . فلا يكاد يمد فمه إليها حتى يشدها إليه بخيط ثم يهوى على ظهره بالعصا .

كنت ابكى من اجل الكلب المسكين كلما قـرات قصته ، واتمـنى لو استطعت ان اذهب إليه لاربت ظهره واطعمه واحنو عليه .. وكنت من اجله .. اعطف على كل كلب .

ولم يطف بذهنى قط انى ساصبح فى ذات يوم .. ذلك الكلب الذى كنت ارثى له وابكى من اجله .

لم اكن اطلب من حياتى شيئا .

حتى ذلك العرج لم احن عليه .. بل سلمت به .. ووطدت نفسى عليه ، وكنت اسير من حياتى على جانب الطريق .. لا اطمع فى شىء .. ولا اهفو إلى شىء .

وحددت لنفسى من الأمانى ما لا يستعصى علىّ نيله .. اشياء بسيطة .. يمكن ان ينالها كل مخلوق .. قراءة كتاب ، او مشاهدة فيلم .. او الخروج فى نزهة .

كنت احس بما بى من نقص .

ولم اجعل منه مأساة لنفسى ، بل عزمت على ان اجعل منه شيئا طبيعيا بان اقصر آمالى على ما يلائمه .

كنت اعرف قدر نفسى ،

وإذا كنا نقول « رحم الله امرءا عرف قدر نفسه » . كما كان اجدرنى برحمته .

ولكنى لم اترك وشأنى .. كما لم يترك الكلب المسكين وشأنه .. بل لوح لى بالأمل .. وعندما تركت جانب الطريق ، وهممت بأن امد يدى إليه .. سحب منى ، وهوت العصا على ظهرى قاصمة قاضية .

ولم استطع مقاومة الإحساس الجارف بالظلم والمذلة .

وبعثت فى نفسى شعورا مضادا بالكبرياء والزهد .. واحتقار كل شىء .

وعندما نرتطم بصخرة الياس ويغلق امامنا طريق الأمانى لا نجد امامنا ما نقاوم به الم الحرمان من شىء .. سوى الزهد فيه .

ودفعتنى حدة اليأس إلى ان اوسع دائرة الزهد .

لم احاول ان افرض على نفسى الزهد فيك فحسب .. بل دفعنى الكبرياء المضاد لإحساسى بالمذلة .. إلى الزهد فى الحياة ذاتها .

وكما يغضب الطفل عندما تحاول حرمانه من بعض الحلوى فيقذف إليك بكل ما بيديه .. رحت اقذف من يدى بكل ما أملك .. بحياتى ذاتها .

وبدات افكر فى طرق الخلاص .

واستعرض وسائل الانتحار التى سمعتها او قراتها او شاهدتها فى افلام السينما .

انبوبة الاسبرو ، وصنبور الغاز ، والقفز من الشرفة ، وقطع الشريان .

ورحت اتتبع نفسى .. فى كل حالة .

واصابنى الغثيان ، واحسست برجفة وأنا اتصور منظر الدماء تتدفق من يدى .. لتملأ ارض الغرفة .

ورحت اتخيل من حولى .

ماذا يمكن أن يصيبهم ؟

ابى .. وامى .. وحنيفة .. وسلمى .. و .. و ..

تصورت « ابى » .. ووجيمته .. ويأسه .. ورايت « امى »

منهارة .. يكاد يقضى عليها الجزع .

ولم استطع ان اواصل التفكير .

وكرهت نفسى ان اخلص من عذابى بعذاب الآخرين ، عذاب احب الناس إلىّ .. وان احول طعنة الحياة من صدرى إلى صدورهم ، وان انفض عنى الأسى والألم .. لاغرقهم به .

وطردت من راسى فكرة الانتحار .

ما اسهل ان نفكر فى الخلاص من الحياة ، وما اصعب ان نخلص منها فعلا .

إذا اردت ان تقدم على الانتحار .. فلا تفكر فى الوسائل ولا تستعرض النتائج .. اقدم باقرب الوسائل إليك ، واخلص من حياتك .

وهذا ما لم افعله ، وما لا اتمنى لاحد ان يفعله .

فحياتنا الطويلة التى تتسع لكل شىء .. لكل الافراح والاحزان ، والآمال والاشجان ، والمتع والآلام .. اثمن من ان نضيعها بانفعال ما .. لإنسان ما .

وهكذا .. ومن اجل اولئك الذين يحبوننى .. والذين لم يسيئوا إلىّ .. عدلت عن الخلاص من الحياة ، وقصرت تفكيرى على الخلاص منك .. ومن آمالى فيك ومشاعرى نحوك .

وعزمت على الا افكر فيك .. وان ازدريك .. واحتقرك .

آسفة ..لسوء التعبير .

ولكن ماذا افعل .. إذا كان ذلك هو ما عزمت عليه وقتذاك ؟

اقول عزمت .. ويعلم الله إلى اى مدى استطعت ان افعل .

اما عن الكف فى التفكير فيك .. فقد كان ينقضه ، عزمى على ما بعده .. اعنى .. على ان أزدريك واحتقرك .

اليس الازدراء فى حد ذاته .. يستدعى التفكير ؟

بل إن مجرد عزمى على التفكير فيك ، هو تفكير فى حد ذاته .

الاشياء التى لا نفكر فيها .. لا نفكر فيها بلا عزم على ذلك ، وبلا عزم على ان نزدريها ونحتقرها .

اخطر ببالك مرة ان تصمم على عدم التفكير فى الطحالب التى تطفو على مجرى بردى .. او فى عربة اللوز الاخضر الواقفة فى الميدان .. او فى تمثال « نلسون » القائم فى ميدان ترافلجار بلندن ؟

كل هذه الاشياء التى تملأ الدنيا ، ولا نشغل انفسنا بالتفكير فيها .. دون ان نعزم على ذلك .. ودون ان نصمم على ازدرائها او احتقارها .

اما انت فقد كان عزمى على عدم التفكير فيك تصميم على الا اشغل نفسى بغيرك .. حتى ولو كان ذلك .. بالازدراء او الاحتقار .

وهكذا مرت ليلة الفرح ، وانت غائب حاضر .. وكانى بك ابيت ان تظهر للناس .. لتستقر فى راسى ، وتشغل تفكيرى ، وتسيطر على حواسى .

وكان علىّ .. ان ابدو طبيعية .. واتصرف كما يجب أن اتصرف .

واحتاج الأمر لجهد كبير .. لكى اظهر ما لا احس به . لكى اضحك وامزح ، واشارك فى الفرحة .

وكان على ان اعتذر بالصداع .. لابرر بعض مظاهر الضيق التى عجزت عن الخلاص منها .

ولست اذكر تفاصيل تلك الليلة .

لقد كانت اسوا ما مر بى من ليال وايام .. فليس اسوا على الإنسان من ان يخرج بنفسه القاتمة وباطنه المعتم .. ليستعرضها وسط البريق والانوار .

ان يرقد الإنسان بآلامه .. شىء موجع ، وان يعدو بها طربا ضاحكا .. شىء اشد وجيعة ، واكثر إيلاما .

وكان علىّ أن اطرب بمواجعى ، واضحك من آلامى .. كان علىّ ان افعل كل ما يجب فعله دون ان اخلص من شىء من متاعبى .

لم اخلص من حياتى .. ولم اخلص منك ومن التفكير فيك .

وامتلأ البيت بالناس .. وعلت الموسيقى .. والغناء ، وطرب الناس .. واكلوا وشربوا .. واطلقوا كل ما يعـــرفون من نكات سخيفة .

وبدا « حسان » أنيقا .. مرتبكا .. يتصبب منه العرق فى عز الشتاء .. وبدت « نادية » حلوة رقيقة ، شاردة الذهن رغم ما ابدته من مظاهر الفرحة ، والتجاوب ، والمجاملة .

ولم احاول ان اسالها عنك حتى اقتربت منى وانا اجلس فى ركن الصالون بجوار « سلمى » .. وجلست على جانب المقعد واحاطتنى بذراعيها فى حنان قائلة :

ـــ عقبى لك يا سهير .

وكنت قد سمعت هذه الدعوة ما يربو على المائة مرة .. وكنت اردها باشد الوسائل اختصارا .. وهى كلمة « متشكرة » .

وددت لو استطعت ان اخلو بنادية .. علّى افوز منها بشىء عنك يريحنى .. ولكن لم يكن هناك مجال لذلك وهى عروس الليلة .. و « حسان » لا يكاد يفارقها .

ورددت عليها بالشكر باسمة .. واحسست بنظرتها تثبت فى عينى وبها ذلك الشرود الذى لمحته فى عينيها منذ ان ابصرتها داخلة .

ومالت براسها علىّ وقالت فى شبه همس :

ـــ اقالت لك امى ان « حمدى » لن ياتى ؟

وهززت راسى بالإجابة دون ان انبس بكلمة .

كنت اخشى ان ابكى .. ولم اجد وسيلة لمقاومة الرغبة فى البكاء .. سوى ان اطبق شفتى والوذ بالصمت .

وعادت « نادية » تقول :

ـــ عجيبة !! كيف يخذلنى فى هذه الليلة ؟

« يخذلك وحدك ؟ » .

« وانا ؟ » .

لا احد يدرى بى .

لا احد يدرى بما فعل بى غيابك من وجيعة .

وانى لهم ان يدروا .. إلا ان اقف بينهم واصرخ بملء فمى .. لاقول

إنى حزينة ويائسة .. وإن طريقى قد اظلم .. واماتى قد ضاعت .. لانك لم تات .. لانك هربت منى .. حتى تجنب نفسك مسئولية حبى .

وكان علىّ ان اقول لاختك شيئا .. اى شىء .. ولم اجد ما يمكن ان يقال .. سوى ان اعتذر عنك .

يا للسخرية !

قلت اعتذر عنك لاختك وانا فى اشد الحاجة لمن يعتذر لى عنك .

قلت اتمتم فى صوت خافت :

ـــ قد يكون وراءه عمل .

وردت « نادية » فى حدة خافتة :

ـــ عمل ؟

وصمتت برهة ثم واصلت قولها فى ضيق مكتوم :

ـــ اى عمل هذا الذى يمنعه عن حضور عرسى وليس لى فى الدنيا غيره .

وكدت اقول : « وانا ايضا » .

ولكنى لم املك إلا ان اتمتم فى شرود قائلة :

ـــ من يدرى ما لديه !!

ووصل « حسان » ليجر « نادية » من ذراعها .. ويختفى وســـط الزحام .

والتفتت إلىّ « سلمى » متسائلة فى صوت هادىء :

ـــ الن ياتى حمدى ؟

واطرقت دون ان اجيب .

وصمتت « سلمى » وقد بدت عليها الحيرة والضيق .. وهى تحس بعض ما يمكن ان اعانيه .

وعادت « سلمى » تسألنى فى حيرة :

ـــ الم يذكر لماذا ؟

وهززت راسى بالنفى دون ان انطق بكلمة .

ولم تعقب « سلمى » على هزة راسى .

لم تعرف ماذا تقول .. لقد فكرت فى كل شىء .. على كل الوجوه .. ولم تقل لى شيئا .. حتى ولا على سبيل التعزية .. خشية ان يبدو منها ما يثير اشجانى .

واخيرا قالت فى لهجة مقتضبة :

ــ قد يكون لديه ما يبرر غيابه .

ولم اقل لها .. مثل ماذا ؟

لم أجد لك انا بعد كل هذا التفكير .. عذرا واحدا .. فكيف تجده هى ؟

ورددت عليها فى استخفاف نضح به فرط الياس :

ــ ربما .

وقالت « سلمى » وهى تدرك كل ما يجول فى خاطرى :

ــ لا تضيقى بشىء يا سهير .. الحياة مليئة بالاشياء الجميلة .. وفى ما نأخذه منها .. عزاء عما نضيعه فيها .

لقد فكرت « سلمى » فيما افكر فيه .. بنفس الاسلوب وقادها تفكيرها إلى ما وصلت إليه .. إلى انى فقدت شيئا هاما ، او اوشك ان افقده .

وهى تحاول ان تقنعنى .. ان هناك ما يغنى عما فقدته .. وان الحياة مليئة باشياء اخرى جميلة .

وكدت اهتف بها باكية :

ــ لا .. ابدا يا سلمى .. إنك لم تجربى بعد .. هناك اشياء لا يغنى عنها اى شىء .. عندما نفقدها .. نفقد حياتنا ، ويعتم طريقنا ، وتختفى منه كل الاشياء الجميلة التى تتحدثين عنها .

ولم اقل بالطبع ما احسست به .

ولكنى رسمت ابتسامة زائفة على شفتى وقلت تلك الكلمة التى نقولها عندما لا نعرف ماذا نقول :

ــ يعنى .

واخيرا انتهت الليلة .

الليلة التى حشدت فيها اجمل امانى .. والتى خططت لها طوال ايامى الماضية .. ماذا سأقول ، وماذا سأفعل .

الليلة التى مزقت انت خططى فيها ، وقوضت امانى بها .

وخرجت اجر نفسى المثقلة بالاوجاع ، واغلقت شفتى عن آخر ابتسامة زائفة منحتها لحسان ونادية ، بعد أن ودعتهما .

وارتميت فى العربة واطلقت زفرة حارة اخرج بها بعض ما يتأجج به صدرى .

وسألنى « ابى » فى إشفاق وهو يتخذ مجلسه فى العربة :

ــ ما بك يا سهير ؟

وقالت « امى » وهى تجس يدى ، وتتحسس جبينى :

ــ الصداع ما زال يؤلمك ؟

وكان الصداع اسهل تفسير يمكن ان ارجع إليه ما بى .. فقلت على الفور :

ــ اجل .

وردت امى :

ــ عندما نصل إلى البيت سأصنع لك فنجانا من الشاى . خذى قرصين اسبرو .. وادفئى نفسك جيدا .

واردفت تقول لائمة كعادتها عندما تصيبنى اية وعكة :

ــ لو سمعت نصيحتى لما اصابك هذا .

ثم استرسلت تعدد الحالات التى خالفت فيها نصحها .. فأصابنى المرض .

ولم استمع إليها بالطبع .

كان الداء الحقيقى يلح على رأسى .

كنت انت صداعى .. الذى لا يفتأ يطرق رأسى بمطارق الأسى واليأس .

وعاد الذهن يشرد فيك .. فيما قلت لى فيما مضى .. وفيما فعلت بى الآن .

فى إقبالك الذى رفعنى إلى ذرا السعادة .

وفى خذلانكَ .. الذى تذفتنى به إلى قاع المذلة والضياع .

واقبلت العربة على بيتنا .. دون ان ابصر شيئا خلال الطريق .. وتوقفت امام الباب ، او هكذا خيل إلىّ .

ومددت يدى افتح الباب واهبط منه ، ووضعت قدمى على الارض ، فإذا بالأرض تتحرك اسفل وتطوينى طيا .

لقد هبطت من العربة قبل ان تقف تماما .. وطوت الأرض المتحركة ساقى التى هبطت بها ، فهوى جسدى على الأرض وظلت ساقى المصابة معلقة بالعربة تجر جسدى المدلى على الأرض وراءها .

ولم اشعر بشىء من هذه التفاصيل .. كل ما شعرت به هو انى اهوى والأرض تدور بى .

وتعالت الصرخات الحادة .. صرخنى ، وصرخة امى وابى والسائق .

واوقفت العربة فى التو ، واندفع « ابى » ينكب علىّ يحملنى بين يديه ، صائحا فى ارتياع .. وكان طعنة قد اصابته فجاة :

ــ سهير .. ماذا اصابك ؟

ولم اكن اعرف بالطبع ما اصابنى .. ولكن ما اصابنى من الخشية عليهم جعلنى ارد بكل ما املك من قوة :

ــ لا شىء .. لا شىء ابدا .. انا سليمة .

واقبلت « امى » تتحسسنى ودموعها تتدفق وصدرها يعلو ويهبط :

ــ ماذا بك .. سهير ؟

ــ لا شىء يا امى .

ــ لماذا نزلت من العربة يا حبيبتى .. قبل ان تقف ؟

ــ ظننتها وقفت .

واقبل السائق علىّ وهو يلهث :

ــ ست سهير .. سلامتك .. انا .. انا ....

ــ انت لم تفعل شيئا ، إنها غلطتى انا .. لقد هبطت قبل ان تقف العربة .. كنت شاردة ، وظننت انها وقفت .

وحملنى « ابى » على ذراعه .. و « امى » تتبعه باكية .. وهو يؤكد لها :

ــ سليمة .. سليمة بإذن الله .

ولقيتنا « حنيفة » على السلم بعد ان سمعت الضجيج ، ولم تكد ترانى محمولة حتى صرخت :

ــ ست سهير .. ماذا حدث ؟

وقلت اطمئنها :

ــ لا شىء .. لا تخافى .. لقد وقعت وانا انزل من العربة .

ووضعنى « ابى » على اريكة البهو .. واخذ يتفحصنى محاولا الاطمئنان علىّ .

وكنت احس بالم فى مفصل قدمى السليمة .. وبدا العرقوب وارما .. وضغط « ابى » عليه بخفة فتوجعت .

واخذت « امى » تغسل خدوشا فى وجهى وتضمدها ..

وقال «أبى » محاولا بث الطمأنينة فيمن حوله :

ــ بسيطة .. مجرد التواء .

ونظر إلى الساعة فى معصمه وبدت عليه الحيرة ، ودفعه القلق الذى يحاول ان يستره إلى ان يتساءل :

ــ الطلب الدكتور فايز يطمئننا ؟

واجبته مؤكدة :

ــ لا داعى ابدا .. إنه مجرد التواء كما قلت .. وليس هنــاك ما يؤلمنى .

وهز « ابى » راسه مقتنعا واجاب :

ــ نطلبه فى الصباح .

ثم اطلق تنهيدة طويلة قائلا :

ــ الحمد لله .. جاءت سليمة .

وردت « أمى » وهى تكفكف دمعها :

ـ هى ناقصة .. ألا يكفى ما بها ؟

وقلت لها أحاول أن أخفف عنها :

ـ لم يحدث شيء .. إنها وقعة بسيطة .

ورد « أبى » متضاحكا :

ـ تعيش وتأخذ غيرها .

وقالت « حنيفة » متنهدة فى حزن :

ـ تعيش ويبقيها الله من كل شر .

وقلت وأنا أحاول أن أرفع عنهم سحب الكآبة :

ـ عمر الشقى بقى ، لا تخشوا علىّ شيئا .

وأويت إلى الفراش ..

وشغلتنى السقطة بكل ما أحاطها من جزع .. وبكل ما خلفته من خدوش وأوجاع .

شغلتنى عن الوجيعة الكبرى .. لبعض الوقت .

ولكنى لم أكد أرقد فى الفراش .. حتى عدت أفكر فيك .. بنفس المرارة ، ونفس الحزن .

وأتمنى لو كانت السقطة قاضية .

تخلصنى من الحياة .

ثم أعود أتذكر أبى وأمى ، وأحمد الله على سلامتى .. وأنا أذكر الارتياع فى أعينهما ، وصرخاتهما كالذبيحين .

ومضت فترة طويلة قبل أن ينتصر النوم على تفكيرى الملح ، وأعصابى المتوترة .

واستيقظت فى الصباح .

ونفسى ما زالت مثقلة بالحزن .. كالطفل الذى ينام باكيا .

وأقبل علىّ الدكتور « فايز » وكان « أبى » قد أيقظه فى الشروق لكى يحضر ليرانى .

وانتهى من الكشف علىّ ، وربت كتفى ضاحكا وهو يقول :

ـ سليمة .. والحمد لله .. لا شيء أكثر من التواء فى مفصل القدم .. يحتاج إلى بعض الراحة .

وتساءلت أمى :

ـ ندلكه بالزيت ؟

ـ ممكن .

ـ لقد أصيبت ساقى مرة ، ودلكتها بزيت دافيء ، وربطتها بالصوف .. و ...

وقاطعها الدكتور قائلا :

ـ لن يحتاج الأمر لكل هذا ، دعوها ترتاح يومين فى الفراش ، وستنهض على خير حال .

وغادر الطبيب الغرفة وودعه « أبى » حتى الباب ثم عاد وفى يديه صحف الصباح سلمها له البائع .

ولمحت فى إحدى الصحف فى يده عنوانا عريضا بالخط الأحمر :

« معركة حامية الوطيس مع إسرائيل فى التوافيق » .

« الجيش العربى يلقن إسرائيل درسا لن تنساه » .

وتملكنى إحساس عجيب .

إحساس لا أظن مخلوقا قد أحس به من قبل .

خليط من الجزع والراحة ، والخوف والطمأنينة .

لقد ذابت جلاميد اليأس التى تراكمت على نفسى .

وعاد الأمل يطل عليها من جديد .

أمل مصحوب بخوف غامض .

لقد ملأنى نبأ المعركة إحساسا بأنى لم أظلم ولم أذل .. وبأنك لم تذنب .

لقد قدمت لى بيد ، الاعتذار لك ، عن كل ما ظننته بك .

وباليد الأخرى ، قدمت الجزع مما يمكن أن يكون قد أصابك .

دمـوع فى الوســـادة

تناولت الصحف من « ابى » لاقرا فى جزع تفاصيل الأخبار التى لمحت عناوينها الحمر العريضة .. ولم اطل القراءة .. فقد عجزت تماما عن ان الم ذهنى الذى انطلق إليك يتابعك فى ارض المعركة .

كيف كنت ؟ ! وماذا فعلت ؟ ! وكيف اصبحت ؟ !

وتبدل اسلوبى فى التفكـير فيك تبـدلا تاما ، من النقيض إلى النقيض .

من اللوم ، إلى الاستغفار .. ومن محاولة كرهك والاستغناء عنك ، والاستكبار عليك ، إلى اللهفة الشديدة إلى رؤيتك والاطمئنان عليك ، والركوع بجوارك .

واقول محاولة .. فما اظننى افلحت ابدا فى ان افرض على نفسى شيئا من هذه المشاعر المضادة لك .

لقد كنت احاول ان اصنع منها جدارا واقيا ، يصلب نفسى ، ويقينى شر التهاوى والانهيار ، ولكن يعلم الله انى عجزت تماما عن ان ادعها تتسرب إلى نفسى وتمتزج بمشاعرى الحقيقية نحوك .

وعادت مشاعرى الأصيلة لك تتدفق فى حرارة وقوة . وانا احس بانى قد ظلمتك وتجنيت عليك ، واسات الظن بك .

ولم تطل لحظات الخلط فى المشاعر ، التى مرت بى بمجرد ان لمحت عناوين المعركة .

لقد محا إدراكى للحقيقة كل ما بنفسى من شـقاء .. وتعاسة

وإحساس بالضياع ، وعاودتنى الثقة والإيمان .. بك وبالحياة .. وبكل شىء ..

اشرق الطريق امامى فجاة ، كما اظلم بالأمس فجاة .

ولم تستطع هذه الوساوس التى ساورتنى فيما يمكن ان يحدث لك فى المعركة .. ان تلقى ظلا من الأسى او اليأس على الإشراقة التى فى جوانحى .

لقد دفعتنى هذه الوساوس إلى التحفز لأن اخوض من اجلك معركة .. مع اى شىء وضد اى خطر .

فارق كبير .. بين إحساس المذلة وإحساس التحفز .

الأول يدمرنا ويلقى بنا حطاما .. والثانى يمنحنا قوة لخوض معركة .

فارق كبير .. وانا اشعر لك بما اشعر وآمل فيما آمل بين الضياع فى هاوية الأفكار والإهمال والنسيان .. وبين الوقوف بجوارك ، كجزء منك .. اشاركك المصير ايا كان هذا المصير .

واحسست بلهفتى إلى السؤال عنك والاطمئنان عليك ، تلح على وانا امسك بالصحيفة بين يدى ، وعيناى تحملقان فى سطورها ، وذهنى يلاحقك فى الجبهة يحاول ان يعرف اين انت وكيف انت .

وفتح لى « ابى » الطريق إلى السؤال بقوله ، وهو يجلس على المقعد ، ويتناول فنجان الشاى من فوق منضدة صغيرة بجواره :

ـــ يبدو انها مسالة جادة ، ليست مجرد مناوشات .

ورددت عليه وذهنى ما زال شاردا وراءك :

ـــ مناوشات !! إنها معركة كبيرة .

ـــ ربنا يستر .

وصمت برهة وهو يرشف من الفنجان رشفة طويلة ثم اردف قائلا :

ـــ لم يذكر البيان شيئا عن خسائرنا .

واحسست بيد تعصر باطنى ، وتضغط على صدرى ، وانا اتصور

ما يمكن أن تتضمنه كلمة خسائرنا ، وانطلق الذهن الجامح يبحث عنك بين هذه الخسائر ؟

وقلت لابى مستنكرة :

ــ اتظن هناك خسائر بيننا ؟

ــ اتظنين معركة كهذه يمكن ان تكون بلا خسائر ؟

وعادت اليد تعتصر باطنى ، وتضغط على صدرى .. وتلاحقت انفاسى ، حتى بدا صوتها مسموعا ، ولم احس فى نفسى قدرة على النطق .

واسترسل « ابى » يقول فى رنة اسى :

ــ ربنا يحمى اولادنا .

ولم استطع ان اكتم مخاوفى عليك اكثر من هذا .. فقلت فى صوت خافت :

ــ اتظن ان حمدى اخا نادية اشترك فى المعركة ؟

ــ يحتمل جدا ، ولابد ان يكون هذا سبب غيابه من الحفل امس .. مسكينة امه .. لابد انها فى حال مزعجة من القلق .. ليتهم يخفون نبأ المعركة ، حتى تطمئن عليه .

ولم يطف بذهن « ابى » انى قد اكون اكثر مسكنة من امك .. وانى اشد من اى إنسان فى حاجة إلى الطمانينة عليك ، وإلى ان القاك واتحسسك .. واسند راسى إلى صدرك طويلا .. طويلا .

وقلت لابى :

ــ يجب ان تسال عنه .

ــ نسال من ؟

وكانت « امى » قد اقبلت تحمل إلىّ صينية الافطار .. فتساءلت قائلة :

ــ تسالون عمن ؟

واجبتها قائلة :

ــ عن حمدى .

ــ لماذا ؟

ورد « أبى » محاولا تخفيق المسالة :

ــ حدثت بعض مناوشات على الحدود .

ونتحت « أمى » الصحيفة على فراشى وهى تضع صينية الإفطار على منضدة بجوارى .. وضربت على صدرها فى انزعاج صائحة :

ــ يا مصيبتى ! . معركة كبيرة ؟

وهتف بها « أبى » قائلا :

ــ لا تنزعجى هكذا .. لقد انزلت قواتنا بقوات إسرائيل خسائر فادحة .

ــ ونحن ؟

ــ لم يرد شىء عن خسائرنا .

ــ مسكينة الست ام حمدى .. ومسكينة ام سلمى .. لابد انهما فى حالة قلق شديد .. كان الله فى عونهما .

وكان خوفى عليك قد شغلنى عن التفكير فى اى مخلوق سواك .. وذكرتنى « أمى » برياض .. ولم املك نفسى من الإحساس بالخوف عليه والقلق على « امه » وعلى « سلمى » .

ونهض « ابى » ليحضر التليفون وهو يقول :

ــ سأطلب حسان .. فلعل لديه بعض الانباء .

وطلب « ابى » رقم « خالتى » .. وكان « حسان » ما زال فى بيت ابيه يتم تجهيز البيت الذى استاجره فى شارع بغداد .. والذى سينتقل إليه مع نادية وامك .

واخذ التليفون يدق فترة دون ان يجيب احد .

وكان الكل ما زالوا نياما عقب سهرة الأمس .. ويبدو ان احدا قد رد اخيرا على « ابى » .. فقد هتف قائلا :

ــ آلو .. صح النوم .

وادركت ان « خالتى » هى التى ردت عليه حينما عاد يقول :

— صباح الخير يا حفيظة .. اما زلتم نياما !! الحمد لله .. ابدا .. ابدا .

ويبدو انها قد فزعت من التليفون المبكر .. فقد سمعت « ابى » يطمئنها قائلا :

— ليس هناك ما يزعج .. نحن بخير .. لقد وقعت بالأمس حادثة بسيطة لسهير .. لا .. لا .. بسيطة والحمد لله ، لقد نزلت من العربة عندما عدنا إلى البيت امس .. قبل ان تقف .. فسقطت على الارض وحدثت لها بعض الرضوض .

ولم اشك فى مدى انزعاج « خالتى » .. فقد وجدت « ابى » يصيح بها :

— قلت لك سليمة .. لقد زارها الدكتور « فايز » هذا الصباح .. ولم يجد سوى التواء بسيط فى مفصل القدم اليسرى .. وطلب منها ان تستريح .

وادركت ان « خالتى » ستحضر فورا . فقد سمعت « ابى » يقول لها هاتفا :

— لا داعى لحضورك الآن .. قلت لك إنها بخير .

وقبل ان ينطق « ابى » بكلمة اخرى .. وضعت « خالتى » السماعة .

وعاد وهو يهتف :

— حفيظة .. آلو .. آلو .

ووضع « ابى » السماعة فى غيظ وهو يقول :

— لم تعطنى الفرصة ان اسأل على « حسان » .

وقلت لابى :

— اعطنى التليفون .. سأحدث سلمى .

قالت امى :

- لا داعى لان تزعجيهم .

- لابد انها قد عرفت كل شىء .. هات التليفون .

- افطرى قبل ان يبرد الاكل .

— ليس لى نفس .

— افطرى غصب عنك .. انت فى حاجة إلى الغذاء .

وقلت فى إصرار وانا اجد لهفتى على السؤال عنك والاطمئنان عليك لا تدع لى رغبة فى اى شىء :

— هاتى التليفون يا ماما .. سأفطر عندما احس برغبة فى الأكل .

وناولتنى « امى » التليفون .. فأدرت رقم « سلمى » .. وسمعت صوتها يرد علىّ :

— آلو .

— سلمى .. انا سهير .. كيف حالكم ؟ !

وردت « سلمى » فى صوت لم تستطع ان تخفى ما به من قلق :

— الحمد لله .

— هل قرات الصحف ؟

— اجل .

— الديكم انباء اخرى ؟

— حاول ابى الاتصال بالقيادة للاطمئنان على رياض .

وماذا قالوا له ؟

— لم يعطوه انباء اكيدة بشىء .. وإن كان احد الضباط من اقربائنا قد طمانه بصفة عامة .. ولكن امى فى حالة يرثى لها من القلق .

— كان الله فى عونها .. واعاد لها « رياض » سالما .

وردت « سلمى » فى صوت خافت وهى تطلق تنهيدة قائلة :

— سلمهم الله جميعا .

واحسست انها تود ان تسالنى عنك .. ولكنها تحس شيئا من الحرج .. ربما لوجود احد بجانبها .

وصمتت برهة ثم عادت تسالنى :

— وكيف حالك انت ؟

— وقعت بالامس وانا انزل من العربة .

وصاحت « سلمى » فى جزع :
ـ كيف ؟
ـ لم ادرك ان العربة ما زالت سائرة .. فنزلت منها ولم اشعر إلا والارض تطوينى .
واستمرت « سلمى » تتساءل فى جزع :
ـ وماذا حدث لك ؟
ـ رضوض والتواء .. ولكنى بصفة عامة .. سليمة .
ـ سلامتك يا سهير .. سآتى لك حالا .
ـ بل ابقى مع أمك حتى تطمئن على رياض . إننى بخير .
ـ على اية حال سأحضر لك هذا الصباح .. وأرجو ان نكون قد اطمأننا على رياض قبل ان آتى إليك .
وقبل ان تضع سلمى السماعة سألتنى فى صوت خافت :
ـ وكيف حال حمدى ؟
ـ لا أعرف شيئا .
ـ الم تسالى ؟
ـ لا أعرف من أسال .
ـ سأسال لك انا واطمئنك .. مع السلامة .
ـ مع السلامة .
وانتهت المحادثة .. والتفت إلى أمى قائلة :
ـ لم يعرفوا شيئا بعد عن رياض .. و « ام سلمى » فى حالة قلق شديد .
ولم تستطع « امى » ان تخفى حساسيتها المفرطة للأمومة ورايت الدمع يترقرق من عينيها وهى تقول :
ـ ربنا يطمئنها .. لا يرى أما فى ضناها مكروها .
ونهضت لتدفع إلىّ صينية الطعام قائلة :
ـ كلى يا سهير .. كلى يا حبيبتى .
وبدأت اتناول الطعام لكى أريحها .

وغادرت « امى » الحجرة وهى تقول :
ـ واجب ان ازور ام سلمى وام حمدى .
ورد عليها ابى قائلا :
ـ اصبرى حتى نعرف حقيقة الانباء .. إن شاء الله سنجد فيها كل ما يطمئن .
وبعد فترة وجيزة وصلت « خالتى » .
واقبلت علىّ تضمنى فى لهفة ملأتنى إحساسا بحبها .. وبأنى كنت دائما لديها اكثر من مشروع زوجة ابن .
وصاحت بى لائمة :
ـ كيف تفعلين بنفسك هذا !! امجنونة انت ؟
ـ ظننت العربة قد وقفت .
ـ لقد كنت تبدين مرهقة طوال ليلة امس .. كيف حالك الآن ؟
ـ الحمد لله .. احسن كثيرا .
وكنت فعلا احسن كثيرا .. كان الكابوس الذى يجثم على روحى قد زال ، واقبل « ابى » على « عمتى » يحييها قائلا :
ـ لماذا اغلقت السكة هكذا قبل ان اتم حديثى ؟
ـ لقد ملأتنى جزعا على سهير .. إنها حبيبتى .. هى وحدها التى اشعر انها تشبهنى فى هذه العائلة .. أشعر انها أقرب إلىّ من هذا الجحش حسان .
وضحك ابى قائلا :
ـ اشبعى بها .
واتخذ مجلسه على المقعد وهو يسترسل قائلا :
ـ كنت اود ان احدث حسان .
ـ حسان ترك البيت مبكرا .
ـ إلى اين ؟
ـ إلى حبيبة القلب .
وهتفت انا فى جزع :

— لماذا ؟

— قال له السفرجي إنها طلبته فى ساعة مبكرة .. فارتدى ملابسه مسرعا وذهب إليها .

وقال ابى فى قلق :

— لعل شيئا قد حدث ؟

— لمن ؟

— لحمدى .

— حمدى ؟ .. ماله ؟

— الم تقرئى صحف الصباح ؟

— لم تمنحنى أنت فرصة ان افعل اى شىء قبل ان احضر إليكم .

ومدت « خالتى » يدها تتناول الصحف وهى تتساءل .

— ماذا بها ؟

ولم تكد تقرأ العنوان العريض حتى هتفت :

« معركة كبرى فى قرية التوافيق » .

والتفتت إلىّ قائلة :

— إنها القرية التى زرناها .. هل تذكرينها .. القرية التى اتمنا بدلا منها قرية ناصر الجديدة .

وهززت راسى مجيبة :

— اجل .. اجل .. اذكرها جيدا .

وقرات « خالتى » بضعة اسطر فى الصحيفة ثم القتها وتساءلت فى قلق :

— هل اتصلتم بنادية ؟

وهز ابى راسه قائلا :

— خشينا ان نتسبب فى إقلاق امها .

واسرعت « خالتى » تتناول التليفون وقبل ان ترفع السماعة دق جرسه وهتفت « خالتى » متسائلة :

— آلو .. سلمى .. اهلا .. اجل ستحدثك .

وناولتنى « خالتى » السماعة قائلة :

— سلمى .

واخذت السماعة من يدها .. ولم استطع ان اخفى لهفتى وانا اسالها :

— نعم يا سلمى .. كيف حالكم ؟

— رياض حدثنا بالتليفون .. وقال إنه بخير .

— الحمد لله .. لعل امك قد اطمانت ؟

— لقد بكت عندما سمعت صوته ، ولكنها استراحت كثيرا .. لا تتصورى كيف كان حالها .

— وماذا قال رياض ؟

— قال إنهم ضربوا اليهود علقة ساخنة .

— وماذا ايضا ؟

وادركت سلمى ماذا يمكن ان اعنى بسؤالى هذا فقالت :

— لقد حاولت سؤاله .. فقال لى إنه لا يعرف .

— كيف ؟ ! .

— انت تعلمين انهما لا يعملان فى بطارية واحدة .

واجبت فى صوت به الكثير من الخذلان :

— اجل .

واحست « سلمى » بلهجتى الخائفة .. فهتفت قائلة :

— لا تخشى شيئا يا سهير .. كل شىء سيكون على ما يرام .

وعدت اقول فى نفس اللهجة وذهنى يشرد بعيدا .. يحاول ان يعرف اين انت وكيف انت .

— ربنا يستر .

وقالت « سلمى » وهى تحس بجزعى الذى احاول ان اطويه فى نفسى :

— سآتى إليك يا سهير .
ولم أقل شيئا .. وضعت السماعة فى صمت ، وحاولت ان ابدو طبيعية لمن حولى .
كيف يمكن .. الا يعرف « رياض » شيئا عن « حمدى » ؟ حقيقة أنهما ليسا فى بطارية واحدة ، ولكنهما فى جبهة واحدة .. ومعركة واحدة .
لن يستعصى أبدا على « رياض » أن يعرف أنباء أحد ضباط سلاحه .. الذين يعملون معه جنبا إلى جنب .
لماذا لم يقل لسلمى .. إنه بخير ؟ .
لابد أنه يعرف أن شيئا حدث له ، وهو لا يريد أن يكذب .
وبدأت الوساوس تلعب برأسى .
وتناولت « خالتى » التليفون لتسأل عن حسان .
ورد عليها صوت نادية فسألتها قائلة :
— صباح الخير يا نادية .. كيف حالكم ؟
— بخير يا خالتى .
— وامك ؟
— صبرها الله .
— اين حسان ؟
— ذهب إلى القيادة .
— الم تعرفوا شيئا عن حمدى بعد ؟
— ابدا يا خالتى .
— اطمئنوا يا نادية .. لن يكون هناك ما يزعج أبدا .. دعينى أكلم أمك .
وبدأت « خالتى » تسوق كل ما فى جعبتها من وسائل الطمأنة قائلة :
— لا تنزعجى يا أختى .. كل شىء على ما يرام .. لقد علمنا أنه ليس هناك أى خسائر فى جانبنا ، وكل الضباط على خير حال .

واسترسلت « خالتى » فى سلسلة الاكاذيب المطمئنة .. واحسست انا بالطمأنينة تتسرب إلى نفسى ، وكأنى نسيت أنها لم تكن تعلم شيئا عن المعركة إلا منذ لحظات .
وحضرت إلىّ « سلمى » بعد فترة .
وكانت « سلمى » هى متنفسى الوحيد ومفرج كربى .. ولم استطع أن اصارحها بما فى صدرى حتى خلت الحجرة .
وكان أول ما قلته لها :
— ماذا قال لك رياض عن حمدى ؟
— لم يقل شيئا .
— ماذا قلت أنت ؟
— سألته .. هل يعرف شيئا عن حمدى ؟
— وماذا قال ؟
— قال لا .
— امعقول هذا ؟
— ولِمَ لا .
— اتظنين أنه إذا حدث شىء لحمدى .. فلن يعرف رياض .. وهو ضابط معه نفس المعركة ؟
وبدا التردد على « سلمى » قليلا .. ثم قالت :
— إذا كان قد حدث شىء — بعد الشر عنه — فاظنه يعرف .. وما دام لم يعرف .. فلابد أنه لم يحدث له شىء ؟
— لماذا لم يقل إذن إنه لم يحدث له شىء .
— لقد قال .
وقلت لها فى ضيق :
— ماذا قال ؟
— قال إنه لا يعرف .
— ولماذا لم يقل إنه لم يحدث له شىء ؟

واجابت سلمى فى ضيق .. وانا احاول ان اضيق عليها الخناق :

ــ كيف أعرف يا سهير .. إنى أنقل لك ما قال .

وامسكت بذراعها فى رفق .. وقلت معتذرة :

ــ متأسفة يا سلمى .

واحست سلمى بأنها احتدت علىّ ، فقالت فى لهجة رقيقة :

ــ ابدا يا سهير .. انا المتأسفة .. انا اعذرك .. ولكنى واثقة أنه بخير .. لو كان قد حدث له شىء لما اخفى على رياض .

وعدت اتأرجح بين الطمأنينة والقلق ، وقلت لسلمى فى إحدى نوبات الطمأنينة .. والسعادة تملأ جوانحى :

ــ لشد ما ظلمته امس يا سلمى ، لا تدرين كيف كانت حالى .

ــ بل ادرى .. كنت اتمنى ان افعل لك شيئا .. كنت اتمنى ان اذهب إلى الجبهة لأحضره إليك .

وضحكت قائلة :

ــ تحضرينه من اذنيه كما قال ابى !

ــ احضره فى سلاسل كالأسير ، واضعه بجوارك .. ولا افك قيده ، حتى يشده إليك المأذون .

وانطلقت اضحك فى صفاء ، وانا اتصورك فى كل هذه المناظر تساق إلىّ مرة من اذنيك .. ومرة مسلسلا كالأسير .. لا يفك أسرك .. سوى قيد ابدى يشدك إلىّ .

وقبل أن تنتهى ضحكتى .. رن جرس التليفون ، ومددت يدى إلى السماعة متسائلة :

ــ آلو .

ورد علىّ صوت « حسان » قائلا :

ــ سهير .. صباح الخير .

واجبت فى قلق ، وانا اتبين فى صوته لهجة اضطراب :

ــ صباح الخير .. ما اخبارك ؟

ــ اين ماما ؟

ــ موجودة .

ــ دعينى أحدثها .

وكانت « خالتى » قد اقبلت .. فهتفت بها قائلة :

ــ حسان يريدك .

وامسكت « خالتى » بالسماعة لتتساءل :

ــ الو .. نعم يا حسان .

ولم أعرف ما قاله .. ولكنى رايت علامات الدهشة والجزع تبدو على وجه « خالتى » وهى تهتف :

ــ من قال لك ؟

وبدات ارهف السمع علنى التقط ما يأتى من الناحية الأخرى من التليفون .

ولم استطع ان اعرف ماذا يقول حسان .. ووجدت « خالتى » تضع السماعة بعد ان تقول بسرعة :

ــ سآتى إليكم حالا .

وهتفت بها وأنا أحس رجفــة تسرى فى بدنى وتــكاد تتركنى بلا حراك :

ــ ماذا حدث ؟

ــ لا شىء .

ــ إذن إلى اين انت ذاهبة ؟

ــ إلى بيت نادية .

ــ لمه ؟

ــ لأزور ام نادية .

وعدت الح فى عصبية كشفت عن انفعالى الشديد :

ــ لماذا ؟

وردت « خالتى » فى صوت مضطرب :

ــ حمدى قد اصيب ونقلوه إلى المستشفى العسكرى بالمزة .

وحاولت جهدى ان اتمالك .. وضغطت شفتى حتى لا تنطلق الصرخة .

وحاولت ان ازدرد ريقى لابتلع الدمع الذى وثب إلى مقلتى ولكنى لم استطع . ووجدت الدمع ينزلق من عينى ، واحسست انى اوشك ان اختنق .

ودرايت وجهى نحو الحائط .. حتى لا يرى احد ما بى .

وكانت « خالتى » قد غادرت الغرفة ، وانشغل الجميـع عنى بالنبأ المزعج ، ولم يبق معى سوى « سلمى » .

وتركت سلمى مقعدها وجلست على حافة الفراش ومدت يدها تربت كتفى فى حنان وهى تهمس قائلة :

ـــ سهير .

ولم احس قدرة على النطق .. كان صوتى مختنقا .. والدموع تنساب بلا توقف .. وجسدى يرتجف .

وعادت « سلمى » تربت كتفى فى رفق وهى تنادينى :

ـــ سهير . لا تخشى شيئا .. إن الله معنا .

وعدت اعض على شفتى اكتم الصرخات التى تتعالى من باطنى .

ولم اجبها .. واخفيت وجهى فى الوسادة ، وانكمشت كانى احاول ان اتقى لطمة توشك ان تهوى على .

وحاولت جهدى ان اكتم الانفعال الشديد الذى اصابنى به النبأ المفاجىء .

كنت اخشى ان يعود احد إلى الحجرة ليجدنى على هذه الحال من الانهيار .

ومضت فترة وانا منكمشة فى الوسادة .. ارتجف وانا احاول ان الم اعصابى واشد نفسى التى احسست بها تتهاوى .. ويد سلمى تربت كتفى فى رفق دون ان تحاول ان تنطق بعد ان احست بالا جدوى من كلماتها .

واحسست بخطوات تقترب من باب الغرفة .. وقالت « سلمى » وهى تتحسس شعرى :

ـــ سهير .. يجب ان تتمالكى .

وقلت لها وانا ما زلت أخفى وجهى فى الوسادة :

ـــ لا اريد ان ارى احدا يا سلمى .

وكانت خالتى قد اقبلت لتأخذ معطفها وتخرج فى عجلة .

وساد الهدوء من جديد .. بعد ان تباعدت خطواتها وسمعت الباب الخارجى يغلق وراءها .

وعادت سلمى تربت كتفى وتقول فى رفق :

ـــ تحدثى يا سهير .. قولى شيئا .

واستدرت إليها وانا احس ان الانفعال المفاجىء قد خفت حدته ، وانى قد استعدت ـــ إلى حد ما ـــ قدرتى على السيطرة والتماسك .

ونظرت إلى « سلمى » وقلت فى صوت خافت :

ـــ احس انى أكره نفسى .

ـــ لمه ؟

ـــ كنت احاول ان افرض على نفسى مشاعر كرهه .. لشـد ما ظلمته .

ـــ لقد فعلت هذا لانك تحبينه ؟

وكانت « سلمى » على حق ، وتمنيت لو استطعت ان اراك وان احدثك .. وان انصح لك عن كل ما بى ، ان اقول لك ما اقوله لنفسى .. بلا حرج .. ولا خجل .

تمنيت وقتذاك .. ان أذهب إليك .. لاخلو بك .. واضمد جراحك .. واسامرك ، واحسست بضيق وانا اجد نفسى عاجزة عن النهوض .. وكرهت نفسى لانى تسببت فى سقطة الأمس .

واحسست « سلمى » بما يعتمل فى نفسى فقالت فى حماسة :

ـــ لن تطول رقدتك . غدا او بعد غد تذهبين لزيارته .

واحسست ان غدا .. بعيد .. بعيد .

كيف يمكن أن احتمل تلك الساعات الطوال .. دون ان اطمئن على سلامتك !

وقلت لسلمى وانا اتململ على الفراش :

— غدا .. أو بعد غد .. من يدرى .. كيف يكون ؟ !

— سيكون على خير حال .

— كيف أعرف ؟

— سأذهب إليه واطمئنك .

— ستكذبين عليّ ؟

— ابدا ..

— لقد كذبت عليّ .

— انا ؟

— اجل .

— متى ؟ .

— عندما قال لك رياض انه مصاب .

— لم يقل رياض هذا ابدا .. لقد قال إنه لا يعرف .

— إذن ستذهبين لرؤيته .. وتقولين له إنى سآتى إليه بمجرد ان اقدر على السير .

— اجل .

— وتنبئيننى كيف حاله ؟

— طبعا .

— بلا كذب ؟

— لن اكذب عليكِ ابدا .

واحسست بوقع اقدام ابى تقترب من الحجرة .. ورايتـــه يقف أمامى ، وقد ارتدى ملابســه وهو يقول :

— سأذهب لزيارة حمدى .

ولم اعرف ماذا اقول له .. ومن نظراته إلى عينى وبهما آثار الدمع .. احسست انه يعرف الكثير من مشاعرى .

ودون ان اسأله شيئا قال لى :

— إنه بخير .. وسأحمل له تحياتك .

وترك ابى الحجرة .

لقد منحنى إحساسا بالطمانينة ، لم يكن يقدر عليه سواه .

وتابعته بعينى وهو يعبر الباب بقامته الطويلة وكتفيه العريضتين .

وازدردت ريقى ، ابتلع بقايا دمع هم بأن يطفر من عينى .

وملأنى شعور بالأمان فى ظله .

ما اجمل ان تحس بإنسان يحبك .. يشعر بك .. بكل ما تحس ، دون ان تكلف نفسك مشقة .. فتح شفتيك لتنبس له بكلمة واحدة .

دم عـــربى

مضت بضعة أيام وانا راقدة فى الفراش .. التقط انباءك .. من افواه الزوار .. من الاهل والاصدقاء .

وكان « حسان » اول من حدثنى عنك .

اقبل علىّ فى الظهيرة يسالنى عن حالى وعن اخبارى .

ولم يكن لدىّ الجديد مما يقال .. وإنما كنت اتوقع ان ينبئنى هو باخبارك التى كنت اتوق إلى سماعها .

ولم اجسر بالطبع ان اساله ، ولذت بالصمت حتى يبدأ هو الحديث .

واستقر على مقعد مريح بجوارى ومد ساقه بعد ان خلع سترته وفك قميصه .. وقال وهو يهز راسه هزات بطيئة :

ــ ربنا يستر .

وقبل ان استفسر عما يقصد استطرد يقول :

ــ كان من الممكن ان يضيع .

وسرى الخوف فى نفسى وانا اعرف انه يقصدك بالضياع .. وتركزت كل مشاعرى فى اذنى وانا انصت إليه بفم فاغر وعينين محملقتين .

واردف يقول وهو يزفر زفرة قصيرة :

ــ اصابته الشظية فى كتفه فاحدثت تمزقا فى عضلات الكتف .. لو انحرفت قليلا إلى اعلا او إلى اليمين لاصابت عنقه او صدره ، ولكن ربنا لطف به .

واحسست برجفة تسرى فى بدنى .. تثلج اطرافى .. وتصيبنى بالغثيان .. وانا اتصور الشظية تمزق كتفك .

وتساءلت فى صوت خافت .. وانا اتهاوى فى فراشى :

ــ اهناك خطورة عليه ؟

وكان « ابى » قد اقبل من الباب .. وقبل ان يرد « حسان » هتف مطمئنا :

ــ بالمرة .. لقد تركناه فى خير حال .. كل ما اصابه جرح فى كتفه .. لا يلبث ان يندمل .

وعاد « حسان » يزفر فى اسى قائلا :

ــ ليس عليه خطورة .. لقد لطف به الله .. إن جرحه لا يلبث ان يندمل .

وصمت برهة ثم اردف قائلا :

ــ ولكن الجرح الذى فى جسدنا جميعا .. ما زال ينز .. الشظية التى اصابت « حمدى » بالامس .. ستصيب غيره غدا .. إن المشكلة لم تعد مجرد ارض مسلوبة او عرب مشردين .. إنما هى خنجر مغروز فى جانبنا .. إما ان ندفعه عنا .. او يصل إلى قلبنا .. إما ان نلفظه ، او يقضى علينا .

ولم استطع ان اشارك « حسان » تفكيره .

كان تفكيرى محصورا فى نطاق ضيق .

جرح الوطن العربى لم يكن شاغلى الشاغل وقتذاك .. إنما هو جرحك انت .

وعدت اسال « ابى وحسان » علهما ينبئانى بما يهدىء خوفى عليك .

ظلت اتساءل فى صوتى الخافت المضطرب :

ــ اهو فى وعيه ؟

ورد « ابى » مؤكدا :

— طبعا .. لقد تحدث إلىّ .. وسالنى عنك ، واعتذر عن غيابه من الحفل .

وقال حسان :

— كان فى عز المعركة .. لقد اكد لى أنهم اعطوهم علقة ساخنة .. لن ينسوها ابدا .

واقبلت علينا « امى » وهى تقول :

— ربنا لا يعيدها .. ولا يرى احدا مكروها فى ضناه .

وجلست على احد المقاعد وهى تتنهد قائلة :

— ربنا لطيف .. مسكينة ام حمدى .

وسالتها فى إشفاق :

— الم تطمئن عليه ؟

— حتى اطمانت .. كان دمها قد جف .. منذ ان بلغت بإصابته حتى راته فى فراشه .. كانت فى عداد الموتى .

وقلت استدرج « امى » علها تمنحنى مزيدا من الطمانينة :

— وكيف راته ؟

— الحمد لله .. ربنا سلمه .. لقد كان بادى الإعياء .. مصفر الوجه .. ولكنه فى كامل وعيه .. لقد تحدث إليها وطمانها .

وهكذا اخذت التقط انباءك فى اثناء رقدتى ، والتقطت من خلالها سؤالك عنى .. حتى استطعت النهوض او على الاصح حتى عزمت على النهوض .

وفى قرارة نفسى .. كنت اتوق إلى النهوض من اجلك ، ولكن كان على ان اتذرع باشياء كثيرة لكى اجعل مغادرتى الفراش امرا طبيعيا .

وبدات اؤكد ان ساقى قد شفيت .. وانى قد ضقت ذرعا بالرقدة ؛ وان محاضرات كثيرة ستفوتنى فى الكلية .. ولابد من الذهاب حتى لا يضيع العام على .

وذات صباح تركت الفراش فعلا ، واخذت فى ارتداء ملابى كى اضعهم امام الأمر الواقع .

وتناولت الإفطار وذهبت إلى الكلية .

ودهشت « سلمى » من حضورى .. واقبلت علىّ فى فرحة تقول :

— حمد الله على السلامة .. اشفيت ساقك تماما ؟

واجبت ضاحكة وانا احس ببعض الألم فى مفصلى .. وانا اسير :

— تقريبا .

وتساءلت « سلمى » فى ضيق :

— لماذا تعجلت النهوض ؟

واجبت وانا اسير بجوارها متجهين إلى مبنى الكلية وقد احسست بريح الصباح البارد تلسع اطرافنا :

— ضقت بالرقدة .

وبدا لى ان « سلمى » اقرب إلى قراءة افكارى منها إلى تتبع الفاظ حديثى .. فقد تساءلت ببساطة :

— ما هى اخباره ؟

ولم اشك ان السؤال عائد عليك .. .. برغم انها لم تذكر اسمك .. فقد كنت تشغل ذهنى وتتذاك .. كيف سادبر امر زيارتك .. وكيف ساجدك ، وماذا ساقول لك ؟

واجبتها بنفس البساطة التى سالتنى بها عنك :

— الحمد لله .. اظنه يتحسن .

— متى تنوين زيارته ؟

— ربما اليوم .

— ربما ؟

— اعنى ارجو ان استطيع زيارته .

— وماذا يمنعك ؟

— اريد ان يصطحبنى احد .

— اصطحبك انا .

— واريد ان اخبرهم فى البيت .

وضحكت « سلمى » قائلة :

— إذا أخبريهم .. لا أظن أحدا سيعترض على زيارتك لمريض .
— بالطبع لن يعترض أحد .
وكانت المسألة فعلا أبسط مما أتصور .
لقد كانت مجرد زيارة مريض .. بالنسبة إليهم .
ولكن هل كانت كذلك .. بالنسبة إلىّ ؟ !
قطعا .. لا .
لقد كانت زيارتك .. تتضمن بالنسبة إلىّ .. أشياء كثيرة .. كبيرة .
كانت لقاء الغائب .. الذى كدت أيأس من لقائه .
متى كان آخر لقاء بيننا ؟
بعيد .. بعيد .. فى سهرة بيتنا .. حين قطعنا الياسمين .
وسمعنا « أسهار » .
فكأنى به .. من فرط بعده .. قد أضحى تاريخا .
وارتميت بعده فى ظلمات اليأس ، والشك .
اليأس من لقائك ، والشك فى أمرك .. شكا ظل يزداد حتى بلغ حد اليقين من ضياعى عندك .. إن كان لى فى لحظة من اللحظات وجود فى نفسك .
واكتشفت بعد ذلك ظلمى إياك .
وأحسست أنى انتشلت من هوة اليأس والضياع .
وكان علىّ أن أتاك لأؤكد ذلك لنفسى ، وأؤكده لك .
كان لقاؤك إذا .. شيئا أكثر من مجرد زيارة مريض .
من أجل هذا كنت أحس له برهبة ، وخشية .
وكنت أتخيل الناس كلهم يرونه كما أراه .
والتقيت بنادية بعد ذلك فى بهو الكلية .. وهى تغادر إحدى قاعات المحاضرات .. وأقبلت علىّ فى لهفة وفرحة تتساءل :
— سهير .. كيف حالك ؟
— الحمد لله .

— هل شفيت ساقك ؟ !
وعدت أكرر : « الحمد لله » .. وأنا أبحث فى ذهنى عن منفذ إلى الحديث عنك وتدبير أمر زيارتك .
ولكنها كانت أسرع منى فى إيجاد المنفذ ، وتدبير الفرصة .. فقد قالت فى حماسة :
— سيسر حمدى كثيرا برؤيتك .
وسرت بجوارها تجاه حجرة الأساتذة ، ووجدتها تميل برأسها إلىّ هامسة :
— أتعرفين أنه كان عاتبا عليك لعدم زيارتك إياه ؟
وأحسست بسعادة وأنا أسمع نبأ عتابك علىّ .. وقلت أتساءل فى دهشة :
— ألم يخبره أحد بأنى راقدة ؟
— فى أول زيارة .. لم تكن هناك فرصة لإخباره .. كان فى حالة إعياء شديد ، وكنا فى قلق عليه ، ولم نستطع أن نطيل الحديث معه .
ونظرت إلىّ نادية بطرف عينيها نظرة ماكرة واسترسلت تقول :
— ومع ذلك فقد أحسست أنه يبحث بيننا عن شىء ، وأن فى عينيه نظرة حيرة وقلق .
وتملكتنى نشوة وأنا أحس أنى ذلك الشىء الذى بحثت عنه فى رقدتك ، ورفعت عينى إلى شفتى أختك ألتقط منها المزيد من الحديث عنك .
وتوقفت « نادية » أمام باب الحجرة وقالت وعلى شفتيها ابتسامة عريضة :
— فى المرة التالية .. لم أكد أنحنى للسلام عليه حتى همس فى أذنى .. أين سهير ؟
وهتفت بلا وعى :
— وماذا قلت له ؟

— قلت بأنك اصبت بالتواء فى قدمك فى نفس الليلة التى اصيب فيها .

وبذهن شارد انطلق يبحث عنك فى رتدتك .. عدت اتساءل فى شيء من البلاهة :

— وماذا قال ؟

— بدا عليه الاسى ، وسألنى ان ابلغك تحياته .

وتساءلت وما زال ذهنى يشرد وراءك :

— متى تنوين زيارته ؟

— بعد الظهر .. بمجرد الانتهاء من المحاضرات .

— استطيع ان اذهب معك ؟

— طبعا .. سامر عليك مع « حسان » لآخذك من البيت .

وقبل الرابعة كانت عربة « حسان » تتجه بنا فى طريق المزة إلى المستشفى العسكرى .

ووقفنا أمام المبنى العتيق الموحش ، وقد بدا سجن المزة على مقربة منه .. وكان البرد يجمد الأطراف .. وشعاع الغروب الاحمر الذى تسلل من بين السحب المكدسة فى صفحة السماء يبدو خافتا مرتجفــا كمصابيح آخر الليل .. وشجرة جافة جردها البرد كل ما تملك من مظاهر الحياة .. قد وقفت تصارع الريح فى تخاذل يائس ، وعواء كلب يأتى من بعيد ليملأ النفس وحشة وانقباضا .

وضممت المعطف حول جسدى و جذبت طاقية الصوف فوق اذنى ، وعبرت المر المفضى إلى الباب الداخلى وراء « نادية » .

ووقفت فى البهو السميك الجدران ، الذى توسطته مدفأة غاز بعثت فى جوانبه بعض الدفء ، واضاءه مصباح كهربائى تدلى من سقفه المرتفع .

وانتظرنا هنيهة حتى اقبل « حسان » بعد ان وضع العربة جانبا ، ثم اتجهنا إلى حجرتك .

ولم ادر سببا لتلك الرهبة التى ملأت نفسى وتتذاك ، والتى بددت الإحساس باللهفة عليك والفرحة بلقائك .

اهى ذكريات الأيام المريرة التى قضيتها فى مستشفى لندن والتى اثارها مجرد وجودى فى جو المستشفيات ؟ أم هو منظر المستشفى الموحش بكل ما يحيط به من كآبة ووحشة ؟ أم هو فرط الانفعال الذى يتركنا وقد اختلطت فى نفوسنا الأحاسيس وتضاربت المشاعر حتى لم نعد ندرى بماذا نحس ولا ماذا نرجو .

وكنت قد نظرت إلى نفسى فى المرآة طويلا قبل ان اغادر البيت لأطمئن على صورتى التى سألقاك بها ، ودفعنى التفاؤل أو الغرور إلى الإحساس بالرضاء التام عن نفسى ، ولكنى لم اكد اجتاز الفناء البارد وادخل إلى البهو ، وقد ضممت المعطف ولبست طاقية الصوف الشبيهة بالطرطور وقد خلت نفسى جميلة عندما ارتديتها وانا اغادر البيت ، ولكن لم اكد اقترب من حجرتك حتى احسست انى كئيبة .. كئيبة .. وزاد إحساسى بالعرج وتعالت طرقات قدمى على الأرض ، وانا اوشك ان اجتاز الباب إليك .. ووددت لو استطعت النكوص على عقبى والفرار إلى البيت .

اجل .. لقد تزايد فى نفسى إحساس الخــوف من لقـائك لغير ما سبب .. سوى فرط الانفعال حتى غلب على كل إحساس آخر ، وجعلنى اتمنى فعلا .. لو استطعت الفرار منك .

وكانت افكارى فى ناحية ، وقدماى فى ناحية اخرى ..

كان الذهن بكل ما به من اوهام ومخاوف .. يحاول أن يعدو بى خارج المكان العتيق الموحش ذى الجدران السميكة العالية ، وكانت قدماى تخطوان الخطوات الأخيرة لتسوقانى إليك ، وتضعانى وجها لوجه امامك .

ولم اكد ابصرك .. حتى تطايرت المخاوف .. وتبددت الأوهام .

نظرتك اللهفى ، وعلائم البشر والفرحة التى نطقت — أو صرخت — بها تعابير وجهك .. وكيف هتفت باسمى لما ان وقع بصرك علىّ .

لم تدع لى مجالا .. لضيق او شك .. او اى إحساس بالخوف او التشاؤم .

كنت تجلس على مقعد كبير مريح .. وقد شدت ذراعك المصابة إلى جسدك .. وبدا عليك الاسترخاء والشرود .

واقبلت عليك مندفعة فى لهفة لا يحد منها حياء او تردد ، وشددت على يدك السليمة وابقيت يدى فى يدك .

وأحسست ان كلا منا قد احتاج لبعض الجهد .. لكى يقصر تحيته على مجرد المصافحة .

ولو تركت نفسى اتصرف ببساطة .. لضممتك إلىّ .. ووضعت راسى فى صدرك ، وبكيت طويلا .

واحسست من عينيك .. بنظراتهما اللهفى ، ومن كفك .. بضغطها الرقيق الحنون .. كانك تضمنى .

وقلت لى فيما بعد .. إنك اوشكت ان تضمنى .. لولا بقية من حياء وتردد .

واحسست ان كل ما بى من حواس ، يهم بان ينطق ليقول لك شيئا .. عدا .. لسانى .. فقد بدا حائرا .. بين شفتى .. لا يعرف ماذا يقول .

وكنت اقدر منى على النطق . فقلت فى حنان :

ــ حمد الله على السلامة .

واجبتك ابسط إجابة يمكن ان ينطق بها لسانى الحائر :

ــ حمد الله على سلامتك انت .

وسلمت على « نادية وحسان » ، وسالتنا ان نجلس .

وجلسنا حولك . وخيم الصمت لحظة .. فقد عجز كل منا ان يقول للاخر ما يمكن ان يفصح عن حقيقة مشاعره .

لم يكن الكلام ــ حتى هذه الساعة ــ وسيلتنا إلى التفاهم .

كانت النظرات اقصى ما بيننا من وسائل التعبير .

والكمات الحلوة .. التى ما زلت اذكرها .. كبارقات امل تضىء

حياتى فى ظلمات اليأس .. لم تكن أكثر من تلميحات من جانبكَ .. لم تصل أبدا إلى حد أحاديث الأحباء أو مناجاة العشاق .

وقطع الصمت قول « نادية » لك :

ــ كانت سهير عاتبة عليك لعدم مجيئك يوم الفرح .

ورددت انا ضاحكة :

ــ لم اكن أتصور قط أنه يخوض معركة .

ورحت انت تنظر فى عينى ، نظرتك الحلوة المعجبة :

ــ ما كان يمنعنى عن الحضور شىء اقل من معركة .

وصمت برهة كانك تستعيد المعركة فى ذهنك .. ثم استطردت قائلا :

ــ كانت معركة هائلة .. كنا نتوقعها بين حين وآخر .. فقد داب اليهود على مناوشتنا لجس نبضنا بين آونة واخرى ولقد بداوا يدفعون بجراراتهم لزراعة الأرض المنزوعة السلاح تحت حماية المصفحات الإسرائيلية .. مخالفين بذلك قرارات الهدنة ، لا سيما وان هذه الاراضى كان يمتلك العرب الجزء الأكبر منها ، ولم يكن فى قرية التوافيق سوى بعض السكان .

ونظرت إلىّ متسائلا :

ــ اظنك زرتها عندما اتيت للجبهة ؟

وهززت راسى بالنفى قائلة :

ــ زرت قرية ناصر الجديدة ، ورايت التوافيق من بعيد .

ــ لقد نقل معظم سكانها .. ولم يكن قد بقى فيها سوى بعض السكان ، ولم نكد نعلم من المخابرات نوايا اليهود .. حتى أخليناها منهم ، ولم يبق بها سوى جماعة من المقاومة الشعبية ، وجلسنا نرقب الانق فى مواقعنا ، وادلهم الليل ...

وهززت راسك ، وقد شرد بك الذهن .. إلى ارض المعركة ، واردفت تقول :

— كانت ليلة عجيبة .. استمر السكون حتى منتصف الليل ، وكدنا نغفو فى مواقعنا .

ونظر « حسان » إليك باسما وانت تتحدث فى اهتمام .. وقاطعك قائلا :

— إذا كنت تنوى وصف المعركة ...

وابتسمت وقلت ضاحكا .. فى شبه اعتذار :

— إنها ملء ذهنى .. لقد اكلها اليهود ساخنة .

واجاب « حسان » مازحا :

— اليهود اكلوها مرة وانتهوا .. الدور علينا نحن .. ناكلها فى كل زيارة .. هذه رابع مرة .. اسمع وصفها .

ورددت انا فى حماسة :

— انا اريد ان اسمعها .

واجاب « حسن » وهو يجر « نادية » من يدها :

— اسمعيها وحدك إذا .. سنعود إلى سوق الصالحية لنلحق المحلات قبل ان تغلق وسنعود إليك قبل مضى ساعة .

ونهضت « نادية » معه واتجها إلى الباب غير ملقيين بالا إلى قولك معترضا :

— ابقيا ، ولن اقول كلمة عن المعركة .

ورد « حسان » وهو يختفى وراء الباب :

— لابد أن الحق الترزى ، ونادية تريد شراء بعض الأشياء من السوق .. لن نغيب عنكما .

وهكذا بدا ان الامر سبق تدبيره بين « حسان ونادية » وان تركنا وحدنا .. كان خطة مرسومة .. عرف « حسان » كيف ينفذها بطريقة غير مفتعلة .. فقد كان خروجهما طبيعيا وحاسما .

ومرت فترة ارتباك قصيرة .. لم يعرف احدنا ماذا يقول ، ولذنا بالصمت نستمتع خلالها .. بمجرد الإحساس بأننا بتنا وحدنا .. واننا نستطيع ان نقول كل ما نريد .. إن جسرنا على قوله .

واستعدت لنفسى كل ما مر بى منذ آخر لقاء .. كل ما قاسيته من بعدك .. وما ساورنى من شك فيك ويأس منك ، وتمنيت ان احكى لك كل شىء ، واسمع منك كل شىء .

تمنيت ان اذكر لك موقعك عندى ، وان اعرف منك موقعى عندك .. من شفتيك ، واضحا .. جليا .. لا بالنظرات ، ولا التلميحات .

ليس أمتع لمن يحب من ان يسمع من شفتى صاحبه .. انه يحبه .

ولم اك اعرف هل كنت تجرؤ على قولها لى ؟

انا نفسى لم اكن اعرف كيف اقولها .

الحروف ذاتها تبدو ضئيلة .. باهتة .. خافتة الرنين .. إذا قيست إلى ضخامة الحدث فى قلوبنا .. واضوائه المشعة حولنا ، ورنين اجراسه المتردد فى حنايانا .

ولكن شيئا ما .. من شفتينا .. لابد أن تكون له القدرة على ان يعبر عن كل ذلك .

اللهم اعنى على وصفه ، ويسر لك شرحه .. إن كان له وجود عندك .

فما اشوقنى .. إلى ان أحدثك عنه ، وما أشد لهفتى على أن اسمعه منك .

وخفت وقع الاقدام المتباعدة خارج الغرفة .. واحسست بأنك تنظر إلىّ ، وسحبت بصرى من النافذة الزجاجية وقد شحب الضوء من ورائها ، ونظرت إليك .

والتقت نظراتنا الذائبة اللهفى .

ومددت كفك .. تسألنى كفى فى صمت ناطق .

ووددت لو وضعت فى كفك شيئا اكبر .. وددت لو و ضعت فيه

الروح المصطخبة بالأحاسيس بين جوانحى ، ولكننى لم أملك أكثر من أن أمد كفى إليك .. لتستقر فى كفك .

وسحبتها ببطء إلى وجهك .

ولم تقبلها .. بل مسحت بها على شفتيك .. وخدك ، وجبينك .. وعينيك .. وظللت تضغط بها برفق على وجهك وأنت مغمض العينين .. وبدوت كالعابد .. وقد استغرق فى عبادته .. ونسى كل شىء من حوله .. وانطلقت من صدرك تنهيدة حارة أشبه بالآهة الصامتة .. وهبطت بكفى من فوق وجهك لتسندها إلى كفك فوق ركبتك .. ونظرت إلىّ وهززت رأسك ببطء وهمست فى صوت خافت كأنك تحدث نفسك :

— جميل .. أن يبقى الإنسان حيا .. ليلقى ثمن جهده .

وصمت برهة .. وعدت تطلق تنهيدتك التى بدت وكأنها تمنحك الكثير من الراحة والاسترخاء .

وعلت شفتيك ابتسامة رقيقة ، وعدت تهمس قائلا :

— الحياة وحدها .. مجرد الحياة .. لا يكفى .. بغـير هذه الومضات التى تشع لتلقى الضوء فى جوانبها .. وتبهرنا بكل ما فيها .. من جمال .. تصبح الحياة والعدم سواء .

وضغطت كفك على كفى وأنا أحس أنى أحلق فى أجواء وردية اللون .. حلوة الترنيم ، وتمنيت أن تتحدث وتتحدث .

كانت كل كلمة تنبس بها شفتاك .. تغريدة .. لها فى القلب ترديد .

واستطردت تقول وأنت تنظر فى عينى وتضم كفى فى كفك :

— عندما دوى الانفجار بجوارى .. ومددت يدى إلى كتفى لأحس بلزوجة الدم الساخن ينبثق من كتفى .. تذكرتك .. تذكرتك فى أسى .. وتمنيت أن أراك .. لأسر لك بأشياء كثيرة .. عجزت دائما عن قولها لك .. وبدت لى الحياة عزيزة .. من أجلك ، وعندما أفقت من غيبوبتى .. هنا .. على هذا الفراش .. أحسست بفرحة ، لأنى ما زلت أحيا .. ولأنى سأراك ، وعندما أقبلوا علىّ ، افتقدت وجهك بينهم ..

وأحسست بالمرارة .. وأنا أبحث عن عينيك بين كل العيون المطلة علىّ .. فلا أجدك .. وأصابنى إحساس أليم بالخيبة والخذلان ، وضقت برقدتى ، وحياتى .. حتى اقتربت منى « نادية » فسألتها عنك .. وأنبأتنى أنك راقدة لالتواء قدمك ، وتمنيت لو عدوت من الفراش .. لأجلس بجوارك وأمسك يدك ، وأحدثك . كثيرا .. كثيرا .

ونظرت إلى عينيك وتمنيت أن يتجمد الزمن .. لم أشعر أنى أريد من حياتى أكثر مما أعطيت فى تلك اللحظة .

وقلت لك هامسة :

— إذا كنت قد جعلت لحياتك قيمة .. فقد منحتنى أنت الحياة .. الحياة بمفهومها الحقيقى .. لقد منحتنى الجرأة لأن أطرق بابها .. بعد أن كنت أكتفى بالسير على هامشها .

وبدأت تستمتع بدورك بما أقول ، ورحت تستدرجنى لتأخذ المزيد .. وقلت لى وأنت تنظر إلىّ كالطفل يطلب المزيد من الطعام :

— وماذا أيضا ؟

وتنهدت وأنا أهز رأسى هزات بطيئة قائلة :

— وماذا أيضا ؟ ! .. أشياء كثيرة .. لا أعرف كيف أقولها لك .. لشد ما عذبتنى .

— أنا ؟ !

— أجل أنت .

— متى ؟

— منذ آخر لقاء لنا فى بيتنا .. حتى هذه الساعة .

— كيف ؟

— غيابك الطويل .. أنبت فى نفسك الشك ، وأضـاع من نفسى الإيمان بكل شىء .

— مجرد الغياب يفعل بك كل هذا ؟

— ليس مجرد الغياب .. وإنما هى الحيرة والضياع .. خلتك فى لحظة من اللحظات تحاول تجنبى .

ورفعت يدى وضغطت بها على شفتيك وقلت فى اسى :

— انا احاول تجنبكَ ؟

واستطردت انا اقول :

— وتتعمد الهرب منى .

— لِمَ ؟

— تراجعا مما تورطت به معى .

وتساءلت وابتسامة عريضة ترتسم على شفتيك :

— تورطى معك ؟

واطلقت تنهيدة صغيرة ، ثم استطردت تقول :

— إنى لم الم نفسى ساعة الخطر إلا لانى لم اتورط معك .. لقد تمنيت لو قلت لك شيئا .. تمنيت لو حدثتك بشىء مما اشعر ، وكرهت نفسى لانى مخلوق عاجز لا اعرف كيف اعبر عما احس به .

وعدت تهز راسك فى دهشة .. وتسألنى قائلا :

— وماذا ايضا ؟

— وماذا يمكن ان يكون شرا من هذا ؟ لقد ضعف إيمانى بكل شىء .. لقد ملأتنى إحساسا بالمذلة .

وبدا الاسى على وجهك وانت تضغط على يدى قائلا :

— انا فعلت بك هذا ! ؟

— ظننت انك فعلته ؛ ولكنى ظلمتك واسأت الظن بك .. لقد ظننت انك لم تأت ليلة الفرح لتتحاشى لقاءك بى .

— إلى هذه الدرجة ؟

— لا يمكنك ان تتصور يأسى تلك الليلة .. لقد هانت علىّ الحياة .

— كان يجب ان تكونى اكثر إيمانا بى من هذا .

— إيمانى بك لا حد له .. ولكنى كنت افتقد إيمانك انت بى .

— وما زلت تفتقدينه ؟

وهززت راسى ببطء دون ان انبس بكلمة .

وتساءلت فى رقة :

— برغم انى لم اقل شيئا ؟

— لقد قلت اشياء كثيرة .

— لم اقل كل ما اريد .

— ولا انا .

— كم اتمنى لو استطعت قوله . إنك تعنين لى اشياء كثيرة فى هذه الحياة .. اكثر مما كنت اتصور من مخلوقة ان تعنيها .

وتمنيت لو استرسلت فى كلامك .. تمنيت لو قلت الكلمة الحلوة .. التى اخشى ان اقولها .. واتمنى ان اسمعها .

ولست ادرى ما إذا كان من الممكن ان تنطق بها .. فقد قطع حديثك دخول الخادم يحمل العشاء .

وجذبنا دخوله من فوق السحب الوردية التى رحنا نحلق فوقها ، وشدنا إلى ارض الغرفة السميكة الجدران .. العالية السقف .

وصمت عن حديثك الرقيق الحالم ، ورحت ترقب الخادم يرص صحاف الطعام فوق المائدة الصغيرة .

وكان عليك ان تقول شيئا تتم به الحديث حتى لا يبدو دخوله وكأنه قطع علينا حديثا لا يصح الجهر به امام الغير .

ولم يكن امامك غير حديث المعركة التى طردت به « حسان ونادية » .. والذى قطعه سيل المشاعر الذى جرفنا عندما وجدنا انفسنا وحيدين ، واتيحت لنا فرصة الكلام التى حرمنا منها منذ آخر لقاء فى بيتنا .

وقلت ببساطة وكأنك تتم معى الحديث الذى كنت تقوله لى عندما دخل الخادم :

— كانت ليلة عجيبة .. لن تمحى صورتها من ذاكرتى . كان الليل قد انتصف .. والسكون قد ساد .. والنوم قد بدأ يتسلل إلى جفوننا فى المواقع .. عندما سمعنا الدوى يتوالى بعنف ، وادركنا ان مدفعية اليهود وهاوناتها قد بدأت تدك قرية التوافيق لتستر تقدم مشاتهم ودباباتهم ، وكانت مدافعنا على اهبة الاستعداد .

وجذبت من فوق دولاب صغير نوتة وقلما ، وبدأت تخطط لى مواقعكم

ومواقع اليهود .. وكأنى قائدة عسكرية ، ورسمت لى الحدود وبحيرة طبرية ونهر اليرموك .. وقرية التوافيق وقرية ناصر .. وكنت اذكر المنطقة جيدا ، وبدات تضع مواقع مدفعيتنا .. ومواقع مدفعية العدو . ثم اخذت ترسم سهما يبين تقدم اليهود ثم سهما آخر يبين الهجوم المضاد لقواتنا .. واسترسلت تقول فى حماسة :

— وانطلقت مدافعنا لتدق مصفحات العدو .. وتدمرها شر تدمير .. ثم بدأ التركيز على المستعمرات الإسرائيلية المجاورة فاصبحت شعلة نار .. حتى أصبح الليل كتلة من الجحيم ، وعلى ضوء الفجر تقدمت كتيبة المشاة المرابطة هنا .. فاشتبكت مع القوات الإسرائيلية المعتدية ، ودحرتها وطردتها من الارض المزروعة تاركة وراءها مصفحاتها المحترقة .. واحسست والشمس ترسل شعاعها وقوات اليهود ترتد مهزومة اننا فعلنا شيئا اكثر من مجرد معركة .. لقد بدت وحدة جيوشنا العربية رائعة .. لقد امتزج دم المصرى بدم السورى .. ليؤكد وحدة المصير .. وعندما دوى الانفجار بجوارى .. قبيل انتهاء المعركة .. واحسست بالدماء تنزف من كتفى .. وبالضياء يخبو من عينى ، واحسست بشبح الموت يقترب منى .. لم اشعر ابدا انى اموت فى ارض غريبة .. واحسست انى اموت بارضى ، وادافع عن اهلى .. لقد محا الدم الممتزج فى المعركة كل إحساس بان هناك مصريا وسوريا .. بل هناك عربى يخوض معركة المصير .. ومعركة المستقبل .

واحسست أن حديثك الذى بداته لتدير به دفة حديثنا الخاص .. أمام الخادم .. قد اخذ يتدفق من اعماقك .

ونظرت فى عينيك ، واحسست بك مخلصا فى كل شىء ، مخلصا فى مشاعرك الخاصة .. مخلصا فى مشاعرك العامة .

وتمنيت لو امسك كفك وارفعها انا إلى شفتى ، ولكن الخادم كان ما زال يتسكع حول المنضدة .

واقبل « حسان ونادية » فى شىء من العجلة .

وقالت نادية :

— تاخرنا عليك ؟ !

وهززت راسى وقلت بإخلاص :

— ابدا .

وقال « حسان » ضاحكا وهو يرى الرسم الذى خططته على الورقة :

— انتهيت من شرح المعركة ؟

واجبت ضاحكا وانت تشير إلى الرسم :

— شرح بالرسم .

— يجب أن يعينوك مدرس تاريخ عسكرى .

وضحكت قائلا :

— لقد كنت !

— من اجل هذا تحب شرح المعارك .

واردفت « نادية » قائلة :

— وخوضها .

وقال « حسان » وهو يشد على يدك :

— هيا بنا .. سناتى إليك غدا .. اتريد شيئا ؟

وقلت وانت تنظر إلىّ نظرتك التى تشعرنى بالضم :

— متشكر .

واجبت على نظرتك مؤكدة :

— سازورك معهم غدا .. إن لم يضايقك .

واجاب « حسان » فى خبث :

— يضايقه جدا .. إنه يريد زبائن جدد يشرح لهم المعركة .

وشددت على يدك مودعة .

وعدت إلى البيت .. ملء نفسى إحساس بأن الحياة .. رحبة .. رحبة .. والطريق واضح .. واضح .. والافق مشرق .. شديد الإشراق .

سيدة النـــاس

عشت بعد لقائك فى المستشفى اجمل ايام عمرى .

وكدت اكتفى من حياتى .. ومن آمالى .. بذلك القدر من السعادة الذى وهبته .. حتى لم اعد اطلب اكثر مما حصلت عليه .

لقد وصلت إلى حال من الاكتفاء والتشبع .. بحيث كدت استغنى عن كل شىء .. حتى انت .

مبالغة مضحكة !! .. اليس كذلك ؟

ولكنها .. كانت ـ إلى حد ما ـ إحساسى وقتذاك .

لقد تركت باب حجرتك وملء نفسى إحســـاس عجيب بالســـكينة والطمانينة .

اخذت من حياتى .. اكثر مما كنت احلم به ، واطمع فيه .

اخذت حبك الواضح الاكيد .

وكان علىّ ان اختطفه .. واعدو به .. لاخبئه فى صدرى ، واقيه عاديات الزمن .. وعيون الحساد .

ـ لا اريد اكثر منه .. ابدا .

ضمة يدى فى كفك .. ومسها شفتيك .. وجبينك وعينيـــك . وضغطها وجهك ، وتنهيدتك الطويلة .. الحارة .

كل هذا قد عبر عن اشياء عجيبة .. ما اظن الكلام .. اى كلام .. كان يمكن ان ينبىء عنها .. او ينقل حرارتها وعمقها وإخلاصها .

تركتك ليلتذاك وانا املك رصيدا من السعادة .. كان له ان يغنينى عنك .. انت نفسك .. اصل هذا الرصيد .. ومنبع تلك السعادة .

واحسست انى اريد ان احدث إنسانا عن كل ما لقيت .

عنك .. وعن افعالك .. واقوالك .

ولم اجد احدا احدثه .

فاستلقيت فى الفراش ، مفتوحة العينين .. واخذت استعيد ما قلت لى .. كلمة .. كلمة .. واغمضت عينى .. لارتع فى احلامى معك .

واستيقظت فى الصباح لافكر فيك من جديد .

وفى اول فرصة سانحة .. ورغم إحساسى بالاكتفاء بكل ما لقيت منك .. وجدتنى اعدو لزيارتك .

وبدانا مرحلة جديدة من علاقتنا معا .. واتخذت صلتى بك مظهرا اكثر وضوحا ، وبدانا نسلم لانفسنا .. وسلم لنا من حولنا ببعض الحقوق .. التى لا يعرف احد من اين استمدت وجـــودها ، ولا على اى اساس سلم بها .

قد يكون الإحساس باننا مصابان .. يجد كل منهما فى الآخر .. نوعا من العزاء والراحة .

وقد يكون التسليم بانها بداية .. شىء جاد .. يمكن ان يربطنا معا .

وقد يكون إحساسا فرضناه نحن على من حولنـــا ، نابتـــا من شعورنا العميق .. المستقر فى صدورنا ، والذى لابد قد نم عليه .. مظهرنا .

المهم .. ان الناس قد سلموا لنا به .

سلموا لنا بان ازورك واجلس بجوارك ، ونتحادث معا .. دون ان يشاركنا احد الحديث .

سلموا لنا بان اطلبك فى التليفون واسال عنك ، واخبرك انى سآتى إليك واحضر لك كذا .. وكذا .

سلموا لنا بان تسال عنى فى التليفون .. فيحضروا إلىّ التليفون فى الحجرة ، ويدعونى احدثك كما اشاء .. دون اى تعليق .. ينم على الضيق او الحرج .

وخرجت من المستشفى .

وتعددت زيارتك لنا .. زيارات بغير دعوة ، وبدون استعداد .. وعلى غير موعد .. كما يفعل اقرب الاقرباء ، واصدق الاصدقاء .. وسهرت معنا .. وتعشيت عندنا العشاء البسيط الذى نتناوله .. دون ان تتزعج « امى » لانها لم تصنع لك وليمة .

واذكر اول مرة زرتنا بعد شفائك .. وكانت بشاير الربيع قد حلت .. بنسمة دافئة تتسلل خلال ريح الشتاء المدبرة .. وبراعم خضر تنبت على الغصون .. كأنها تتاؤب اليقظة بعد طول سبات .

واسمعتك « اسهار » بلا زوار .. وجلست تنصت إليها بنشوة عجيبة .. و « امى » جالسة على بعد خطوات تعمل بإبرتيها اللتين لا تجلس بدونهما .

قلت لى هامسا :

— هذه الاغنية تمس شيئا فى باطنى .

ورددت عليك فى صوت خافت :

— إنها اكثر من اغنية .. إنها شريط مصور .

— يعرض علينا اجمل الذكريات .

— اهى عندك كذلك ؟

— اتسالين للمعرفة ؟

— بل للاستمتاع .

— كل ما له علاقة بك .. يشكل فى نفسى اجمل ذكرياتى .

ودق جرس الباب ، واقبل « ابى » يرحب بك ويطلب العشاء .. وبدا على « امى » الحرج .. وهى تعلم أن « ابى » لا يستطيع ان يتناول العشاء بغير مشاركتك .. وتعلم كذلك انه ليس عندنا ما يستحق ان يقدم لك كدعوة عشاء .

وراى « ابى » التردد البادى على « امى » وادرك انها ستدخل إلى المطبخ .. وترسل إليه « الخادمة » فتدعوه إليها لتخبره انه ليس لديها عشاء لائق .. وتطلب منه ان يرسل السائق او يهبط هو لكى يشترى قائمة تعدها له .

وحتى لا يدع الفرصة لها لكى تدبر امرها .. قال ضاحكا :

— لا تقولى ليس لديك ما يستحق ان يقدم لضيفنا .. حمدى اضحى واحدا من الاسرة . سيأكل معنا ولو مجدرة .

وهزت « امى » راسها مستسلمة .. واجابت ضاحكة :

— ليس لدينا فعلا غير المجدرة .

والتفت انت إلىّ متسائلا عملا تكون هذه « المجدرة » التى تنوى « امى » ان تطعمك إياها .. فاجبتك ضاحكة :

— لا تفزع هكذا .. إنه طعام شعبى احبه جدا .. إنه شىء اشبه بالكشرى عندكم .

وقلت ضاحكا :

— انا ايضا احبه .

وتعشينا سويا .. بلا غريب بيننا .. امى وابى ، وانا وانت .. وتملكنى إحساس مريح وانا اشعر انك اضحيت فردا منا .

ومرت بنا الأيام بعد ذاك .

اترانى فى حاجة إلى ان اذكرك بكل قطرة سعادة وشفناها معا . انت تذكرها بلا شك . تذكرها كما اذكرها .

تذكر ايامنا الحلوة .. وحياتنا السهلة المريحة .. إذ لا يعنينا فيها .. حتى الفراق .. فقد كان فراقا .. إلى لقاء .. وكان انتظار اللقاء والإعداد له .. تكاد تصل متعته حد اللقاء ذاته .

وعندما كان يعوقك عن المجىء عائق .. كنت تحدثنى لتعتذر إلى كحق لى عليك .. بلا حرج ولا خشية .

وكنت احيانا اسأل عنك ، وكانى اقرب الناس اليك ، واعلمهم بك .. كانت « امك » تسالنى عما إذا كنت ستحضر هذا الخميس .. ام ستبقى للنوبتجية .. وكنت اجيبها بلا حرج .

وظلت علاقتنا الطيبة .. سليمة واضحة امام انفسنا وامام الغير ، وسلم بها من الجميع دون أن تتخذ لها شكلا رسميا .

ولم يقلقنى هذا .. فقد كنت فى حالة من الرضاء والسعادة .. بحيث لم أشعر انى اطمع فى اكثر مما احصل عليه .

كنت اشعر تماما بموقعى عندك ، وعلمت بضع مرات انك رفضت الانتقال إلى القاهرة .. من اجلى .. بل واكثر من هذا .. علمت انه — حتى فى إصابتك — رفضت ان تترك دمشق ، وتعالج فى القاهرة .. لإصرارك على ان تبقى قريبا منى .

وكنت اشعر انى استطيع ان اعيش حياتى هانئة .. بمجرد .. اطمئنانى إلى حبك ، وثقتى فى مشاعرك .

وقد يكون الأهل من حولنا قد باتوا يتساءلون فيما بينهم وبين انفسهم .. متى نتخذ خطوة إيجابية لكى نربط مصيرنا معا .

ولكنى أؤكد لك أنى لم اقلق ولم اتساءل .

حتى اتخذت أنت هذه الخطوة .. عندما رقيت إلى رتبة « رائد » .. واتيت إلىّ وعلى كتفيك نسران بدل النجوم الست .. لتؤكد لى انك تشعر انك قد بت اهلا لى .. وانك تستطيع ان تنشىء لى بيتا ، وان تكفل لى حاجاتى .

كان ذلك فى شم النسيم عام ١٩٦١ .

وكنت قد حدثتنى فى التليفون يوم الأحد لتخبرنى انك ستتأخر حتى الغد .. وقلت لك إننا سنكون فى « الغوطة » .. وسألتك ان تحضر مبكرا حتى لا يضيع منا اليوم ، وحتى نستطيع ان نجلس سويا قبل ان يحضر ضيوفنا الذين دعوناهم للغداء .

وهبطت من البيت مبكرة قبل ان يستيقظ احد .

وكان يوم عجيب .. بدا لى فيه ان كل نبت الارض قد اخرج زهره ، وان مسابقة جمال قد اقيمت بين النبات على ظهر الارض .. حتى اختفى وجه الأرض الأسمر وراء صحبة الألوان العجيبة التى كست العشب والشجر .

وتمنيت ان تحضر بسرعة .. لترى ما ارى ، وكأنى بموكب الجمال سيرحل بعد لحظة .

وذهبت إلى ماكينة المياه ، ووقفت برهة ارقب المياه تتدفق فى عنف وغزارة .. كما تعودت ان ارقبها منذ الطفولة .

وسمعت صوت عربة تقف بباب البيت ، والتفت إليها لأجدك وحسان تهبطان منها .

وتمنيت لو استطعت ان اعدو إليك لأتعلق بك واضمك إلى نفسى .

يوم طويل جميل .. ينتظرنا لكى نتمتع به سويا .

ما أجمل ان يطاطىء لك الزمن مستسلما لتمتطى صهوته .

ما اجمل ان يسلس لك قياده ، ويذهب بك إلى حيث تشاء !

جميل ان تجد أيامك سهلة طيعة .

واجمل منها .. ان تجد من حولك مرتعا للسعادة .. تمرح فيه بأيامك الطيعة ، وترعى فيه وتنهل من نبعه .. دون خوف من نفاد .

اترانى اهذى !

ولم لا ؟ .

انهذى من فرط الألم ، ولا نهذى من فرط السعادة ؟ !

ايام حلوة .. يا ...

وددت لو اقول يا حبيبى ، ولكنى احس بالحياء من قولها .

كنت اقولها لك بعينى دائما ، واستسهل لسانى الصمت ، وترك لعينى عبء التعبير .

والآن ، وأنا لا اراك .. كيف أقولها ؟ !

وقد تعود لسانى السكوت .. واستمرأ الحياء .

سأقولها بينى وبين نفسى .. ولعلك تلتقطها بحسك الذى لا أشك فى فرط رهافته .

ماذا كنت لتقول ؟

رأيتك تهبط من العربة .. ووددت لو اعدو إليك لأتعلق بكتفيك .. واضمك إلىّ .

ولكنى اكتفيت بأن اهتف بك صائحة :

— حمدى !

والتفت إلىّ وانا اقف على مقربة من العريشة .. وبدت فى عينيك الفرحة واللهفة .

واشار لى حسان ونادية محيين ، ودخلا إلى البيت .. واتجهت انت إلىّ .

ووقفت امامى .. تحدق فى .. وشعرت بالحياء من نظرتك .. لقد احسست مسة شفتيك من بعيد ، ومددت يدى قائلة :

— الا تنوى ان تسلم ؟

ومددت انت كفيك تضم بهما يدى .. ونظرت حولك تتاكد اننا وحدنا .. ثم رفعتها إلى شفتيك قائلا :

— صباح الخير .

ورددت عليك وانا اطلق تنهيدة راحة :

— أجمل صباح رايته .. كنت اتعجل وصولك لنمرح فيه معا .

وقلت لى وانت تنظر فى عينى :

— لقد كبرنا على المرح .

— لم اشعر انى كبرت بعد !

— يجب ان تشعرى ..

— ماذا يجبرنى على ذلك ؟

وقبل ان ترد علىّ لمحت النسرين يبرقان على كتفيك .. فهتفت بك ضاحكة :

— طارت النجوم من كتفيك ؟

واجبت بطريقة حاولت ان تتصنع فيها الوقار :

— وحط النسر عليهما .

— وماذا تفرق ؟

— حفنة نقود .. وضابط عظيم .

— امن اجل هذا كبرت على المرح ؟

واشرت إلى بضع شعرات بيض نبتت فى فوديك واجبت قائلا :

— وهذا الشيب .

— وماذا ايضا ؟

— وقدمى التى تقف بباب الدنيا .

وهززت راسى متسائلة :

— ماذا تعنى ؟

وجذبتنى من يدى لتجلسنى بجوارك فوق اريكة العريشة ورددت قائلا :

— الا تعرفين ماذا يعنى الإنسان عندما يقول إنه دخل دنيا ! ؟

— ايعنى انه ولد ؟

— يا عبيطة ؟

— المواليد هم الذين يدخلون الدنيا .

— والازواج ؟

ووجدت النكتة على طرف لسانى فاطلقتها ضاحكة :

— يخرجون منها !!

وانطلقت تقهقه قائلا :

— يتوقف الامر على الشريك الذى سندخل معه .. واحد يدخلنا ، وآخر يخرجنا .

— وانت تضع قدمك على باب الدنيا ؟

— اجل .

— ومن اجل هذا تظن نفسك كبرت ؟ !

— اجل .

وهززت راسى مؤكدة :

— ولكنى لا اشعر انى كذلك .

— يجب ان تشعرى .

— لماذا ؟

— لأنك ايضا تضعين قدمك بجوار قدمى .

ونظرت فى عينى وضغطت على كفى ، وهمست وصوت خرير المياه فى المجرى .. يطغى على صوتك :

— سندخل معا .. إن دنيانا واحدة .

واجبت بين الجد والمزاح :

— انا سعيدة بدنياى .. سعادة لا حد لها .

وقلت لى فى لهجة اكثر جدية :

— انا اتكلم جادا يا سهير .. كنت اود دائما ان اكون كفئا لك .. كنت احس بأنه قبل ان نرتبط معا يلزم ان اكون قادرا على ان اهيىء لك مستوى الحياة التى تعيشينها ، ومن اجل هذا صبرت حتى ارتقى واصبح اهلا لك .

وبدا كلامك لى غريبا .

انت لست كفئا لى ؟

من اجل هذه الأرض التى اضاع معظمها قانون الإصلاح .. ام من اجل مظهر الثراء الذى نبدو به .. من بقايا زمن .. اختلت فيه الموازين واستمد الإنسان قيمته مما ورث لا مما اكتسب ، ومن فضل الأسبقين عليه ، لا من فضله على نفسه .

ولم ادر بماذا اجيبك .. وانا لم يطف بذهنى قط انك ممكن ان تكون غير اهل لى ..

وعدت تنظر فى عينى واسترسلت قائلا :

— اريد ان اجعلك دائما سعيدة .. اريد ان امنحك كل شىء .

ونظرت فى عينيك .. وانا اشعر بنفسى كالهائمة :

— اكثر مما منحتنى ؟ !

— اجل .. اريد ان اجعلك سيدة الناس جميعا .

واحسست كأن موجة هائلة من المشاعر تلفنى بين طياتها .

وبرغم انك لم تنطق إلا بما يمكن ان تتمناه كل فتاة .. وبما كنت

اتمنى انا نفسى .. إلا اننى وجدت نفسى اواجه إحساسا بالرهبة والخوف .

كنت اشبه بالذى يحلم بالبطولة ، ويتمنى ان يقود معركة ثم يجد نفسه فجأة فى خضم المعركة .. فيسقط فى يده ، ويفقد اعصابه .

وتقفز إلى ذهنى .. السؤال الذى دفعت به انت إلى تفكيرى :

— ايمكن ان اكون انا اهلا لك ؟

انا .. بساقى العرجاء .. هل يمكن ان اكون شريكة حياتك الطويلة ، العريضة ، التى تريد ان تهيىء لى فيها اقصى سعادة ، وتجعلنى فيها سيدة الناس !

ايمكن ان اكون انا .. بعرجى وساقى التى تدق الأرض .. سيدة للناس .

اى ناس ؟!

واندفع إلى ذهنى .. كالقذيفة .. خوف الشفقة .

ماذا .. إذا كان كل ما بك . إحساس بالشفقة ؟

ولم اعرف .. اهى حماقة منى ان افكر فى هذا الوقت بالذات ، الذى كان يمكن فيه ان اهيم على حب السعادة .. مثل هذا التفكير الأسود .. الذى ملأنى بالخوف .. واسدل من حولى حجبا قاتمة من خوف ويأس .

ونظرت إلىّ وقد وجدت سحب الضيق تعتم وجهى ، وتساءلت فى دهشة :

— ماذا بك يا سهير ؟

وهززت رأسى انفض عنها خواطرى السود التى اثقلت كاهلى وانقضت ظهرى ، وقلت لك :

— لا شىء .

— هل قلت شيئا ضايقك ؟

— غير معقول .

— لماذا تجهمت إذن ؟

ـــ بعض الأفكار السود طافت بذهنى .

ـــ مثل ؟

وهززت راسى انفض عنها سخافتها وقلت له :

ـــ لا شيء .. دعنا نمرح .

وهممت بالنهوض ولكنك امسكت بيدى واجلستنى بجوارك قائلا :

ـــ يجب ان ننتهى من الجد قبل أن نمرح .. لماذا لم تردى على ما قلت ؟

ـــ اضرورى ان ارد ؟

ونظرت إلىّ فى ضيق وقلت معاتبا :

ـــ اهذا سؤال ؟

وقلت لك فى خفة :

ـــ لماذا لا نبقى هكذا ؟

ـــ كيف ؟ انت لست صغيرة يا سهير ، وانا اتكلم جادا .. يجب ان نتفق على شيء .

وتطلعت إليك وانت تنظر إلىّ فى شغف ولهفة .. وعاودتنى افكارى السود .

ثقتى الضائعة بنفسى .. خوفى من شفقتك ، ومن ساقى العرجاء ، أن تحول بينى وبين امانيك ان تجعل منى سيدة الناس .

واحسست انت بمدى ترددى وحيرتى وقلت لى فى ضيق :

ـــ اترينني غير اهل لك ؟

وكدت اهتف بك : « يا غبى .. كيف تكون غير اهلا لى ، وانت سيد الناس ؟ » .

وقلت لك وانا اتنهد واهز راسى فى شرود :

ـــ انت غير اهلٌ لى ؟ !

وعدت تتساءل فى ضيق :

ـــ لماذا لا تردين علىّ إذن ؟

وقلت فى يأس ومرارة وانا اهمس والكلمات يضيعها خرير الماء المتدفق فى المجرى :

ـــ لانى انا .. لست اهلا .

وقلت لى فى ضيق ودهشة :

ـــ كيف تقولين هذا ؟

ـــ لن اكون ابدا سيدة الناس التى تحلم بها .

واطلقت زفرة حارة ، وانا أطرق الارض بقدمى .. لعلى اوقظك من احلامك ، التى تخالنى فيها سيدة الناس .

وهممت بأن تقول شيئا ، ولكنى اسكتك قائلة :

ـــ إذا كنت تتكلم جادا ، فدعنى انا ايضا اتكلم جادة .

واقتربت بوجهك منى وارهفت سمعك ونظرت إلىّ ، وقد قطب جبينك وملأ الاسى وجهك .

واستطردت اقول بلهجة كسوتها كل ما املك من هدوء وسيطرة على النفس :

ـــ لقد انتظرت انت عاما دون ان تجرؤ على التقدم إلى .. لانك كنت تحس انك لست اهلا لى .. لمجرد انه ينقصك بضعة ليرات .. كيف لا تريدنى ان اشعر انى لست اهلا لك وانا تنقصنى ساق ! ؟

واحسست بك ترتجف كأنى لطمتك ، ورفعت إلى حاجبيك فى دهشة وسألتنى مستعطفا .

ـــ لماذا تقولين كل هذا ؟

وقلت بمرارة :

ـــ لانه الحقيقة .

ـــ ولكنى احبك كما انت .

ـــ ولكنى اكره نفسى كما انا ، لانى لا استطيع ان اكون سيدة الناس التى ترجوها .

ـــ انت سيدة الناس التى حلمت بها دائما .

وهززت راسى فى ضيق ، ولم اعرف بماذا اجيب .

وبدا عليك الياس وقلت ونبراتك تقطر اسى :
— وبعد .. ماذا تريدين ؟
ولم اك اعرف ماذا اريد .. وكرهت نفسى .. ان اتركها نهبا لافكارى السود ، ومشاعرى الحمقاء ، وان اجعل من اجمل ايامى ، مبعثا لشقائك وتعاستى .
ودون ان ادرى ، وجدت نفسى اقول لك :
— اريد ان تمنحنى الفرصة لكى اكون اهلا لك .
ونظرت إلىّ فى دهشة شديدة وتساءلت :
— كيف ؟
— ساحاول ان اجرى العملية مرة اخرى .
وهززت راسك وكانك لا تصدق ، وتساءلت قائلا :
— تجرين العملية مرة اخرى ؟
— اجل .
— لماذا ؟ من اجلى انا ؟
— من اجلك ، ومن اجل نفسى .
— الم تحاولى عملها فى لندن ؟
— اجل .. واخفقت .. وعرض علىّ الطبيب ان يجريها مرة اخرى .. فلم ارض .
— لماذا ؟
— كنت صغيرة .. لم اكن احس بحاجتى إلى ساق سليمة .. لم اكن احس انى قد اصبح يوما سيدة الناس .
وقلت وقد بدت عليك الحيرة والحزن :
— آسف إذا كانت الكلمة ضايقتك .
واحسست انى امعن فى تعذيبك .. وامسكت بيدك فى حنان وقلت لك وملء نبراتى الحب :
— إنى اكره نفسى لانى ضايقتك .. لقد قدمت إلىّ اجمل ما اتوق إليه .. فرددت إليك باسوأ ما يرد به .. لا تضق بى .

وقلت وانت تهز راسك فى بطء :
— ابدا .. لن اضيق بك ابدا ، إنى احب كل ما بك ، وعلى استعداد لان اقبل كل ما تريدين .
— امنحنى بضعة اشهر .. حتى اكون اهلا لك .
— إن الفرصة امامك دائما .. حتى وانت معى ..
— دعنى اجرب اولا .
وقلت مستسلما :
— امرك .
والتفت حولى فلم اجد احدا يرقبنا .
ومددت راسى فاسندتها إلى كتفك ، واحسست براحة كبرى .. وانا اشعر بيدك تتحسس شعرى ووجهى .
وايقظنا من حلمنا صوت بوق قرب باب البيت .
ونهضت من مكانى وانا امسك بيدك .. وسرنا وسط الزهور التى كست سطح الارض ، وانا احس انى قد بت فعلا « سيدة الناس » .

ثقـــة مطلقـــة

أمضينا اليوم معا فى الغوطة .. لم نفترق لحظة .

ولم يحاول احدنا ان يثير المناقشة التى دارت بيننا فى بداية اليوم مرة اخرى .

ولم يكن هناك شك فى ان حصيلة المشاعر التى اثارتها المناقشة فى نفسى .. قد فتحت امامى ابوابا ضخمة للأمل .. الأمل فيك .. وفى نفسى .. وفى الحياة .. بلا قيود ولا حدود .

ولا ادل على ذلك .. من تطلعى إلى سلامة ساقى .. وجرأتى على خوض معركة جديدة من اجلها .

وعندما تبدأ أرباحنا من الحياة — ايا كان نوعها — لن نجد ما يوقفنا عن التطلع إلى مزيد منها .. بإصرار وعزم وإحساس بأنها حق لنا .

وانت ادرى باحساس المقاتل فى معركة .. كيف يدفعه النصر .. إلى الرغبة فى متابعته ، والحصول على نصر جديد .

ولست اجد انتصارا اجمل ولا اكبر مما حصلت عليه من شفتيك فى ذلك الصباح .. برغم كل ما بدا من عصبيتى وتوتر اعصابى .. ورهبتى مما اوشك ان احصل عليه .

جذبتنى من يدى .. لتخرجنى من هوة يأس كنت قد استسلمت لها .. منذ ان اخفقت العملية الأولى .

جذبتنى .. فى محاولة لكى تجعل منى سيدة الناس .

واحسست بعجزى عن الخروج مع آمالك واللحاق بأمانيك .. والساق المدلاة إلى جانبى تعوق حركتى .. وتشل إرادتى .

وعزمت ان اخوض معركة جديدة .. لكى احصل على نصر جديد .

وبشعور المنتصر الذى تملؤه فرحة الانتصار ، والذى يشوب فرحته الخوف من معركة جديدة .. يصر على خوضها .. ليؤكد نصره الأول ويستكمله .

بشعور السعادة بالحاضر .. والرهبة من المستقبل .

بشعور الفرحة بما حصلت عليه ، والخوف مما اتطلع إليه .

بالشعورين يمتزجان معا .. ليرسما البسمة على شفتى والشرود فى عينى .. امضيت يومى معك .. دون ان انبس بكلمة عما دار بيننا .

حتى عدت إلى البيت ، وقد عزمت ان افضى بما فى نفسى لأبى .. اقرب الناس إلىّ واقدرهم على فهمى وتقدير مشاعرى وحل مشكلاتى .

وكان يجلس فى حجرة مكتبه .. وقد امسك بإحدى الصحف يقرؤها بطول امتداد ذراعيه ، وقد القى جانبا بنظارة القـراءة التى اشتراها حديثا .. وامسكت بالنظارة اضعها على عينيه وانا اقول ضاحكة :

— البس النظارة .. لقد كبرت .

— اتشمتين بى ؟

— وددت ذلك ، ولكنك تأبى ان تمنحنى فرصة الشماتة .. انت لا تريد أن تكبر .

— الشماتة بى .. لا يملك فرصتها غيرك .

وادركت ما يعنى « أبى » ولكنى تساءلت متغابية :

— كيف ؟

— تجعليننى جدا .

وجذبنى « أبى » من يدى واجلسنى على ساقه قائلا :

— سأظل صغيرا .. حتى تكبرى .

— لقد كبرت .
— ابدا .. لن تزيدى فى نظرى عن مجرد طفلة .
— حتام ؟
— حتى تجدى ابن الحلال ، الذى تحدثنا عنه ذات مرة .
— والذى اخبرتنى انك ستجره من اذنيه ؟
— بالضبط .
وكانت المناقشة تجرى سهلة مازحة .
لم اكن احس ابدا بكلفة بينى وبين ابى ، وكنت اشعر من طريقته فى مجادلتى .. بانى استطيع أن اقول له اى شىء .
ونظرت إليه ، وصمت برهة قبل ان اقول بنفس الطريقة المازحة :
— وإذا جاء من تلقاء نفسه ؟
وادرك « ابى » ان الجملة .. تعنى شيئا .. اكثر من مجرد مناقشة مازحة .. وعلت شفتيه ابتسامة عريضة وقال لى متخابثا :
— ننظر فى امره .
— وإذا لم يعجبك ؟
— الم يعجبك انت ؟
— اجل .
— لابد أن يعجبنى إذن .
واجبت « ابى » أرد على تخابثه قائلة :
— انا إذن الذى سانظر فى امره .
واعتدل « ابى » واتخذت مجلسى على مقعد بجواره وتساءل بطريقة اكثر جدية :
— انت تعرفين انى اثق فى عقلك وحسن تقديرك مطلق الثقة .
وساد الصمت برهة .. وانتظر « ابى » أن اقول شيئا ، ولكنى لم اعرف كيف ابدا القول .. واحسست أن هناك اشياء تحتاج إلى جهد لرفع كلفة الحديث فيها .. حتى مع اقرب الناس إلينا .
وتحدث « ابى » ليزيل مشقة المبادأة بالحديث قائلا :

— هل قال لك شيئا ؟
وتساءلت متغابية :
— من ؟
ورد « ابى » ببساطة :
— حمدى .
ولم اجد مبررا للاستمرار فى التغابى واجبت قائلة :
— اجل .
— وماذا قلت له ؟
— قلت له ان ينتظر حتى اجرى العملية .
وبوغت « ابى » بما قلت ، واصابته رجفة .. كأن لدغة اصابته او كأن شيئا ساخنا لسعه فجاة .
وصمت برهة يزدرد ريقه ويتمالك .. ثم تساءل فى صوت خافت :
— اية عملية ؟
— عملية ساقى التى كان يريد الطبيب ان يجريها لى ثانية بعد ان اخفقت العملية الأولى .
وبدا الوجوم على « ابى » وتساءلت فى شىء من الدهشة :
— ماذا ضايقك ؟
— لا شىء .
— الم تلح أنت ونحن فى لندن أن أجريها ؟ !
— اجل .
— إذن لماذا تضايقت الآن ؟
— لم اتضايق .. فقط فوجئت .
— لماذا ؟
— لأنك لم تخبرينى قط برغبتك فى إجرائها .
— لم اكن احس بحاجة إليها .
— والآن ؟
— وجدت أن هناك ما يدعو إلى الإقدام عليها .

واطرق « ابى » برهة ثم رفع راسه ، متسائلا فى لهجة مترددة :

— اقال لك هو شيئا ؟

واستغربت طريقة « ابى » فى التفكير ولكنى اجبته ببساطة :

— اجل .

— ماذا قال ؟

— قال إنه يريدنى كما انا ، وانى إذا اصررت على عملها .. فيمكن ان اعملها ونحن معا .

واطلق « ابى » تنهيدة راحة .. وقال فى هدوء :

— كلام معقول .

— ولكنى اصررت على ان اجريها اولا .

وتساءل ابى :

— لماذا ؟

ونظرت إليه فى دهشة قائلة :

— لقد كنت انت شديد التحمس لإجرائها .. ماذا حدث لك ؟

واطرق « ابى » .. واستغرق برهة فى التفكير ثم هز راسه قائلا :

— لا شىء .. لا شىء اكثر من انك عودتنا الرضاء والقناعة .. لقد ملأتنا إحساسا بأنك سعيدة .. فأصبحنا سعداء بسعادتك .

وقلت اؤكد له :

— وانا ما زلت سعيدة ، ولكن املا جديد نبت فى نفسى .

— لقد كان هذا الأمل فى انفسنا دائما .

— كان ؟ !

— وما زال ، وسيبقى ما حيينا ، ولكن ...

وعاد « ابى » إلى الصمت .. وقلت استحثه :

— ولكن ماذا ؟

— قد لا يكون نجاح العملية مضمونا .

وعجبت من روح التشاؤم الذى يغلب على « ابى » واجبته قائلة :

— لقد كنت دائما شديدة التفاؤل .. وكنت اكثر تحمسا لإجراء العملية .

— وما زلت حتى الآن ، ولكنى اخشى ان يتسبب إخفاق العملية

— لا سمح الله — فى إصابتك باليأس .

— اليأس من ماذا ؟

— من الأمل الذى راود نفسك اخيرا .

— إنها مغامرة سأتقبل نتيجتها على اية حال .

ورد « ابى » برغمه وقد بدا كارها لما يقول :

— وإذا اخفقت ؟ !

ورفعت كتفى وقلبت شفتى فى استخفاف قائلة :

— كل عمل عرضة للإخفاق والنجاح .

— ماذا سيكون موقفك من خطبة حمدى ؟

وبسطت كفى قائلة فى استسلام :

— يحلها ربنا وقتذاك .

— هذا ليس ردا ؟ !

— ماذا اقول لك ؟ . كيف ادرى ما استطيع عمله حينذاك ؟

— يجب ان تكونى واضحة لنفسك يا سهير .. حتى تكونى واضحة للغير .. حدثينى بصراحة .

— سل ما تريد .

— اتحبين حمدى ؟

واجبت ببساطة وشجاعة :

— اجل !!

— اتثقين به ؟

— اجل .

— لماذا تريدين إجراء العملية قبل الارتباط به ؟

وحاولت ان اكون واضحة لنفسى .. كما قال « ابى » ، حتى اكون واضحة للغير .. وفكرت برهة ثم قلت :

ـــ رغبة مى ان ابذل كل ما املك حتى اكون اهلا له .
ـــ اتعلقير ارتباطك به باجراء العملية ام بنجاحها ؟ !
وعدت أفكر مرة اخرى ثم اجبته :
ـــ باجرائها .
ـــ الن يحطم إخفاقها آمالك فى المستقبل ؟
وتلت اتساءل شاردة :
ـــ آمالى فى المستقبل ؟
ـــ أجل .
ـــ لكى اكون دقيقة .. سيصيبنى بالخذلان ، ولكنه لن يحطم آمالى .
وصمت برهة ثم عدت اقول مفسرة :
ـــ سأكون كمن يود ان يمنح إنسانا يحبه شيئا .. ثم يعجز عن منحه إياه .
وامسك « ابى » بيدى وربتها فى رفق قائلا :
ـــ فهمت .. فهمتك جيدا .
ـــ وتقرنى على ما رايت ؟ !
ـــ بالطبع .
ونهض « ابى » وضمنى إلى صدره فى حنان شديد قائلا :
ـــ لا تضايقى من مناقشتى .. لقد كنت دائما اتوق إلى إجراء العملية ، ولكنى كرهت ان تعلقى عليها آمالك ، بحيث تدمر حياتك إذا ما أخفقت .. سنحاول إجراءها .. كما كنت اتمنى دائما .. لكن تصبحى افضل مما انت .. ولكن إذا ما اخفقت فلا نريد ان نعود بك القهقرى .. بل نواصل حياتنا بنفس الآمال ، وبنفس القوة .. اليس كذلك ؟
وهززت راسى مؤكدة له تاييدى لكل ما قال .
وصمت « ابى » برهة ثم فاجأنى بسؤال لم اتوقعه :
ـــ الم يقل لك إنه يحبك كما انت ؟
ـــ أجل .
ـــ الم يقل لك إنه يفضل ان ترتبطا ثم تجرى العملية معا ؟

ـــ أجل .
وعاد « ابى » يسأل السؤال الذى يعلم هو رده :
ـــ هل يعلق ارتباطكما بنجاح العملية او إخفاقها ؟
ـــ بالطبع لا .. لقد آلمه كل ما قلت عن إجراء العملية .
ورفع « ابى » ذقنى ونظر إلى عينى متسائلا :
ـــ قولى لى ثانية .. ما مدى ثقتك به ؟
ـــ مطلقة .. كثقتى بك .
واطلق « ابى » تنهيدة راحة ، ثم اردف قائلا :
ـــ حسن .. سأقوم بالاتصال بالطبيب فورا .. لكى يحدد لنا موعدا للذهاب .
وضمنى « ابى » إليه .. وانا اشعر بالطمانينة إلى جواره ، وقبل ان اغادر حجرته قال لى :
ـــ لا داعى الآن تخبرى امك بشىء حتى لا نقلقها من الآن .. لن نستطيع السفر قبل انتهاء الامتحانات وبداية العطلة الصيفية .
ـــ ستنتهى الامتحانات فى يونية .
ـــ لا اعتقد ان اتصالاتنا ستنتهى قبل ذلك .
ـــ لن اذكر شيئا لامى .. فانا اعرفها اكثر منك .
وتركت « ابى » وانا اشعر بشىء من السكينة المشوبة بقلق خفيف .
وانبأتك فى اول لقاء لنا بما استقر عليه راى « ابى » . ولم احس أنك مرتاح فى اعماقك .. وإنما تظاهرت بالارتياح من أجلى .
ومرت بى بعد ذلك فترة مشحونة بالاستذكار والامتحانات .. وكان « ابى » ينبئنى اولا باول بنتائج اتصالاته مع الطبيب فى لندن .
وتم الاتفاق اخيرا على السفر فى يولية ، واستطاع « ابى » ان ينبىء « امى » تدريجيا بما استقر عليه الراى ، ولم يكن امامها سوى التسليم .
وفى اوائل يوليو ذهبنا إلى لبنان .. نقضى فيه بضعة اسابيع .. حتى يحين موعد السفر .. فنسافر من بيروت .

ولقد عارضت السفر إلى لبنان لكيلا احرم فرصة وداعك .. حتى علمت منك انك تستطيع الحصول على إجازة اسبوع تقضيها بجوارنا فى بحمدون .

وتحدد موعد سفرنا فى اواخر يولية .

وقضينا الاسبوع الأخير نمرح سويا فى ربوع الجبل ، ودعينا للغداء قبل السفر فى قرنايل فى بيت عبد الحميد بك اخى عبد الله بك زوج « خالتى حنيظة » .

وكنا قد اتفقنا فى اليوم السابق للدعوة على ان نمر بك فى الصباح فى الفندق الذى تنزل به على مقربة من بيت « خالتى حنيظة » الذى اتمنا به معها .

واصبح الصباح ، لنجد القوانين الاشتراكية قد اعلنت ، ونجد شركة « زوج خالتى » الكبرى قد اممت .. ضمن ما امم من الشركات .

ولقد كنت احس من حولى سخط رءوس العائلة بزداد مع مر الايام .. كنا نمثل جيلين .. جيلا قديما مصابا .. بعضه مسلم بالواقع .. كتطوير حتمى سليم للمجتمع .. مثل « ابى » ، والبعض الآخر كاره ناقم يرى كل شىء بعين السخط والبغضاء .. مثل « زوج خالتى » .

اما الجيل الآخر ، ويمثله « حسان » . فقد كان مفرطا فى الحماسة .. مفرطا فى الإيمان .. بكل تطوير حقيقى ينظم المجتمع ، ويمهد السبيل إلى الرخاء والعدالة وتكافؤ الفرص بين الناس .

وكثيرا ما حمى وطيس المناقشة بين الفريقين وكان ينتهى فى معظم الأحيان بقطيعة بين حسان وابيه واتهام ابيه له بانه احمق مضلل .

وفى هذا الصباح لم يجسر « حسان » على مناقشة ابيه .

كان « حسان » يؤمن بكل ما حدث ، كتنظيم حتمى لمجتمع يحقق لأصحابه فرصة كريمة للعيش ، ويوقف السباق الفردى المطلق للإثراء .. لمجرد الإثراء .. سباق تطمس فيه المعالم الإنسانية ، وتضيع فيه مشاعر الخير .. سباق تطوى فيه الانقاض والأجساد تحت اقدام المتسابقين .. فى طريقهم للوصول .. كان « حسان » يؤمن بكل هذا .

ولكنه لم يجسر على ان يرفع صوته بالمناقشة مع ابيه ، فقد كان ابوه يبدو .. كالجريح .. او كالذبيح .

ملأ البيت إحساسا بان عزيزا قد مات ، وان اهله يستحقون العزاء .

ولم اعرف وسط جو الحزن الذى خيم علينا .. ما إذا كنا سنذهب لدعوة الغداء فى قرنايل ام لا .

كان « زوج خالتى » يجلس فى مقعده كالماخوذ .

وكانت « خالتى » اشد تماسكا .. واكثر هدوءا . واقل اكتراثا .

واقبلت عليه وهى تحس ان شيئا لابد ان يعمل من اجله .. وان تركه على حالته تلك قد يقضى عليه او يصيبه بالشلل .. وقالت له فى إخلاص :

ـــ مالك يا ابو حسن .. كل شىء فدا حذاءك .

وضرب الرجل كفا بكف ، وهو يقول كانما يحدث نفسه :

ـــ ضِعنا .. راح كل شىء .

ثم انطلق لسانه بالسباب .. واقبلت « امى » تحاول تهدئته قائلة :

ـــ لا داعى يا عبد الله لكل هذا .

وقال لها ابى :

ـــ دعيه ينفس عن نفسه .. اخذوا منه الملايين .. افلا اقل من ان يرد عليهم ببعض الشتائم .

واحزننى بالطبع ان اجد « زوج خالتى » . فى موقف المصاب .. ولكنى كنت فى قرارة نفسى لا احس أن ما حدث يستحق كل هذا الحزن .

كنت احس بان اثمن ما فى الحياة .. هو الإنسان .. هو اثمن من كل ما حوله .. لم احس قط ان شيئا يمكن ان يؤخذ منا .. ويحزننا حقيقة .. إلا .. نحن .. إلا حياتنا .. كلها او بعضها .

واكد هذا الإحساس فى نفسى .. ساقى العاجزة .. كنت احس ان جزءا من الادمى .. لا يمكن ان يعادله شىء آخر مما يمتلك .

ولم اعرف كيف انتقل هذا الإحساس إلى الرجل الجالس فى يأس .. يوشك ان يقضى عليه .

ولكنى لم احس فى نفسى القدرة على مناقشة « زوج خالتى » .. وان مقاييس الحياة تختلف لديه كثيرا .. وان ساق آدمى قد لا تساوى عنده كثيرا .

واقبلت « خالتى » ـــ وكانت اقدرنا جميعا على التصرف ـــ برغم انها شريكة فى المصاب ، وقالت لأمى :

ـــ هيا يا فاطمة .. لقد ازف الوقت للذهاب إلى قرنايل لقد دعونا ضيوفا آخرين ولا نريد ان نتركهم ينتظروننا .

وبدا التردد على « امى » وهى تجد الحزن يخيم علينا .. وقالت لأختها :

ـــ لا ضرورة للذهاب .. نستطيع ان نعتذر إليهم بالتليفون .

ـــ ولماذا لا نذهب ؟ .

واقبلت على زوجها تجره من ذراعه :

ـــ هيا يا عبد الله .. قم وانفض عنك ذلك الحزن .. كل شىء يمكن ان يعوض إلا صحتك .

وهز الرجل راسه وهو ينهض معها كالمأخوذ قائلا :

ـــ عليه العوض .. راح كل شىء .

ثم اندفع مرة اخرى فى نوبة السباب والشتائم .

واستطاعت « خالتى حميظة » ان تخرجنا من البيت .

وانطلقنا بالعربات الثلاث .. عربة « خالتى » وعربة « ابى » وعربة « حسان » .

ومررنا عليك انا وحسان ونادية .. وانطلقنا وراء العربتين الأخريين فى الطريق المنحدر إلى قرنايل . واستطعنا الحديث بحرية فى العربة بعيدا عن الأهل المصابين .

بدأ الحديث حسان قائلا :

ـــ لست أدرى ماذا يريد ابى من هذه الدنيا !!

وقالت نادية بلهجة لائمة :

ـــ اعذره يا حسان .. إن ما اخذ منه جزء من حياته .

ـــ إنه لا يعرف لماذا يحيا .. إنه يجمع المال .. ولكنه لا يعرف لماذا يجمع المال .. لا يعرف ماذا يمكن ان يصنع به .. المسألة اصبحت عنده هدفا فى حد ذاته .. ان يزيد راسماله ، بكل ما يستطيع من سبل .. يزيد راسماله .. لكى يزيده مرة اخرى ، ومرة ثالثة ورابعة .

وهززت انت راسك فى شىء من الأسف :

ـــ على اية حال .. لم يقصد هو بالإيذاء .. عندما نحاول ان نساوى اطراف حافة غير مستقيمة ، فالزيادات تقطعها السكين .. لقد كان مجرد زيادة فى طريق السكين .. لتنظيم المجتمع .

وقلت انا معلقة :

ـــ الزيادات التى قطعتها السكين .. لن تحرمنا من حياة كريمة .. عندما احاول ان ارسم لنفسى حياة مثلى اتمتع فيها بكل ما فى الحياة .. من متع ومباهج .. لا اجدنى احتاج اكثر من المبلغ الذى ابقته القوانين كحد اقصى للدخل ، والباقى لا اعرف ماذا يمكن ان افعل به .. إلا ان اجعله كما قال حسان .. للجمع ، ولتكديس مزيد من المال لا استطيع الاستمتاع به .

ورد حسان :

ـــ لن يحرمنا تنظيم المجتمع فرصة الانطلاق .. بكل ما نملك من قدرة على تحقيق امانينا .. إلا ان تكون هذه الأمانى سيطرة على الغير واحتكارا لرزقه .. لن نعتمد فى انطلاقنا إلا على قدرتنا الذاتية .. لا على ما اورثنا الغير .

وافرغ كل منا ما بنفسه قبل ان نصل إلى قرنايل ، ويصبح الحديث عن المجتمع الجديد ، امرا متعذرا وسط المصابين والضحايا .

ولم نجلس فى البيت كثيرا .. تناولنا الغداء ، ثم انطلقنا بين حقول التفاح ، ومساقط المياه ، واشجار الصنوبر المتكاثفة ، حتى حان موعد العودة .

وبعد يومين كنا قد حزمنا متاعنا ، وجهزنا حقائبنا .. وانطلقنا مع مودعينا فى طريقنا إلى مطار بيروت .

واتخذت مكانك بجوار السائق « انت وابى » فى عربتنا وجلست « انا وامى وسلمى » فى المقعد الخلفى .

وكان « رياض » قد حضر مع « سلمى » لتوديعنا وركب عربة « حسان » مع « نادية » وسارت وراءنا عربة « خالتى » وعربة « عبد الحميد بك اخى زوجها هو وزوجته وابنته عادلة » .

واحسست وانا انظر إلى جانب وجهك وقد جلست بين « ابى » وبين السائق .. انى اريد أن اقول لك اشياء كثيرة ، ولم اعرف كيف اقولها لك وسط كل هؤلاء المودعين .

وانحدرت بنا العربة فى طريق الجبل المؤدى إلى المدينة وبدت بيروت اسفلنا وقد انبسط وراءها البحر وقد كسته طبقة من الضباب الخفيف .

وعبرنا شوارع بيروت فى طريقنا إلى المطار .. ثم اتخذنا طريق المطار المتسع باشجار الصنوبر المتكاثفة .

ووصلنا إلى المطار .

واخذ حسان ورياض فى تسهيل إجراءات السفر .. وكان الوقت ما زال مبكرا ، ولم يزل على قيام الطائرة ما يقرب من الساعة .

وجلسنا فى البوفيه .. حول منضدة مستديرة ضمتنا جميعا .. وقالت خالتى لابى :

ـ اكتب إلينا لتطمئننا على سهير .

والتفتت إلىّ قائلة :

ـ تعودى بالسلامة إن شاء الله .

وقال زوجها فى شىء من السخرية :

ـ تبقى هناك بالسلامة .. فليس فى العودة إلى هذا البلد اى سلامة .

وضحك حسان قائلا :

ـ بلدى لو شغلت بالخلد عنه .. نازعتنى إليه فى الخلد نفسى .

ورد عليه ابوه :

ـ مغفل انت وقائله .. بلد لا يصلح لسكنى العبيد .

ورد حسان مؤكدا :

ـ طبعا .. لانه لم يعد فيه عبيد .. لا عبيد استعمار .. ولا عبيد احتكار واستغلال .

ـ تردد كلاما لا تفهمه .. كلام السوقة .

ـ بل كلام الاحرار .

ردت « كوثر » زوجة « عبد الحميد بك » فى سخرية :

ـ اى احرار .. فى هذا الحكم البوليسى .. الذى يقبض على الإنسان فى اى وقت ، ويلقى به فى السجن دون تحقيق !

واردف زوجها قائلا :

ـ عدنا من جديد لحكم السلاطين .. السلطان عبد الحميد .. يفعل برعيته ما يشاء .

واجاب رياض بشىء من الانفعال :

ـ المعتقلون لا يزيدون على تسعين .. فى البلد كلها .. والثورات فى بلاد العالم امنت نفسها بملايين القتلى لا بعشرات المعتقلين .

وردت كوثر قائلة :

ـ السلطان عبد الحميد امر بهدم بيتنا الذى يقع فى الطريق الجديد ، والسلطان لا راد لمشيئته .

ورد حسان فى غيظ قائلا :

ـ كل دول العالم المتحضرة يشقون الطرق وينتزعون ملكيـات البيوت .. اى خطا فى ذلك ؟ !

وردت عادلة تقول :

ـ تقصد ان كل شىء على خير ما يرام .. بعد كل هذا التضييق .. والفقر ، واختفاء البضائع المستوردة التى كانت تملأ الاسواق .. حتى لبنان لم نعد نذهب إليه إلا بشق الانفس .

واجاب حسان قائلا :

ـ كل شىء يسير فى طريق البناء ، والبناء يحتاج لتقشف ، واحتمال

للضيق .. هناك اشياء اهم من البلوزات ، او الروج نريد ان نستوردها ، لكى نبنى المصانع ، ونزيد الدخل .

— لم يكن هناك من يشكو من قلة الدخل .

— طبعا لم يكن هناك بيننا ، ونحن نملك كل هذا .. من يشكو من قلة الدخل ، ولكنك لا تعرفين كيف يعيش الناس فى القرى ، نحن نريد ان ننمو ، نريد أن نلحق بركب الحضارة ، والاستغلال والاحتكار الذى يقوم عليه اقتصادنا لا يمكن أن يتيح للبلد ان يقوم بالتنمية الصحيحة لتى تمكننا من النهضة الحقيقية .

وهز رياض راسه قائلا :

— السدود التى نريد بناءها تحتاج إلى نقود ، وعندما يريد رب الأسرة ان يبنى لها بيتا .. لابد ان يقتصد وان يوجه مصروفه بالطريقة التى تضمن له توفير النقود اللازمة البناء .. فكيف ببناء امة ؟

وصمت « رياض » ؛ واردف « حسان » متمما قوله فى ثقة :

— على اية حال .. إذا كان تنظيم المجتمع قد اصـــاب البعض بالخسائر ، فقد منح المجموع ارباحا كثيرة .

وتسـاءل زوج خالتى :

— اى مجموع ؟ !

— العمال والفلاحون .

— لا احد منهم يشعر بشىء .

— سيشعرون مع الزمن بكل شىء .

ورد عليه فى سخرية :

— ابقى قابلنى .. إن شاء الله لن ياتى الزمن الذى يشعرون فيه بما تدعى .

— كيف ؟

— لا يمكن أن نصبر على هذا الذى حدث .. لابد ان يزول .

— ولكن الذى حدث هو تطبيق لمبادىء عميقة اصيلة فى نفوس اصحابها .. إنها ليست مزاحا .

واستمرت المناقشة بين وجهتى النظر دون أن تنتهى بالطبع إلى شىء .

وكنت انت صامتا طوال المناقشة ، وتمنيت لو استطعت أن نجلس وحدنا جانبا ، ووجدتك تنتقل إلى مقعد بجوارى .

واستطعنا ان نختلس بضع كلمات وداع فى زحمة المناقشة الحامية الوطيس .

قلت لى فى شبه همس :

— تمنيت لو كنت معك .

— ساحس بك معى دائما .. ساراك فى كل ما زرناه سويا ، ساذهب إلى متحف الشمع ، وإلى النهر ، وساطعم الحمام فى الميدان ، كل شىء سيذكرنى بك .

وقبل ان تجيبنى رايت ابى ينظر إلى الساعة ثم يقول :

— قرب موعد قيام الطائرة .. هيا بنا إلى اسفل .

وهبطنا من البوفيه ، ووقفنا نصافح المودعين ووضعت يدى فى يدك وضغطت عليها فى حرارة ، وهمست بى :

— سانتظرك .. لا تتضايقى إذا لم تنجح العملية .. واذكرى دائما .. انى احبك كما أنت .

وتركت يدك وضاعت همساتك بين صيحات المودعين .

تفـاؤل

مرة اخرى عدت استقر على مقعد الطائرة واشد الحزام على وسطى . والصقت وجهى بالنافذة الزجاجية المستديرة ، وحاولت أن اميزك بين مئات المصطفين في شرفة المطار ، الذين ارتفعت أيديهم ملوحة بإشارات التوديع ، واختلطت علىَّ الوجوه فى اول الأمر ، ثم بدأت اميز ثلتكم وقد اصطففتم فى اقصى الشرفة .. سلمى ورياض وخالتى حفيظة وزوجها واخوه وزوجته وابنتــه وحسان ونادية .. واخيرا انت .

استطعت ان اميزكم جميعا بهياكلكم وقاماتكم وحركاتكم واستقر بصرى عليك وقد انكأت على سور الشرفة بكلتا يديك ، وملت بجسدك للأمام كأنما تود ان تقترب من الطائرة قدر ما تستطيع ، ولم يبد عليك انك قد ميزتنى من وراء النافذة ، فقد كان بصرك يمسح الطائرة من اولها إلى آخرها .

ولوحت بيدى من وراء الزجاج . علّى الفت نظرك إلىَّ .. ولم ادرك ان الركاب جميعا يلوحون بأيديهم من وراء النوافذ كلها ، ولم ادرك ان سمك الزجاج وقلة الضوء فى الطائرة تجعل رؤية ما بداخلها متعذرا ، واستمررت الوح لك ، وانت تحملق تجاه الطائرة .

وعلا صوت المضيفة تنبئنا ان الكابتن فلان يحيينا ويتمنى لنا رحلة سعيدة ، وتطلب منا أن نكف عن التدخين ونشد الأحزمة ، وعلا صوت

محرك الطائرة بعد ان سحب السلم واغلق الباب .. ولمحتك اخيرا ترفع يدك ملوحا للطائرة كلها بعد أن عجزت عن تمييزى .

وتحركت الطائرة وتباعد مبنى المطار وتضاءلت أشباحكم حتى اختفت تماما .. واخذت الطائرة تعلو فى الجو تاركة بيروت .. وقد انكمشت مبانيها وطرقاتها وقام الجبل وراءها وامتد الشاطىء على اقدامها .

واخذت الطائرة تتباعد وتتعالى ، وبدت السفن على الشاطىء كأنها الدمى ، حتى اختفت رقعة الأرض ، ولم يعد يبدو إلا سطح البحر الأملس بتموجاته الخفيفة كأنه ظهر السمكة .

ولم يعد هناك ما اطل عليه من النافذة الصغيرة .. كانت الدنيا من وراء النافذة بلا معالم .. كأنها ارضية صورة .. بلا صورة .. بحر خال ، وسماء اشد خلاء ، والطائرة تبدو كأنها تسمرت بينهما ، نكفت عن الحركة .

وفككت الحزام وتنهدت ، واسترخيت .

وكانت « أمى » تجلس بجوارى ، و « ابى » يجلس على المقعد المجاور فى الجانب الآخر من الممر .

وبدت « أمى » مغمضة العينين .. ولم اعرف ما إذا كانت نائمة ، او متعبة .. ام شاردة الذهن .. ام ترتل القرآن فى سرها .

ولكنى لم احاول إزعاجها .. ونظرت إلى « أبى » فابتسم لى قائلا :

ـــ كيف حالك ؟

ـــ الحمد لله .

ولم اكن قد استطعت ان اعرف حقيقة مشاعر « ابى » خلال مدة التحضير للسفر .

« أمى » بالطبع كانت موهومة خائفة .. نم عنها مظهرها الذى لم تحاول ستره .. وردها الدائم على كل سؤال « ربنا يلطف » .

اما هو .. فكان اقدر على ستر مشاعره والتحكم فى اعصابه ، وكنت فيما مضى أعرف كيف استشف ما وراء ستار المرح الذى

يكسو به مشاعره الحقيقية ، ولكنى فى هذه المرة .. لم ابصر سوى مظهره المرح الملىء بالحماسة .. وهو يلقانى وينقل إلىّ اخبار اتصالاته مع الطبيب .

اما لماذا لم اعرف .

فلأنى ببساطة .. لم احاول .

شغلتنى انت عنه .. كما شغلتنى عن كل ما عداك .

ولم يحاول ان يشمت بى ، ولا ان يذكرنى بما سبق ان قاله وانكرته عندما كنا نتحدث عن الزواج فاخبرنى انه عندما يلوح لى المخلوق الملائم فسيغير نظرتى للحياة .. ويشغلنى عن اشياء كثيرة تبدو لى هامة ومن بينها هو .

كما لم يشمت بى ، وانا الح فى إجراء العملية من جديد ، ولا حاول ان يذكرنى بما دار بيننا فى حجرة المستشفى بلندن عندما اخفقت العملية الأولى .. ورفضت ان اقوم بتجربة اخرى ، فاكد لى اننى ساعود يوما لاطلب إجراءها بنفسى .

كان يمنحنى رأيه ونصحه .

وعندما ارفضه ، واخطىء ، واندم .. كنت اجد فى نفسى الشجاعة ان اعترف له .. واساله الراى من جـديد ، دون خـوف من لوم او شماتة .

وكانت « امى » توجه إلىّ النصح .. فى كل يوم مائة مرة :

« البسى هذا ، ولا تلبسى ذاك .. كلى هذا ، ولا تأكلى ذاك .. مشطى شعرك هكذا ، ولا تمشطيه كذاك . وعندما اخطىء كان ردها الطبيعى :

« الم اقل لك » !!

ولم اكن ادرى .. لماذا كنت اجد رايها دائما مضادا لما اود ان افعله ، وكنت لا اعمل به .. ثم احس انى اخطأت ، وانها كانت على حق ، ولكنى لا اعترف لها بأنى اخطأت خشية شماتتها وخشية قولها المأثور « الم اقل لك » .

ونظرت إليها وهى مغمضة العينين ، واحسست انى احبها كثيرا ،

كثيرا .. وانى احس بمدى حبها لى .. لم اجد إنسانا يمكن ان يحب إنسانا آخر كما تحبنى هى .. حتى لقد ساءلت نفسى ذات مرة .. ايمكن ان تحبنى انت كذلك ؟

كانت تحس بآلامى مضاعفة .. إذا شكتنى دبوس .. احست به فى جسدها ، كانه طعنة خنجر .. لقد كنت همها المقيم ، وكانت منى بمثابة حارس شاكى السلاح لا يغفل ، ولا يستريح .

ونظر إليها « ابى » وقال وهو يجد مظاهر التعب بادية فى وجهها :

ــ اجهدناها .. لقد سألتها ان تبقى ، وتدعنى معك .

وفتحت « امى » عينيها ونظرت إلى « ابى » باستسخاف كأنه يهذى ، وتساءلت مستنكرة :

ــ ابقى هنا .. بدونكما ؟

وصمتت برهة ثم اردفت تتساءل فى مرارة وسخرية :

ــ لكى استريح ؟ !

وتمتمت بصوت خافت وهى تعود إلى إغماض عينيها :

ــ ربنا يعيدها سالمة ، ويجبر خاطرنا هذه المرة .

واخلدت « امى » إلى الصمت وعاود « ابى » حديثه معى قائلا :

ــ الجو هذه المرة افضل كثيرا .. نستطيع ان نقضى يومين فى الريف قبل ان تبدأ العملية .

ــ لا اريد ان افعل شيئا قبل العملية .

وهم « ابى » بالرد عندما فتحت « امى » عينيها وهى تجد حديثنا سيطول ، وافسحت لى .. لكى انتقل إلى المقعد الخالى بجوار « ابى » لكى نتركها تستريح .

وجلست بجوار « ابى » ، والقيت نظرة على النافذة فلم اجد سوى الفراغ الازرق ، فعدت انصت إليه .

قال « ابى » وهو يمسك يدى ، ويضغطها برفق فى كفه :

ــ سنجد لندن فى هذه المرة فى صورة افضل .

ــ اتوقع ان نصل فى الضوء .

— ولن تغرقنا الأمطار كما فعلت فى المرة السابقة .

— هل سينتظرنا احد ؟

— ارجو هذا .. لقد ارسلت إلى الاستاذ « جمال » .. إنه ما زال يعمل فى السفارة ، لابد ان يكون قد اصبح شيئا هاما فى السفارة بعد هذه السنوات الثمانى .

— لو كانت لطيفة والدكتور هشام هناك .. لأراحتنا كثيرا .

وفتحت « امى » عينيها وعلقت قائلة :

— ليس هناك ما يحملنى الهم ، غير انتقالهم إلى القاهرة ، وعدم وجودهما هذه المرة .

ورد « ابى » محاولا التخفيف عنها :

— لقد ذهبنا فى المرة السابقة ، ونحن لا نعرف وجودهما .

— ولكنهما حملا عنا عبئا كبيرا ، لقد ازالا عنا الوحشة ، وجعلانا نحس بأن هناك اسرة تحمل همنا .

واجاب ابى :

— ربنا يساعدنا ، ارجو ان تنتهى هذه المرة على خير ، كل شىء يهون ، إذا نجحت العملية .

واغمضت « امى » عينيها وخرجت من سياق الحديث .. ووجدت سحابة حزن تعتم وجه « ابى » ، فقلت احاول ان اسرى عنه :

— احس بالتفاؤل هذه المرة .

— حقق الله املك ، وصدق إحساسك .. انا ايضا يملؤنى إحساس بالتفاؤل .

ولم يكن يبدو عليه كذلك ، ولكنه لم يملك إلا ان يجارينى . إذ لم يكن من الحماقة بحيث يبدل تفاؤلى تشاؤما .

وعدت اقول وانا استعيد لنفسى ذكريات الرحلة السابقة :

— فى المرة السابقة كنت احس انى اسير بلا إرادة ، لم اكن افكر كثيرا فى ساقى .

— اعرف هذا يا حبيبتى ، ولكنك كنت شجاعة .

— لم اكن بالشجاعة التى تتصورها .. كنت احس بالخوف من الرحلة كلها .. ركوب الطائرة ، والطبيب ، والمستشفى ، والم العملية ، كل ذلك كان يملؤنى إحساسا بالرهبة .. بمجرد تصوره .. ولكنى لم املك سوى الاستسلام .

— استسلامك مع كل هذه الأوهام يعتبر فى مثل سنك وقتذاك ، إقداما وشجاعة .. كان يمكن ان ترينا اياما مزعجة بمجرد إظهارك تلك الأوهام ، ومحاولتك مقاومة السفر .

— لقد قاومت التجربة الثانية ، بعد إخفاق العملية ..

— كنت معذورة .. ما لا قيته وقتذاك كان خليقا بأن يحملك على اكثر من ذلك .

وصمت برهة ثم وجدتنى اساله فجاة :

— اتذكر عندما قلت لى إنى فى يوم ما سالح فى إجرائها ثانية ؟ .

— طبعا اذكر .

— ماذا كان شعورك عندما عدت لاسالك إجراء العملية ؟

وصمت « ابى » برهة ثم قال فى صوت خافت .

— دهشت بالطبع .

— الم تفترض يوما انى ساطلب إجراءها بنفسى ؟

— اجل .

— لماذا دهشت إذن ؟

— كدت انسى .. رضاؤك التام بالحياة والأمل الذى اشرق فى حياتك جعلنى اتوهم انك قنعت بحالك ، ولم املك كما قلت لك إلا ان الوذ بقناعتك ، واقتنع انا الآخر .

— اتحس بانى مخطئة ؟

— مطلقا .

— اطبيعى ان اصر على إجراء العملية ؟

وبدا التردد على « ابى » .. وكست الحيرة معالم وجهه .. وعدت

انصت إلى إجابته ، فقد كنت أود ان اعرف .. اكان تصرفى معك طبيعيا ؟ ! اكان إصرارى على إجراء العملية قبل ان اوافق على الارتباط بك .. صوابا .. ام انى تركت نفسى لانفعال طارىء ؟

ورد ابى بأسلوبه الماهر فى الحديث قائلا :

— ما دمت قد فعلته ، فلابد ان يكون طبيعيا .

ونظرت إليه فى ضيق وقلت معاتبة :

— لا اريد ردا مريحا ، قل لى رايك ؟

— حقيقة .. هذا رايى .. ما دمت فعلته ، فهو طبيعى بالنسبة لك .

— بالنسبة لى !! هذ اكلام ادق ، وبالنسبة لك ؟ ! لو كنت فى موضعى ، أكنت تفعل ما فعلت ؟

— اعتقد ذلك .

واطلقت تنهيدة راحة ، وقلت له فى لهجة ملؤها التفاؤل :

— هذه المرة أحس ، انى اقدم على شىء اريده .. واحتاج إليه وملء نفسى الثقة بانى سآخذه .

وعادت سحابة الهم تغيم على وجه « ابى » .

لقد أحس انى مبالغة فى التفاؤل ، وخشى ـ بلا شك ـ من صدمة الخذلان إذا واجهت الإخفاق ـ وهو شىء محتمل ـ مرة اخرى .

ولكنه لم يعد ما قاله لى اول مرة ، لم يقل لى إنه يجب الا أصدم من الإخفاق ، والا اربط نجاح العملية بمصيرى معك .

لم يقل هذا ، فقد كره ان يذكر الإخفاق ، ولم يجد هناك مايبرر جذبى من سماء تفاؤلى ، لكى ارتطم بصخور التشاؤم غير المنظورة .

ولكن تجنبه للقول ، لم يمنع بالطبع إحساسى به .. واحسست ان علىّ أنا ، ان اجذبه إلى سماء تفاؤلى ، وانقل إليه ما احس به من ثقة ، فقلت له :

— الا تخلق إرادتنا النجاح ؟

ويبدو انه قد احس بالتقصير ، وهو يجدنى اشعر بخيفة من تفاؤلى ،

وبرغبتى فى إزالة التشاؤم من نفسه ، فقال مؤكدا وهو يلم اعصابه ، ويسيطر على إرادته :

— طبعا ، نحن الذين نفرض النجاح بإرادتنا وصبرنا .

— إنى املك الآن الإرادة ، وساتمسك بالصبر ، لو اخفقت مرة ، فسأحاول الاخرى ، سأظل اعملها إلى ان تنجح .

وابتسم « ابى » وربت يدى برفق قائلا :

— ستنجح إن شاء الله من اول مرة ، لن يحتاج الأمر إلى هذا العناء .

اطل على الفراغ الأزرق ، وكانت معالم ارض قد بدت فى الأفق يحيط

وعدنا إلى الصمت ، وامسك « ابى » بصحيفة يقرؤها ، وعدت بها الضباب ، واشرت لابى إليها ، فهز راسه وعاد إلى القراءة .

وشرد بى الذهن .. إليك .. يرسم مستقبلنا معا ، ثم عاد ينطلق ليسبقنى إلى لندن ، ويستعرض صورة البلد المظلم الكئيب ذى البيوت الحمر الداكنة والمداخن المرصوصة على اسقفها ، والحدائق التى لا تجد فيها اثرا لخضرة ، وتذكرت كل ما لقيت هناك ، ولم اجد فيها ما يمتع إلا ذكرك ، وما رايته معك فى جولتنا السريعة ، والمطر يطرق سقف العربة وزجاجها .

ولم ادر اطال الشرود ، ام طوتنى غفوة ، ولكنى افقت على صوت المضيفة تقول إننا نوشك ان نهبط فى روما وتطلب منا شد الأحزمة .

وسألتنى « امى » وانا اربط الحزام :

— ستنزلين ؟

واجبت فى حماسة :

— اجل .

وذكرت جزعى من النزول فى المرة السابقة واحسست انى بت اكثر شجاعة واشد ثقة .

واستقرت الطائرة على الأرض .

وهبطت السلم استند إلى ذراع « ابى » تتبعنى « امى » .

وسرنا خلف المضيفة ، نطوى المنحدر الصاعد إلى مبنى المطار الزجاجى الطويل ، ودخلنا المبنى ووقفت اشاهد الرفوف ، وقد رصت عليها البضائع الانيقة ، واتجهت ببساطة إلى رفوف الرجال ، ووقفت اشاهد الكرافتات ، وسلاسل المفاتيح ، والكاميرات .

وتمنيت لو اشتريت لك شيئا ، ولكنى استحييت ان اقول ، واحسست أن الفرص ما زالت قادمة للشراء .. واتجهت « امى » إلى رفوف الحلى ، وسرنا وراءها ، واخذنا نشاهد .. العقود والأساور ، وابتاعت لى « أمى » بعضها .

ولم اجد كثير حماسة وهى تضعها فى عنقى لتراها علىّ .. وبدرت منى التفاتة إلى رفوف الرجال .

وابى — فى بعض الأحيان ، او فى معظمها على وجه ادق — ذكى شديد الذكاء .

احس بنظرتى إلى رفوف الرجال ، حيث رصت اربطة العنق ، ورايته يتجه إليها قائلا :

— توجد كرافتات لطيفة .. تعالى يا سهير انتقى لى واحدة .. إنى اثق فى ذوقك .

وسرت وراءه .. ووقفت أمام الرف احملق فى الكرافتات ، وببساطة احسست بذهنى يبحث عما يليق بك .. هذه الكرافتة الرمادى تليق ببذلتك الكحلى ، والأخرى الخضراء تليق بجاكتة بنى اسبور كنت ترتديها ذات مرة .

وقال ابى :

— ما رايك ؟

واشرت إلى الكرافتة الرمادى قائلة :

— هذه لطيفة .

واشار الى البائعة لكى تخرجها ..

واخرجتها البائعة ، وببساطة وجدت « ابى » يقول :

— الا تريدين أن تنتقى شيئا لحمدى ؟

وبدا علىّ الخجل وقلت فى لهجة مترددة :

— بعدين .

— ولماذا لا تشترين الآن ؟

— الفرص امامنا كثيرة .

وبلهجة حاسمة قال أبى :

— انتقى له اثنتين ، او اكثر إذا اردت .

وفى حماسة قلت له :

— اثنتين كفاية .

وقال ابى ضاحكا :

— لا تخجلى ولا ترددى ، خذى ما تشائين .

واخذت لك اثنتين .. وانا احس انى احب « ابى » كثيرا ، لا تغر .. إنه إنسان يستحق الحب .. ولا اظن إلا انك ايضا تحبه كما احبه .

وبعد برهة علا صوت الميكروفون ليعلن ركاب الطائرة المسافرة إلى لندن عن طريق زيوريخ ، أن يتجهوا إلى الباب رقم ١٠ .

واتجهنا إلى الباب وسرنا مع فوج الركاب إلى الطائرة .

وبعد برهة كنا نحلق فى الجو مرة اخرى .

وهبطنا ثانية فى زيوريخ .. فى المطار الصغير الأنيق ، وابتاعت امى علبة شيكولاتة وابتاع ابى زجاجة ويسكى من البائعة السويسرية الجميلة لمجرد مغازلتها وما لبثنا ان عدنا إلى الطائرة مرة اخرى لنتجه إلى لندن .

ولم يطل بنا المقام فى الطائرة حتى اخذنا نقترب من لندن .. وفى هذه المرة بدت معالم الارض واضحة من أعلى .

كان الجو صحوا .. والأرض تبدو خضراء على طول امتداد البصر .. مقسمة بانتظام كأنها رقعة شطرنج .. وبدت المدينة ونحن نقترب منها ونحلق فوقها .. متسعة الأرجاء ، صفت المبانى فيها بطريقة مرسومة منتظمة .. بحدائقها الخلفية .. وشوارعها المتسعة .. والتايمز يشقها متعرجا ، وقد رصت فوقه الكبارى .. تربط بين شطيه .

وهبطنا إلى المطار ، والساعة قد قاربت الخامسة ، وكانت هناك .. شمس وضوء ، وخضرة وزهور .

وملأنى إحساس بالفرحة ، وأنا أجد المدينة المعتمة ، التى لم أبصر فيها شعاع ضوء .. قد أشرقت شمسها ، واخضرت أوراقها .. وتفتحت زهورها .

وهممت أن أقول لأبى أن كل شىء مشرق .. مضىء ، يبعث على التفاؤل .. ولكنى لذت بالصمت فقد أحسست أنه يخشى إغراقى فى التفاؤل .

وسرت بجواره وأنا لا أحس بتعب الرحلة ، وصعدنا سلم المطار .. وأنهى « أبى » إجراءات الجوازات .. وعبرنا إلى قاعة الجمرك .

وبعد بضع دقائق كنا نقف فى الطابق السفلى وقد رصت حقائبنا على الباب .

ولم يبد أحد فى انتظارنا ، ولم نحس بالضياع الذى أحسسنا به فى أول مرة .

لم يكن هناك مطر ولا ظلمة .. وأكثر من هذا لم يكن بنا إحساس الغرباء .

وليس أبعث على الضياع من وجودك فى مكان لم تألف معالمه ، ولا تعرف فيه أين تذهب ولا كيف .

ونظر « أبى » إلى ساعته ثم قال :

ــ وصلت الطائرة مبكرة .. وانتهت الاجراءات بسرعة .. قد يكون الأستاذ جمال فى الطريق .. لننتظر برهة .

ومضت بضع دقائق .. وبدأ القلق على « أمى » .

وقال أبى :

ــ على أية حال .. المسألة بسيطة .. يمكننا أن نذهب فى « تاكسى » .. لقد سألته أن يحجز لنا فى البيت الأبيض حيث نزلنا أول مرة ، وأرجو أن يكون قد فعل .

وأردفت أمى قائلة :

ــ وإذا لم يكن قد حجز .. فلنتم نحن بالحجز .

ورد أبى يحاول أن يسهل الأمور :

ــ سيكون كل شىء على ما يرام .

واتجه إلى الخارج ليطلب « تاكسى » ، وقبل أن يرفع يده مشيرا لإحدى العربات .. وجدنا الأستاذ جمال يقبل علينا فى عجلة ولهفة وهو يعتذر قائلا :

ــ متأسف جدا على هذا التأخير .. لقد عطلنى موعد فى السفارة ، والطريق لا يحتمل فى ساعة الازدحام هذه

ثم أقبل علينا يحيينا بحرارة وهو يستطرد قائلا :

ــ كنت أعتمد على تأخير الطائرة ، ولكن يبدو أنها خذلتنى وجاءت مبكرة . الحمد لله على السلامة .

ورد عليه « أبى » وهو يشد على يده شاكرا .

ــ تعودنا على إزعاجك .

ــ بالمرة .. تفضلوا .

ووضعت الحقائب فى العربة . وبعد برهة كانت تنطلق بنا إلى المدينة .

وبدا كل شىء من حولنا نظيفا ، والأشجار على جانبى الطريق قد كستها زهور بلون وردى فاتح ، وحدائق البيوت على الجانبين قد أطلت منها الزهور .

ولون السماء قد بدت زرقته .. لم تفلح السحب المتناثرة هنا وهناك فى إخفائها ، ولا فى حجب أشعة الشمس عن الأرض الخضراء النظيفة .

ولم أطق الصمت .

ليقل « أبى » عن تفاؤلى ما يقول .. إنى أحب كل هذا الذى أراه من حولى .

وقلت فى فرحة بادية :

ــ لم أتصور البلدة جميلة هكذا .. لكأنى لم أرها من قبل .

ورد الاستاذ جمال ضاحكا :
— لابد انك رأيتها فى أسوأ أوقاتها ؟
ورد ابى مؤكدا :
— فى يناير وفبراير .
واجاب جمال :
— معك حق .. إنها تبدو كئيبة معتمة خلال تلك الشهور .
وصمت برهة ثم اردف قائلا :
— على اية حال هذا جو غير طبيعى .. لم يصادفنا صيف بمثل هذا الدفء والإشراق .. لقد بدأ الناس يستلقون فى الحدائق بالمايوهات .
وقال ابى ضاحكا :
— هذه فرصة طيبة .. للنزهة فى الحدائق .
وبدانا ندخل وسط المدينة ، ولم استطع بالطبع ان اذكر شيئا من معالمها .. كانت الظروف التى احاطت بمرورى فى طرقاتها فى المرة السابقة .. كئيبة مظلمة .
حتى مررنا بالميدان ذى التمثال العالى .. حيث يحتشد الحمام حول نافوراته ، وذكرت وتفتك والحمامة على راسك .
وهتفت فى فرحة :
— ميدان الحمام .. هل تذكره يا ابى ؟
وقال جمال يعرفنا به :
— هذا ميدان ترافلجار .. او الطرف الاغر ، وهذا تمثال نلسون .
وردت « امى » قائلة :
— لقد زرناه مع حمدى .. إنى اذكره جيدا .
واردفت تقول وهى تتنهد فى حسرة :
— وحشتنا الست لطيفة .
وشرد ذهنى إليك .. فى لهفة وشوق ، وتمنيت لو اغمض العين وافتحها لأجدك امامى فى الميدان .. نطعم الحمام سويا .

واجتازت العربة الميدان متجهة إلى الفندق .
وبدا لى الناس فى الطرقات اقل اندفاعا ، واهدا خطا بعضهم يتسكع امام الفاترينات ، والبعض يغازل .
واحسست ان للجو اثره العجيب فى اخلاق الناس ..
فى اول مرة .. والثلوج تتلاحق على وجه الارض ، والمطر ينهمر ، والريح تعصف .. كان الناس يندفعون ، كالمطاردين .. لم يكن احدهم ينظر للاخر .
وفى هذه المرة .. والشمس قد اشرقت ، والجو قد دفىء هدات خطاهم ، وبدأ البعض ينظر إلى وجوه البعض .
ولو ازداد الدفء واشتدت الحرارة لاستلقوا فى كسل واسترخاء على الارصفة .
ووقفت العربة اخيرا على باب الفندق .
وبدت زهور الأورتنسة والتوليب تملأ مدخله ، وتكاثفت الأشجار فى ميدانه الصغير .
ولم يبد هناك شىء قد تغير من معالم المكان .. سوى الازدهار والخضرة ، وبطء خطا الناس .
وجلسنا فى الردهة فترة .. حتى اتم ابى والأستاذ جمال إجراءات الفندق .
واقبل الحمال العجوز يحمل الحقائب ، ولم يكد يرانى حتى هتف بى محييا :
— من زمن طويل لم نر السيدة الصغيرة الجميلة .. عشر سنوات ؟
واجبته ضاحكة :
— ثمان سنوات .
وهز راسه واجاب يقول ساخرا :
— عشرة او ثمانية .. لا تختلف كثيرا .. بالنسبة لعمرنا .. لقد منحتنا المزيد من الوهن ، ومنحتك الكثير من البهاء والجمال .

وقلت له مؤكدة :

ــ لم تفعل فيك السنون شيئا .. تبدو كما أنت أو أكثر شبابا .

ــ شكرا .. شكرا .. فى هذه السن يكفى ان يظل الإنسان كما هو .. لم نعد فى حاجة إلى الشباب .. المهم ان نبقى كما نحن .. يكفى هذا جدا .

ونظر إلى ســاقى ثم قال :

ــ وكيف حال ساقك ؟

ــ سأحاول عملية اخرى .

ــ ستنجح هذه المرة .. تبدين احسن بنية ، واقوى إرادة ، واشد تفاؤلا .. ليساعدك الله .

واتجه بالحقائب إلى الحجرة ، وكانت هذه المرة فى الدور الأرضى .. جناح من حجرتين للنوم ، وحجرة جلوس ، يطل على مدخل الفندق ، وعبرنا الممر المفضى إلى الجناح .

نفس الممر الذى يقوم على يســاره حانوت البقــال والخضروات والفاكهة وكل ما يحتاج الإنسان للطعام تباع بطريقة اخدم نفسك .. أنيق لطيف كصالون الحلاقة الذى يجاوره والذى يبيع الحلى والعطور فى احد اقسامه ، وفى المواجهة فى الناحية الاخرى من الممر حانوت الخردوات والصيدلية .

وبجوار الصيدلية مباشرة يوجد باب الجناح الذى نزلنا فيه .

واحسست بونس وأنا أجد جناحنا قرب الجوانب الأنيقة ، وتملكنى إحساس بالألفة والفرحة وأنا أفتح إحدى النوافذ واجدها تطل على الحديقة الصغيرة التى تقع فى مدخل الفندق وأبصر الميدان باشجاره الخضر والناس يروحون ويغدون فى الطريق .

كل شىء كان يبعث على الفرحة والتفاؤل ، وتمنيت ان اجلس لأكتب إليك .. واحدثك عن كل ما رأيت ، كيف يبدو جميلا مشرقا .. يملؤنى بالأمل فى الحياة والرجاء فى المستقبل .

وانهمكت « أمى » فى مهمتها التقليدية ، تنظيف الدواليب ، وترتيب

الملابس فيها ، ورحت أعاونها فى رص الملابس ، وخرج أبى يطلب من إدارة الفندق أطباق وكوبات ومهمات للمطبخ .. ثم صحبته بعد ذلك إلى حانوت البقالة ، وأمسك هو بالسلة المعدنية ورحت أنا اضع البضائع فيها .

وابتعنا أشياء كثيرة .. لمجرد أننا رأيناها أمامنا ، جميلة العرض أنيقة التعبئة .

وعدنا إلى « أمى » ، بالعلب والأطعمة والفواكه .. وبأشياء كثيرة من حانوت الخردوات والصيدلية .

ونظرت أمى إلى أبى فى أسف وهزت رأسها وتساءلت ساخرة :

ــ ماذا أصنع فيك ! ؟ أتنوى أن تفتح حانوتا ، تضارب به الحوانيت المجاورة لنا ؟

وأجاب أبى معتذرا :

ــ هذه أشياء سنحتاج إليها كلها .

ــ ولماذا تحضرها مرة واحدة ! ؟ أتظننا فى صحراء ، أم أن الحوانيت ستغلق بعد ذلك ؟

وكرهت ان يشعر أبى بالخطأ .. لا سيما وأنا شريكته فى الذنب ، فقلت لأمى :

ــ لن يفسد منها شىء ، ولدينا ثلاجة .. لماذا لا نشترى حاجتنا مرة واحدة ، بدل ان نذهب كل برهة لنشترى شيئا ؟

وهزت « أمى » رأسها وقالت ببساطة وهى ترص الأشياء :

ــ سخيفة .. مثل أبيك .

وضحك « أبى » وهو يرى أن لوم أمى قد انتهى إلى هذه النتيجة .

وبدأنا الاستعداد للحمام .. ثم استمتعنا بالاستحمام والاسترخاء .. وقد ملأنا إحساس بأننا فى نزهة ، ولسنا فى رحلة علاج .

ولم نكد نسترخى .. حتى بدأت الأذهان تنطلق فى بيداء الوساوس .

ولم اشك أن الطرفين الآخرين .. أبى وأمى ، ولا سيما الأخيرة .. قد انطلقا ليستعرضا جميع الاحتمالات .. بأسوأ ما فيها من افتراضات .

وكنت – بلا جدال – اقلهم إحساسا بالهم .. كان التفاؤل يملأ قلبى ، والأمل المشرق يضىء جوانحى .

لم تستطع اليد التى تتحسس مفتاح الضوء فى انفسنا لتغير حالنا .. ان تجد المفتاح بسهولة لتطفىء الضوء الذى ملأت به نفسى .

مسة الضوء التى اضاءت بها جوانحى .. كانت اقوى من كل شىء .

حتى لكانك اضاءت نفسى ، واحتفظت بمفتاح الضوء حتى لا يعبث به احد .. فيعيد إلى نفسى الظلمة .

كنت احس بان الله – فى هذه المرة – يقف بجانبى ، وانه إذا كان قد نسينى مرة .. فهو – كما قالت حفيظة – سيذكرنى مرات .

لقد ذكرت ما تقوله لى دائما .. بأن الله يحبنى ، وان علىّ ان اومن بانه لن يتخلى عنى ، وانه إذا اصابنى بضرر فلأنه يدفع به ضررا اشد .

لم يكن بى خشية .. من المستشفى ولا من العملية ، ولا من اشباح الليل التى كنت اراها تطل علىّ من نافذة الحجرة الصغيرة بالمستشفى .

كان الإيمان يملأ نفسى .

الإيمان بكل شىء .. بالله ، وبالحياة .. وبك ، وبمصيرنا المشترك الذى بت احس – من فرط ثقتى بك – انه بات امرا مقررا .

التجـربة الثـانيـة

ذهبنا فى الصباح للقاء الطبيب .

وعبرنا الميدان الصغير متجهين يمينا إلى طريق « مارى ليبون » الذى يقع فيه المستشفى ، وبدت « ريجنت بارك » على يميننا مترامية الأطراف رحبة الارجاء .. تكاثفت اشجارها واكتظت زهور الداليا فى احواضها .

وقلت لابى فى دهشة :

– انظر كيف تبدو الحديقة !

– رائعة !! اتذكرين كيف تركناها آخر مرة ؟

– لا تذكرنى .. ما ظننت يوما ان الحياة يمكن ان تبعث فى غصونها الجرد النابتة من صفحة الجليد .

وعند اول علامة مرور قبل ان نصل إلى المستشفى اتجهنا إلى الجانب الآخر من الطريق ولففنا الميدان الدائرى حول المتنزه الصغير وسرنا يسارا فى طريق بورتلاند حتى وصلنا إلى عيادة الطبيب .

وعبرنا الباب الكبير ووقفنا فى مدخل المبنى المفروش بالسجاجيد الحمر .. نطرق باب الشقة .

واحسست ان الزمن لم يمر .

لقد بدا كل شىء كما كان فى اول زيارة .. حتى الحارس الأنيق الذى قادنا إلى الباب اول مرة والذى ظننته احد اللوردات او الوزراء

.. قد بدا كما هو .. يقبع على مقعده فى احد جوانب المدخل ، واكتفى هذه المرة بأن يمنحنا إيماءة من رأسه .. دون ان يكلف نفسه مشقة النهوض ، وهو يرانا نتجه إلى الباب مباشرة دون أن تبدو علينا حيرة المرة الأولى .

وبعد لحظة فتح الباب وبدت الممرضة التى يملأ وجهها النمش تنظر إلينا متسائلة .

ورد « أبى » على نظراتها المتسائلة قائلا :

ــ لدىّ موعد مع الدكتور .

ــ باسم من ؟

ــ الآنسة سهير عبد الهادى السمان .

وبدت على وجه الممرضة علامات الترحيب والمعرفة ، وابتسمت وهى تفسح الطريق قائلة :

ــ تفضلا .

ووجهت الحديث إلىّ متسائلة فى رفق :

ــ كيف حال ساقك ؟ . مضت مدة طويلة منذ آخر مرة رأيناك فيها .. أرجو أن تكون ساقك أحسن .

ولم تنتظر ردى بل أشارت إلى ركن المدخل الذى رصت فيه المقاعد حول المدفأة قائلة :

ــ دقيقة واحدة .. سأخبره بحضوركما .

واتجهت إلى حجرة الطبيب وقد بدا عليها الترهل والامتلاء ، واتخذ جسدها شكل السيدات الأمهات .

ونظرت حولى .. أتشاغل بمراقبة المكان .

ولم يبد عليه تغير يذكر .

نفس الصورة .. نفس الأثاث ، وممرضة تصعد من سلم القبو تحمل لوحات الأشعة وتختفى وراء باب مغلق .

والمدفأة قد غطت فتحتها لوحة أخفت بقايا الحطب فى باطنها ،

ووضعت أمامها سلة ملئت بالزهور .. والضوء يتسرب من النافذة ليطغى على أشعة المصباح الكهربائى الذى أضىء بحكم العادة .

وبعد برهة فتح الباب وأقبلت الممرضة تدعونا للدخول .

وفى طريقنا إلى الباب التقينا بمساعد الطبيب .. بقامته الطويلة وجسده الضخم .. وشعيرات بيض تسللت إلى فوديه .

وميزنا الرجل لأول وهلة وهتف بنا مرحبا :

ــ هالو .. كيف أنت الآن ؟

وابتسمت قائلة ببساطة :

ــ أريد عملية أخرى .

ورد الرجل الطويل الطيب قائلا :

ــ ونحن على استعداد .

وأردف « أبى » متسائلا فى قلق :

ــ نفس العملية السابقة ؟ عملية التربيع ؟ أليس كذلك ؟

وابتسم الرجل قائلا وهو يشير إلى الداخل حيث الطبيب الكبير .

ــ إنها مسألته هو .

ورد « أبى » فى ضيق :

ــ أرجو ألا يعيد المناقشة السابقة ، وإلا يعارضها بشدة كما عارضها أول مرة .

وقال الطبيب الشاب فى هدوء دون أن يعطى « أبى » ردا شافيا :

ــ أرجو ذلك .

وقال « أبى » فى إصرار :

ــ لقد كان على استعداد لأن يجريها مرة ثانية .

وربت الطبيب على كتف « أبى » قائلا وهو يتجه إلى حجرته :

ــ لا تقلق .

واتجهنا إلى حجرة الطبيب وقد بدا القلق على وجه « أبى » وفتحت الممرضة الباب ، ودخلنا إلى الحجرة .

لم يكن بها من جديد .. سوى مزيد من ضوء النهار ، وزهور حجبت جوف المدفاة الأسود .

والرجل الطويل المجوز يقبع وراء مكتبه بحاجبيه الكثيفين والشعيرات الحمر الدقيقة تتعرج على طاقتى انفه .

ونهض الرجل مرحبا مادا يده من وراء مكتبه ، وقال ضاحكا وكأنه كان ينتظر قدومى طوال الثمانى سنوات الماضية :

ــ عدت ثانية ! ؟

ورسمت ابتسامة على شفتى ولم ادر بم اجيب .

كنت احس برهبة من الرجل ومن مبضعه الذى يوشك ان يشق ساقى ، ولم يبد ان الرجل ينتظر منى ردا فقد اقبل علىّ من وراء مكتبه ونظر إلىّ يتفحصنى من أسفل إلى اعلى وقال وكأنه يتحدث عن فرس تعرض للمبيع :

ــ نموتِ كثيرا !!

وقال « ابى » معلقا على قوله :

ــ ثمان سنوات .. ليست بالقليل .

وقال الطبيب وهو يشير بيده إلى آخر الغرفة :

ــ امشى قليلا .

وسرت أمامه جيئة وذهابا وقد تملكنى الاضطراب وانا احس ان ساقى تلف حول الأخرى .. وهو يرقبنى فاحصا ثم اشار لى بالوقوف قائلا :

ــ كفى .

واقترب منى ثم اردف برفق :

ــ اخلعى المشد .

وجلست على المقعد وركع « ابى » بجوارى يساعدنى على فك المشد والطبيب يرقبه وهو يحس بمدى لهفته علىّ .

ونهضت اتوكأ على ذراع « ابى » حتى الفراش الصغير فى ركن

الحجرة .. ورقدت فوقه ، وكشف الطبيب ساقى واخذ فى فحصها .

ومضت فترة قصيرة وهو منهمك فى الفحص والقياس ، و « أبى » يقف على مقربة منه وقد بدت على وجهه اقصى آيات القلق .

وعاد الطبيب إلى مقعده ، وجلست الممرضة على المقعد المنخفض امامه وقد امسكت بملف فى يدها واعدت القلم لكتابة تعليماته .

واخذ الطبيب يطرق المكتب بقلم فى يده طرقات منتظمة ، و « أبى » قد علق بصره بشفتيه ينتظر فى لهفة ما يوشك ان ينطق به .

وتشاغلت انا فى ربط المشد وانا ارهف السمع وقد تملكنى الندم ان اضعه مرة اخرى فى تيار جارف من القلق والخوف .

ونطق الطبيب قائلا فى تؤدة :

ــ كان يجب ان تجرى عقب العملية الأولى مباشرة .

واخذ نفسا قصيرا ثم اطلقه فى زفرة تنم عن الضيق ، ولم يستطع ابى ان يستر علامات التجهم واليأس التى علت وجهه من حديث الطبيب الذى لا ينم على خير .

واستطرد الطبيب يقول ببطء :

ــ على اية حال .. ليس من المتعذر إجراؤها .

وكانت لهجة الحديث لا تملأ النفس ثقة ، ولكنها كانت خيرا من لا شىء .

وتساءل « ابى » فى قلق :

ــ العملية نفسها ؟

واجاب الطبيب باختصار :

ــ طبعا .

وعاد « ابى » يتساءل فى شىء من الإلحاح :

ــ عملية تزريع وتر العضلة السليمة فى وتر العضلة المشلولة ؟

وهز الطبيب راسه موافقا :

ولم يطمئن « ابى » تماما حتى سأل سؤاله الاخير قائلا :

ــ وليست عملية تثبيت مفصل الكاحل ؟

وضحك الطبيب هذه المرة واجاب قائلا :

ـــ لم تنس معلوماتك بعد ! ؟

وصمت برهة وهو يرمق « ابى » فى شىء من الدهشة وقال فى هدوء :

ـــ ما زلت اذكر مناقشتنا الاولى ، ولست انوى ان اعيدها ثانية .. أنا ما زلت ضد عملية التزريع بشدة ، ولكنى اعرف ايضا انك تريدها بشدة ، وكما سلمت لك فى المرة الأولى .. اسلم لك فى هذه المرة .

ونظر إلىّ الطبيب باسما فى إعجاب وهو يقول لأبى مازحا :

ـــ مستنداتك هذه المرة اقوى .

ثم استطرد يقول فى لهجة مغازلة :

ـــ هذا الشىء الجميل يجب الا ندع نقصا يشوب جماله .

ولم استطع ان اوقف الدم المتصاعد إلى وجهى حياء ، ولم اعرف بماذا اجيب .. فانا لم اتعود الرد على غزل .

لم يغازلنى من قبل احد .. حتى انت .

وابتسم « ابى » ، وانتقلت إلىّ عدوى الابتسام ، ووجدت نفسى اقول ببساطة للطبيب الكبير المجامل :

ـــ شكرا .

وهز الرجل راسه قائلا :

ـــ سابذل كل ما املك من جهد ، وارجو ان انجح .

وقال « ابى » بإيمان عميق :

ـــ ستنجح إن شاء الله . لست اعرف كيف اشكرك .

ـــ لم افعل شيئا بعد استحق عليه الشكر .

ـــ لقد بعثت فى نفسى الطمانينة .

ـــ طمانينة الوهم لا تكفى .

ـــ ولكنها تريح .

ـــ حسن . ليعيننا الله .. حتى نجعل من الوهم حقيقة .

ثم وجه الحديث إلى المرضة قائلا :

ـــ نحجز الحجرة فى المستشفى غدا ، وساجرى العملية بعد غد .

ونهض الرجل ومد يده مودعا وهو يقول :

ـــ نلتقى بعد غد .

وشددنا على يده المعروقة ذات الأصابع الطويلة .. ثم غادرنا الحجرة وانطلقنا إلى الطريق .

وفى عصر اليوم التالى كنا نتجه إلى المستشفى .

لم يطف بنا احد شوارع لندن ليرينا معالمها ، ولا دعانا احد للعشاء ولا احتفى بنا احد .

ولا اظننا كنا فى حاجة إلى شىء من هذا .. فقد آوى كل منا إلى فراشه مبكرا مستسلمين إلى الظنون مغرقين فى الأوهام .

وكنا بلا شك اقوى اعصابا هذه المرة .

لم يكن هناك خوف من مجهول .

وكانت التجربة السابقة على قسوتها قد اعدتنا للقاء التجربة الثانية ، بقلوب اهدأ ، ونفوس أكثر ثباتا وشجاعة .

كنا نعرف ماذا سيحدث لنا فى كل خطوة .

وصلنا إلى باب المستشفى .. وتجاوزنا بائع الزهور ، وحيانا الحارس الطويل برقة وقادنا إلى غرفة الاستعلامات الصغيرة على يسار الباب ، وبعد ان فحص السجل وكتب بضعة اسطر رفع راسه قائلا :

ـــ حجرة ٥١٤ .

واحسست بشىء من الضيق وانا أجد ذاكرتى ما زالت تعى نفس الرقم .. رقم الغرفة السابقة الضيقة التى رقدت فيها خلال العملية الاولى والتى كان « ابى » لا يعرف كيف يتحرك فيها .. ولا اين يجلس إذا ما زاد عدد الزوار على اثنين .

ولمح « ابى » مظاهر الضيق علىَ وجهى وهز راسه متسائلا عما بى .. فقلت فى غير اكتراث :

ـــ نفس الغرفة السابقة .

ــ كيف عرفت ؟
ــ ما زلت أذكر الرقم .
ــ غير معقول .
ــ سترى .

واتجهنا إلى المصعد يحمل « أبى » حقيبة ملابسى وتحمل « أمى » سلة من الورق تحوى علبة شيكولاتة وبسكويت وبعض الفاكهة .

وفتح باب المصعد وتوقعت ان ارى الحارسة العرجاء الطيبة ذات الوجه البشوش والفم الباسم .

لم اكن احس ان هناك شيئا قد تغير .. كان كل شئ كما تركته حتى لكأن غيبتى لم تتعد اياما .

وساءنى انى لم اجد الحارسة العرجاء ، ووجدت بدلا منها حارسة اخرى ذات وجه اشبه بالرجال .

ولم تبتسم ، وسالت « أبى » فى صرامة :

ــ أى دور ؟

ــ الخامس .

ووجدت « أبى » يسأل السؤال الذى كنت اود ان اسأله عن الحارسة العرجاء .

قال متسائلا فى ادب والادوار تتوالى امام باب المصعد :

ــ اين مسز مرجريت ؟

ولم تجب الحارسة ذات الوجه الرجالى وكأن السؤال لا يعنيها .

وعاد « أبى » يقول بنفس الادب والرقة :

ــ لقد كانت تعمل هنا منذ ثمان سنوات .

ونظرت الحارسة إلى « أبى » واجابت ببساطة :

ــ ماتت .

وانتابنى الضيق .. كنت أود أن القاها .. كانت تبعث فى نفسى الأمل دائما بابتساماتها المشجعة وكلماتها الرقيقة وحديثها عن ابنها الذى تهشمت ساقه ثم أصبح بعد ذلك بطلا فى كره القدم .

وفتحت الحارسة الباب قائلة فى لهجة صارمة :

ــ الدور الخامس .. شكرا .

وسرنا فى الممر الطويل بجدرانه البيض وممرضاته اللاتى يتحركن فى عجلة كأنهن عربات تمرق فى الطريق .

وقبل آخر الممر انحرفت بنا الممرضة التى تقودنا حتى وقفت بنا امام الحجرة رقم ٥١٤ .

ونظر « أبى » إلى الممرضة وتساءل فى ضيق :

ــ الا توجد غرفة غير هذه ؟

وابتسمت الممرضة واجابت فى رقة :

ــ هذه هى الغرفة المحجوزة لكم .

ــ الا توجد حجرات اكبر من هذه ؟

ــ يمكن الاتصال بالمكتب من أجل هذا .

واشارت الممرضة إلى داخل الغرفة قائلة :

ــ تفضلوا وسأقوم بالاتصال بالمسئولين فى المكتب من أجل تدبير غرفة اكبر إذا كانت هناك غرف خالية .

ودخلنا الغرفة .

لم أجد بها شيئا جديدا .

الفراش يتوسطها ويقسمها قسمين ، والحوض يجاوره صندوق الغسيل القش الذهبى المستطيل الذى كان يجلس عليه « أبى » .. والدولاب ومقعد القش الكبير أسفل النافذة .

حتى ستائر النافذة التى تبدو الجدران الداكنة من ورائها تتدلى بنفس لونها الحائل كأن لم تمتد إليها يد بالتغيير خلال السنوات الثمانية .

عجبا لهؤلاء الإنجليز !

وعجبا لكرههم للتغيير والتبديل .

هذا المستشفى الكبير لم يتغير به شئ سوى الممرضة العرجاء .. لأنها ماتت !!

ولعل وضعى فى هذه الحجرة بالذات .. لم يكن من قبيل الصدفة .. بل كان إعادة للشئ إلى موضعه ، ولو بعد ثمان سنوات .

ولم تحاول « أمى » فى أول الأمر أن ترص الثياب .. فقد كانت تنتظر تبديل الغرفة .. ولكن الممرضة الرقيقة السريعة الخطوات اقبلت علينا لتعتذر قائلة :

— ليس هناك غرفة خالية فى المستشفى سوى هذه فى الوقت الحاضر .. وقد وعدت رئيسة المكتب بالنقل إلى غرفة اكبر بمجرد ان تخلو إحدى الحجرات .

وهز « أبى » رأسه مستسلما وهو يقول :

— سنستقر هنا .. لقد الفنا هذه الغرفة ، ولعلها تمنحنا حظا افضل هذه المرة .

وكانت « أمى » قد بدأت فى فتح الحقيبة ، ورص الملابس دون ان تنتظر استكمال المناقشة بين « أبى » والممرضة .

وسارت الأمور بعد ذلك فى مجراها المنتظر .

لم يختلف شيء عن المرة السابقة .. سوى غيبة خالتك وزوجها ؛ وهما — إذا قيسا بما فعلاه لنا اول مرة — شيء كبير خطير .

لقد كانا عنصرا مخففا للتوتر والضيق والقلق ، افتقدناه كثيرا هذه المرة ، ولم يخفف من افتقادنا له ســـوى اعتيادنا التجـــربة ، والتفاف الأصدقاء والمعارف الموجودين فى لندن حولنا قبيل العملية وبعدها .

ولست اظن هناك من جديد يذكر فى التجربة الثانية .

نفس الحقنة المهدئة قبل العملية ومسح ساقى وربطها بالشاش .. ثم نقلى بالفراش إلى الطابق العلوى ، وإشارتى لأبى اشجعه وقد بدا عليه الحزن والجزع ومحاولة التماسك والتجلد .

وماذا أيضا ؟ !

لا شيء حتى أفقت من المخدر .. لأجد وجه « أبى » يطل علىّ وهو يحاول الابتسام .

واهتز وجه « أبى » وبهتت معالمه ولفته موجة ضـــباب غمرت الكائنات من حولى ، واحسست بتثاقل جفنى وكان حملا شديدا يشدهما إلى اسفل ، وازداد الحمل المعلق بجفنى حتى احسست بنفسى اغوص تحت وطأته .

ورحت ابذل جهدى لكى اطفو مرة ثانية .. وعدت أشد جفنى إلى اعلى حتى استطعت ان افتح عينى ، واستطعت ان ابصر وجه « أبى » من جديد وقد علته ابتسامة مشجعة وكأنى به يحاول انتشالى من هوة عميقة أغوص فيها .

وسمعت صوته يأتى من بعيد :

— سهير .

وحاولت أن اجيبه ، ولعلى افلحت .. فقد رأيت الابتسامة تزداد اتساعا على شفتيه ، وسمعت صوته يأتى من أعماق الجب الذى بدا لى وكأنه ملقى فى قراره :

— كيف حالك يا حبيبتى ؟

ورسمت ابتسامة على شفتى فقد وجدتها اســـهل على قواى المتداعية من محاولة النطق .

ومد « أبى » يده يتحسس جبينى ثم انحنى يقبلنى فى رفق شديد وهو يهمس :

— حمد الله على السلامة يا حبيبتى .

وبكل ما املك من جهد رفعت ذراعى احاول عناقه .. ولكن ذراعى سقطت متهاوية إلى جانبى فى منتصف الطريق إليه .

وهتفت متهالكة احاول الاعتذار عن عجزى :

— أنا متعبة .

— لا بأس يا حبيبتى ، استريحى ، بعد برهة ستتمالكين قواك ، لا تتعبى نفسك .

واطلقت زفرة حارة ، وانا احس بحلقى يجف .. واخرجت لسانى ابلل به شفتى ، واشرت بعينى إلى صنبور المياه فوق الحوض .

وهز « أبى » رأسه قائلا :

— دقيقة واحدة يا حبيبتى .

ثم دق جرس الممرضة فأضاء النور الأحمر .

وقبل أن تأتي المرضة اطل وجه « أمي » من فتحة الباب وقد بدت عليها صفرة الموت .

وهتفت بأبي قائلة :

— ماذا بها ؟

— لا شيء .. لقد أفاقت .. ادخلي .

واقبلت « أمي » ، ولمحت الدموع تنساب على خديها .. وكأنهما قد أصبحا مجرى طبيعيا للدموع ، وحاولت جهدها وهي تزدرد ريقها وتبتلع دمعها أن تبتسم .

وكنت أسبق منها إلى الابتسام ، ومنحني الله القدرة على الحديث حتى أخفف جزعها .

قلت أحاول المزاح :

— قطرة ماء ، وأعطيك مصروفي الشهري .

وهتفت « أمي » من قلبها :

— سلامتك الف سلامة ، ليتني كنت بدلك يا حبيبتي .

واقبلت المرضة النحيلة الجسد ، السريعة الخطوات ، تطل براسها وتضغط على الزر لتطفيء النور الأحمر متسائلة في صوت خافت :

— هل افاقت ؟

ورد أبي :

— أجل .. وتريد أن تشرب .

ودخلت المرضة وهي تغلق الباب وراءها قائلة :

— سأعطيها بضع قطرات .

ثم اقبلت عليّ بكوب الماء وهي تبتسم قائلة :

— بمجرد أن تشعري بألم في قدمك .. اخبريني حتى اعطيك قرصين مهدئين .. لا نريدك أن تشعري بأي ألم .

ورشفت قطرات الماء في لهفة ، وبدأت أحس بالوخز في قدمي .. أو هكذا خيل إليّ بمجرد أن تحدثت المرضة عنه .

وأطلقت أول آهة ، وسألني أبي :

— أهناك ما يؤلمك ؟

وأشرت برأسي ، فضحكت المرضة قائلة :

— لقد أوحيت إليكم بالألم .. لا بأس ، خذي القرصين واريحينا .

ومدت يدها إلى حقيبة « المرولة » ثم أخرجت زجاجة صغيرة منحتني منها قرصين ووجدتني أتلهف عليهما من أجل الماء الذي سأشربهما به .

ومدت المرضة يدها إلى شفتي بالقرصين ، ثم بكوب الماء ، وبلعت القرصين وحاولت أن أجرع المزيد من الماء ولكن المرضة رفعت الكوب عن شفتي بخفة قائلة :

— الاحتيال ممنوع .. لقد شربت ما يكفي لابتلاع القرصين .

ونظرت إلى أبي وأمي قائلة :

— دعوها تستريح .

ثم مدت يدها لتصلح القفص الحديدي الذي وضع في آخر الفراش ليمنع ضغط الغطاء على قدمي .

وذكرت الدماء التي نشعت من الجبس ، وأغرقت الملاءة في المرة السابقة وأحسست برجفة تسري في جسدي .

وأشرت لأبي فاقترب متسائلا في حنان :

— نعم يا حبيبتي .

وقلت له في ضعف شديد :

— الملاءة .

— مالها ؟

— أما زال عليها دماء ؟

واحسست كأني لدغت « أبي » في باطنه .. فقد بدا الألم على وجهه ، ولكنه سرعان ما تماسك ورسم الابتسامة على شفتيه قائلا بلا تفكير :

— بالطبع لا ..

ثم رأيته يقترب من المرضة ويحاول مشاركتها في إصلاح الفراش

اسفل القفص حتى يرى ساقى .. ورايت الطمانينة تسرى فى قسماته ، ورفع الغطاء عن القفص .. واستطعت ان ارى ساقى الموضوعة فى الجبس بيضاء نقية . بلا أثر لدماء عليها او على الملاءة .

واحسست بشىء من الطمانينة .. فلا شىء ابغض إلىّ من منظر الدماء .

ومر الوقت .. بعد ذاك .. كما مر بى من قبل ، وكما يمكن ان يمر بكل الناس الذين اجريت لهم عمليات بالمخدر .

العطش ، والغثيان ، والإحساس بالضعف ، والضيق ، والتبرم .. ووجوه الزوار تتوالى باسمة فى رقة ثم تنصرف ، وعيون الاهل تطل مشدوهة جزعة .. حتى حل موعد انصراف الزوار .. فانصرف الجميع .. عدا « أبى وأمى » .. اللذين جلسا يرقبان المشاعر التى ارتسمت على قسماتى .. ويترقبان لحظة إغفائى .

وكنت هذه المرة اكثر تماسكا .. فقلت لهما فى صوت منحته كل ما املك من قوة :

ـــ اظن ان الوقت قد حان للانصراف .

وقال ابى دون ان يكلف نفسه مشقة النظر إلى الساعة .

ـــ بدرى .

وبدت « أمى » زائغة البصر .. شاردة الذهن ، واطلقت من صدرها زفرة حارة ، وقالت فى اسى :

ـــ لماذا لا يسمحون لى بالنوم ؟ ! لم ار اسخف من هؤلاء القوم !

وقبل أن يجيبها « أبى » فتح الباب واقبلت ممرضة الليل ، كانت صغيرة ، سوداء الشعر ، حلوة العينين .

وقالت لأبى فى رقة :

ـــ حان الوقت للانصراف .

ثم اقبلت علىّ تمسك كفى فى حنان .. واستطردت تقول :

ـــ ساعطيك قرصا منوما .. ولن تلبثى حتى تستغرقى فى نوم

هادىء عميق حتى الصباح ، وسامر عليك بين آونة واخرى .. وإذا احتجت اى شىء فدقى الجرس .. آتى إليك حالا .

وكان ابى اكثر تجلدا هذه المرة .

لقد ذكرته فى المرة السابقة ، وهو يرقبنى فى جزع .. ويأبى ان يفارقنى .. ذكرت منظره بالمعطف والقبعة .. وممرضة الليل السابقة تحاول ان تقنعه بالرحيل .. وهو لا يكاد يصل إلى المصعد حتى يعود إلىّ ثانية .

وهز « ابى » راسه وهو ينهض إلى الدولاب ليخرج جاكتته ورباط عنقه ويقول للمرضة الصغيرة الحلوة :

ـــ سنتركها لعنايتك .

وابتسمت الممرضة قائلة :

ـــ لا تقلق .

وارتدى « ابى » الجاكتة واعدت « أمى » حقيبتها وتاهبا للانصراف .

وقبلتنى « أمى » وضممتها إلىّ وأنا أحس بدموعها الساخنة تمسح خدى ، وقلت لها :

ـــ أنا بخير .

ـــ دائما يا حبيبتى .

وقال ابى وهو يتحسس شعرى :

ـــ سآتى إليك فى الصباح المبكر .

ورسمت على شفتى ما استطاعت أن تمنحنى قواى من قدرة على الابتسام واجبت قائلة :

ـــ من باب الخدم ؟ !

ـــ ساضع القبعة على عينى وارفع ياقة الجاكتة .. هل تذكرين ؟

وهززت راسى والابتسامة ما زالت معلقة على شفتى .

وانصرف الاثنان .. واقبلت علىّ الممرضة بالقرص المنوم .

واستغرقت فى سبات لم استيقظ منه خلال الليل سوى مرة او مرتين .

وفتحت عينى فى الصباح .. على صوت الباب يفتح .. واقدام « ابى » تتسلل فى هدوء ، وقد حمل فى يديه صندوقا صغيرا اشبه بالحقيبة وبالأخرى مجموعة صحف .

وكنت احس بأنى افضل حالا .. خفت عن جفنى الأحمال التى كانت تثقلها بالامس ، ولم اعد احس ان جسدى يغوص إلى اسفل .

وهتفت بأبى باسمة :

— صباح الخير .

— اهلا سهير .. ما رايك فى الموعد ؟

— مدهش .. ليتك تحافظ عليه دائما .

— بل سآتى قبل ذلك .. لقد اخرنى اليوم انتظار الصحف .. لقد فضلت ان آتى بها إليك .. حتى تتسلى بقراءتها ، لقد اتى بها الساعى فى الثامنة والنصف ، واتى معها برسالة إليك .

ثم اخرج « ابى » من حقيبته مظروف بريد جوى ومد به يده إلى قائلا ببساطة :

— اظنها من حمدى .

وكان علىّ ان ابذل شيئا من الجهد حتى لا اصيح فرحة وحتى لا امد يدى لأختطف الظرف .

وبهدوء تسلمت رسالتك ، وبشىء من الاتزان والروية وضـــعتها بجوارى على الكومودينو ، وتساءلت وانا اشير إلى الحقيبة التى وضعها « ابى » على المنضدة :

— ما هذا ؟

— الريكوردر .. لقد أوصيت عليه صباح الأمس .. وصل بعد الظهر .. وكنت انوى ان افاجئك بتسجيل ما ستقولينه لى .

— ولماذا لم تفعل ؟

— يبدو لى انه سيكون لديك ما يشغلك عن الحديث .

وتساءلت فى دهشة :

— ما هو ؟

— القراءة .

— قراءة ماذا ؟

واجاب « ابى » ضاحكا وهو يشير إلى الكومودينو :

— الرسالة .

ونظرت إلى الرسالة بطرف عينى وقلت ادعى الرزانة :

— يمكنها ان تنتظر .

وضحك ابى قائلا وهو يمسك طرف أنفى مازحا :

— اقرئيها .. وكفى ادعاء للرزانة .

وجلس « ابى » على المقعد المريح ، وامسك بالصحف ، وبدأ يفحصها قائلا :

— سأنشاغل عنك بقراءة الصحف .. ولا تعتبرينى موجودا ، واقرئيها على مهل .

ومددت يدى إلى الرسالة ، وكأنى امد يدى لأصافحك ، وتمنيت لو استطعت ان الثمها او اضمها إلى صدرى ، ولكننى احسست بالحياء من « ابى » ، وانا أجده قد توارى وراء الصـــحيفة المنشـــورة امام عينيه .

ومضت برهة وانا اطبق عليها كفى .. حتى اطيل استمتاعى بها .

واحسست بامتنان لكَ .. لمجرد ان كتبت .

كنت احس بلهفة عليك .. وكنت احاول ان ابعدك عن تفكيرى .. وعن احلامى .. حتى لا يضعفنى الحنين إليك .

وكنت منذ جئت إلى المستشفى .. احس بحاجتى المفرطة إليك .

وعندما افقت من المخدر ، واطل على وجه « ابى » .. واهتز وراح فى الضباب الذى اغرقنى ، احسست بوجهك يختلط بوجهه برهة ثم يختفى .

وددت لو طال بقاؤه ولكنه كان ابدا يفلت فى الظلام .

حتى فى الحلم .. كنت اراه .. متبددا .. ضائع المعالم كالدخان ، او الضباب .

وكنت أعينه على التبدد فقد كنت أخشى ان يضاعف الحاجة علىّ .. إحساسى بالحرمان .

حتى وصلت رسالتك إلىّ .

فاخذ طيفك يتجمع فى ذهنى .. حقيقة جلية واضحة .. واحسست وانا امسك بك فى رسالتك .. انى اصافحك ، وارنو إلى عينيك ، واسند راسى إلى كتفيك .

وباصابع مرتعدة .. فتحت الظرف واخرجت الوريقات الخفيفة .. لاقرا ما بها .

مــزيد من الصبر

« .. سهير ..

اكتبها على الورق بعد ان همست بها لنفسى مئات المرات ، وانا ارقب الطائرة على وشك التحرك لعلى التقط وجهك من وراء إحدى نوافذها الزجاجية المستديرة .. واتبعها بناظرى وهى تتضاءل وتتضاءل حتى تختفى بك فى الفراغ الأزرق الشفاف .

واعود إلى الفندق فى الجبل لاخلو إلى نفسى فى الحجرة المطلة على الوادى الأخضر ، وهمساتك الأخيرة ملء اذنى ومسة كفك الصغيرة ما زلت احسها فى كفى ، وإحساس بالحزن يغمر نفسى ويعتم الدنيا من حولى .. وكانه موجة من موجات الضباب ــ او الغطيطة ــ التى تسرى فى الجبل فتغرقه فى الظلمة .

وكم اكره ان اجعل هذا الحزن الذى يغمرنى يتسرب إليك .

كم اكره ان ازعزع هذه الثقة التى تملأ نفسك .. والتى تحتاجين إليها فى تجربتك الجديدة التى تخوضين غمارها .

ولكنى لا استطيع ان ادفع عنى هذا الحمل الذى يجثم على قلبى وانا اجلس وحدى .. لاذكرك وانت تخوضين التجربة وحدك .

واسائل نفسى :

امن اجلى تخوضين هذه التجربة ؟

اكنت انا الدافع المباشر إليها ؟

واحس بالعبء الذى يجثم على صدرى يزداد ثقلا .. واعود لاسائل نفسى :

لماذا لم نخض التجربة معا ؟

امن العدل ان اتركك وحدك تخوضين غمار التجربة المريرة .. بعد ان ارتبط مصيرنا وتوحد طريقنا ؟

إنى برغم كل ما احس به من فرط الارتباط بك .. وبانك قد حملت معك فى رحلتك بعض نفسى وتركت لى بعض نفسك .. ورغم إحساسى الأكيد بأن بعد الشقة لا يمكن ان يعزل احدنا عن الآخر .. فإنى لا املك دفع ذلك الإحساس الذى يثقل على نفسى بالذنب .

إحساس بالذنب ، ليس لأنى تركتك تسافرين وحدك ، فما كنت املك فى ذلك حيلة ، وما كنت استطيع إلا التسليم بالواقع الذى فرضته علىّ فرضا بإصرارك على السفر وعلى خوض التجربة وحدك .

ولكن إحساسى بالذنب مبعثه .. اننى اخفقت فى ان انقل إليك حقيقة مشاعرى .. واقنعك بحقيقة موقعك فى نفسى .

وإلا لما اصررت ان تخوضى التجربة قبل الارتباط بى ، ولما تصورت .. انك لا يمكن ان تكونى سيدة الناس التى اراها فيك إلا بعد ان تجرى العملية وتشفى ساقك .

اترانى مسئولا .. عن كل هذا الوهم ؟

اجل .. لا جدال فى هذا .

لو اننى نجحت فى نقل مشـــاعرى إليك .. ولو انى استطعت إقناعك بحقيقة موقعك عندى لما كان بك من حاجة إلى ان تفعلى ما فعلت .. ولأدركت ان وضعك فى نفسى شىء معنوى كبير متكامل لا يمكن ان يعلق بتفاصيل شكلية ، ولا يمكن ان ينتقص من قدره .. شىء مادى مهما بلغ .

وانا اعترف بتقصيرى فى التعبير عن نفسى .

ولكن ماذا افعل وانا لا اجيد الحديث ، ولم امارس الحب من قبل ! ؟

وكنت اتوهم انه يكفى ان احس لك بإحساس لكى تعرف انه موجود .. دون حاجة منى لجهد التعبير عنه .

اجل .. لقد خلت هذا دائما .

خلت قلبى من الشفافية بحيث ينم على كل ما به .

وبدا لى .. انه ليس على سوى ان احس ، واترك لك مهمة التقاط الحس .

ولقد اديت مهمتى على اكمل وجه .

احسست لك اجمل الاحاسيس واطيبها وارقها .. احسست بك بطريقة .. لا اظن من السهل التعبير عنها ، حتى بالكتابة .

كنت احس بك كالنسمة الحلوة المنعشة فى يوم خانق ، او كاشعة الشمس فى يوم كئيب قاتم .. كلما رايتك او ذكرتك .. احسست بالراحة والسكينة والإشراق . وتملكتنى رغبة فى حمد الله على نعمائه ، وانت احداها .. إن لم تكونى اجملها واطيبها واجلها .

وكل شىء فيك جميل .. لفتاتك وهمساتك .. نظراتك ونبرات صوتك ، وابتسامتك الحلوة المعلقة على طرف شفتيك .. والتى تتسع لتكشف عن اسنانك البيض التى تمنيت لو قبلتها سنة سنة .

اعجيب ان اجرؤ على قول كل هذا الآن ؟

ام الاعجب انى لم اقله من قبل ؟

مهما كان الأمر .. ومهما بدا من جراتى .. فمن حقك علىّ فى وحدتك .. ومن حقى عليك فى حيرتى وقلقى أن تعـرفى .. كيف احببتك .

احببتك ؟ !

كيف تركتها تتسرب من شفتى بمثل هذه السهولة .. بعد ان تعثرت على لسانى عشرات المرات .. وانا اوشك ان انقل بها إليك بعض مشاعرى .. فلا يلبث حتى يبتلعها فى خشية وتردد .

منذ متى بدات تبدين لى شيئا مميزا ؟ ! .. وتتخذين فى نفسى موضعا خاصا ؟ !

هل ابالغ إذا ما قلت لك .. منذ لقيتك ؟ !

منذ سنوات طويلة .. عندما رايتك لأول مرة وانا اطوف بكم بمعالم لندن قبل ان تدخلى المستشفى .. احسست باستلطاف لك ، ومتعة من صحبتكِ .. مما جعل من الواجب الثقيل الذى كلفتنى به « عمتى » رحلة لطيفة .

ونأيت عنى طويلا بعد ذلك .. فلما التقينا ثانية فى القاهرة .. عدت لتؤكدى .. انك إحدى علامات حياتى المميزة .

وافترقنا مرة اخرى ، والتقينا من جديد لتؤكدى انك العلامة المميزة الأولى فى حياتى .. وترسمى لى معالم طريق مشرق الأرجاء باهر الآفاق .. تضعين لى بها املا يرتجى ، وهدفا أسعى إلى تحقيقه .. فى حياة لم احس فيها املا ولا حددت لنفسى فيها هدفا .. بل كنت أفعل الشيء لمجرد فعله .. كنت اعمل لأعمل ، وآكل لآكل ، واعيش لأعيش .. فإذا بى امارس كل هذا ، وفى الذهن امل جميل اتوق إلى تحقيقه .

الفارق بيننا عندما نحب وعندما لا نحب .. هو اننا .. نمارس حياتنا فى الحالة الثانية ، ونحن نستمد السعادة مما يستحق السعادة ، ونأخذ من كل عمل ما يمكن ان يمنحه لنا من متعة .. اما فى الحالة الأولى .. فنحن نمارس الحياة فى إحساس دائم بالسعادة .. تملأ قلوبنا فرحة نحسها بلا وعى .. نباشر كل عمل فى متعة لأننا نحس أن وراءه شيئا بهيجا ينتظرنا .. نغمض العين عندما ننام فى فرحة ، ونفتحها فى الصباح على فرحة .. نبدأ عملنا فى فرحة ، وننهيه فى فرحة .

وهكذا اصبحت أمارس حياتى .. بك .. بحبك ، بلا ادنى مبالغة او تزيد .

اترانى استطعت من قبل أن اقنعك بكل هذا ؟ وان اؤكد لكِ حقيقة موقعكِ من نفسى ؟

قطعا لا .

وإلا لما تركتنى وفررت .. لكى تخوضى غمار تجربة ، تظنينها اقدر على منحك وضعا اثبت فى نفسى .

يا حبيبتى .. يا سيدة الناس .. فى اى صورة كنت ؟ وعلى اى شكل اصبحت ؟ !

لشد ما احس بالضياع من فعلتك .. لشد ما احس بالحرج والاهانة .. أن تجعلى موقعك فى نفسى معلقا بشكل ساقك .

ومع ذلك لا اجسر ان الومك .

لأنى لم اعرف كيف اقنعك بمشاعرى وبموقعك عندى .

اترانى استطعت الآن ؟

لست ادرى .. لقد حاولت جهدى ، وإذا كنت قد عجزت .. فعذرى أن مشاعرنا اكبر دائما من قدرتنا على التعبير .

كل ما ارجو الا تجعلى موقعك من نفسى .. مجرد شكل .. فهو اكبر كثيرا من ذلك .. أنت معنى ضخم كبير .. يملأ حياتى كلها ، ويجعل منها شيئا ذا طعم ولون .

إنى اكتب إليك .. لأقول لك ما عجزت عن قوله فى وداعك المبتور الذى لم املك إلا ان اشد فيه على يدك واؤكد لك انى معك دائما ، وانى احبك كما انت .

ولقد بددت كتابتى إليك بعض ما لفنى من ضباب الحزن .. وعسى الا اكون قد بددته عنى لأثقل عليك به ، والا اكون قد رفعت عن كاهلى من الضيق ما وضعته على كاهلك .

يا حبيبتى .. الجميلة .. الشجاعة .. الطيبة .

لم ارد ابدا ان انتقص من عزيمتك .. او اضعف من شجاعتك وإيمانك .

ولكنى فقط اردت ان اؤكد لكِ .. أنى اخوض التجربة معك .. بكل ما املك من حب لك ، وإحساس بالارتباط بك .

نجاك الله وحقق املكِ فى الشفاء .. وجبر خاطر والديك الطيبين

الكريمين .. واعادكم إلينا جميعا راضين سالمين .

اكتبى إلىّ ولو كلمتين .. لتؤكدى لى انى لم اضايقك بكتابتى .. إن كنت فعلا .. لم اضايقك ... » .

ضايقتنى ؟ !

كيف تقول هذا ؛ وقد منحتنى من الفرحة والأمل والقوة .. ما كنت استطيع به ان انطلق من الفراش بساقى فى الجبس !

ما أظننى كنت فى حاجة وقتذاك إلى شىء .. حاجتى إلى كلماتك تلك .

لقد طويت رسالتك واغمضت عينى ، وقد تملكنى إحساس بسعادة عجيبة .

وسمعت « أبى » يهتف بى وقد وضع الصحيفة جانبا :

ــ مالك يا سهير ؟

وفتحت عينى وقلت له باسمة :

ــ لا شىء .

ــ متعبة ؟

ــ ابدا .

ــ لماذا اغمضت عينيك إذا ؟

وزادت ابتسامتى اتساعا وهززت رأسى فى صمت .

وضحك « أبى » وتساءل فى خبث :

ــ سعيدة ؟ !

ــ اجل .

ــ من الرسالة ؟

وهززت رأسى قائلة وأنا ابتسم :

ــ من كل شىء .

وربت « أبى » يدى فى رفق .

وارسلت تنهيدة راحة واستطردت اقول :

ــ احس ان الدنيا مشرقة من حولى .

ووجدت نفسى من حيث لا ادرى استعير تعبيرك الذى قارنت به مشاعرنا عندما نحب وعندما لا نحب وقلت لأبى فى لهجة حالمة :

ــ كل شىء يبعث فى النفس الرضاء .. احس دائما ــ من حيث لا ادرى ــ انى انتظر شيئا جميلا .. لست ادرى له ؟ !

احقيقة كنت لا ادرى ما هو الشىء الجميل الذى احس انه ينتظرنى دائما ؟ !

أم منعنى الحياء من ان اقول لأبى انك تكمن وراء كل هذه الأحاسيس الطيبة التى تملأ نفسى ، وتجعل الدنيا مشرقة من حولى ! ؟

وامسك « أبى » بيدى واطبق عليها كفه وكأنه يضمنى إليه ليقينى عادية الزمن .. وادركت انه يبذل جهدا ليطرد من رأسه كل هواجس الخوف ، ورسم على شفتيه ابتسامة وضع فيها كل ما يملك من تفاؤل قائلا :

ــ كل ما ينتظرك جميل يا حبيبتى .. ستشفين .. وتعودين سالمة ، وسيحقق الله كل آمالك .

واستطرد « أبى » يتحدث بلهجة العجائز ويرسل الدعوات على طريقة « حنيفة » قائلا :

ــ انت مخلوقة طيبة .. وتحبين الناس .. إن الله لن يخذلك ابدا .. ستمر التجربة على خير إن شاء الله .

وترك « أبى » الغرفة .. واخذت انا اتشاغل بالكتابة إليك .

وكتبت إليك .. لا كلمتين .. بل صفحتين كاملتين ، وضعت بهما كل ما املك من تفاؤل ورضا ، وإيمان بك وثقة بالحياة .

ومرت ايامنا بعد ذلك و « أبى » يحاول جهده ان يحمل عنى عبئها .. ومفكرته الحمراء فى يده يزيح منها كل يوم يمر وكأنه يزيحه عن كاهله .. حتى اقبل اليوم المنتظر .. يوم فك الجبس ومعرفة نتيجة العملية .

ولم استطع ان ادفع عن نفسى الإحساس بذلك الخوف الذى بدأ يتسرب إلى نفسى .

فى المرة السابقة كنت اخشى مقص الجبس الذى يشقون به القالب

الذى اطبق على ساقى .. كنت اخشى غرفة الأشعة .. واخشى من أن يمس احد قدمى المصابة .

كانت مخاوفى .. مخاوف صبيانة .

ولكن فى هذه المرة .. كانت المخاوف ابعد مدى .. واعمق غورا .

كنت اخشى النتيجة ذاتها .

كنت اسائل نفسى « كيف ساعود إليك » ! ؟

رغم كل ما قلته لى وكتبته إلى .

ورغم إيمانى التام بحقيقة حبك .

كنت اتلهف إلى ان اعود إليك سليمة .

كنت اريد ان اهبط من الطائرة .. بلا مشد .. وبلا عرج .. وانا اطرق الارض بساقين متساويتين سليمتين ، واسير كما يسير كل الناس .

كنت اود ان اسير وذراعى فى ذراعك .. اتكىء إليها فى خفة ورشاقة .. لا اتعلق بك لتجرنى وراءك جرا .

لا تظنها امانى تافهة .

فما من إنسان يمكن ان يدرك مشاعرى .. إلا إذا كان به مثل ما بى .

إنسان .. يحب .. ويحس بالنقص .

مهما وثق .. من انه محبوب كما هو ، ومهما احس بانه مقبول على علاته .

فلا شيء يمكن ان يوقف لهفته على ان يكون مخلوقا كاملا .. ولا شيء يمكن ان يعادل رغبته فى ان يكون اهلا للحب الذى يلقاه .

وهكذا لم استطع ان احول بينى وبين ذلك القلق والتوتر الذى اخ يتزايد كلما قرب موعد فك الجبس ، ولا استطعت ان امنع نفسى من الإحساس بانى اقف على هاوية واوشك ان اجتاز اختبارا تتوقف عل نتيجته حياتى ..

ولم اكن وحدى الذى اخوض معركة الانتظار والترقب .

كان يقف إلى جانبى « ابى » بكل ما يملك من قدرة على السيطرة على اعصابه ومشاعره ، و « امى » بكل ما تملك من دموع ودعوات .

ومضى اليوم المحدد ثقيلا متباطئا .

« ابى » يتشاغل بالقراءة وعيناه معلقتان بالباب .

« وامى تمسك بالإبرتين تارة .. وترفع كفيها إلى السماء تارة اخرى .. حتى فتح الباب واقبل الرجل ذو المرولة البيضاء بالمقص فى يده .

وبدات عملية القص ، تماما كما حدث فى المرة السابقة .. وخرج الرجل بعد أن ترك ساقى فى قالب الجبس المشقوق .

وبعد برهة اقبلت الممرضة القصيرة السريعة الخطوات البراقة العينين .. وبدات عملية إخراجى بالفراش من الغرفة لنقلى إلى غرفة الاشعة .

وامسكت بيد « ابى » وسالته الا يتركنى .. تماما كما فعلت منذ ثمان سنوات .

وسار « أبى » وقد أمسك بيدى بجوار الفراش الذى دفعته الممرضة والحارس إلى المصعد .

واجريت الاشعة ، كما اجريت فى المرة السابقة .

وعدت مرة اخرى إلى الحجرة ؛ فى انتظار الطبيب .

وغاب الطبيب .

وطال غيابه ، أو هكذا بدا لنا من فرط توتر اعصابنا وتلهفنا على معرفة النتيجة .

وبدات كفاى تطبقان فى عصبية على ملاءة الفراش .. وانا اكاد اصرخ « اين الطبيب ؟ » .

ووقف « ابى » يرقب النافذة وكانه يحاول ان يقتل الوقت ثم يستدير فجاة عندما يحس بالباب ينفتح ليجد الخادمة او الممرضة ، فيسالها فى ضيق عن الطبيب .

وتجيب الممرضة فى اسف بأنها لا تعرف ، ولكن من المتوقع ان يأتى فى اية لحظة .

ولم ار ماذا تفعل « امى » ، فقد جعلها « ابى » تجلس فى غرفة الانتظار مع بعض الاصدقاء ، ولكنى كنت ادرك .. اى حال يمكن ان تكون عليه من الجزع والضياع .

وحاولت الوساوس ان تتسرب إلى نفسى لتقنعنى ان الطبيب قد تأخر لانه وجد من الاشعة ان العملية قد اخفقت فلم ير فائدة من المجيء وانه لن يلبث حتى يرسل إلينا برأيه مع مساعده .

ولكن تفاؤلى كان أقوى من الوساوس ، فاقتنعت نفسى انه من غير المعقول الا يأتى لفحصى .. ففى المرة السابقة لم يكتف بفحص صورة الاشعة .. بل اتى وجس قدمى وفحصها فحصا تاما حتى اقتنع تماما ان العملية قد اخفقت .

وسيأتى هذه المرة .. ليفحص قدمى ، ويؤكد لى ان كل شيء على خير ما يرام ، وانى استطيع ان انهض ، وان اسير كما يسير الناس .

اجل .. إن الامل هذه المرة يملأ جوانحى .

فى المرة السابقة كنت احس ان الأمر لا يعنينى .

اشفى ، او لا اشفى ، كان عندى سواء .

كل ما كنت اريده هو ان اعود إلى بلدى الآمن المشرق ، وان اهرب من اشباح الليل التى كانت تطل علىّ من مداخن البيوت ، وتتسرب من ستائر النافذة .

إن هذا هو ما كنت اريد فى المرة السابقة .. مجرد الخلاص ، على اى حال .

اما اليوم فانا اريد الشفاء .

إنه يعنى لى كثيرا .

الشفاء الذى لم اعرف فى المرة السابقة .. قيمته وجدواه ، قد بات هذه المرة شيئا له قيمة وله جدوى .

لقد بات الطريق .. إلى امل حلو .. فى ان اكون مخلوقة كاملة بجوارك .. وان اكون حقا — لا وهما — سيدة الناس .

اجل .. لقد كان الأمل الكبير يملأ نفسى ، ويطرد منها كل الوساوس والمخاوف .

وطرق الباب ، ولم يتحرك « ابى » الذى كان يرقب الفراغ من وراء النافذة .

خيل إليه ان الطارق ، خادمة أو ممرضة .. من فرط يأسه من حضور الطبيب .

ودخل الطبيب بقامته الطويلة ، وحاجبيه الثقيلين ، وابتسامته الرقيقة على شفتيه .

وتبعه مساعده بوجهه البشوش ، وملامحه التى تبدو كملامح طفل .

وهتف الطبيب مرحبا فى مرح :

— مساء الخير .

واقبل عليه « ابى » فى لهفة قائلا :

— مساء الخير .. كنا ننتظرك فى لهفة .

وربت الطبيب على يدى فى رفق .. ثم اقبل على ساقى فرفع النصف الاعلى من الجبس ، واخذ يتحسسها فى تؤدة ، وانا أرقب معالم وجهه الجامدة .

وبعد برهة سحب النصف الاسفل من الجبس من تحت ساقى ، وامسك بقدمى يجسها ويحاول تحريكها .

وحانت منى التفاتة إلى وجه « ابى » ، فوجدته يحملق فى الطبيب مشدوها فاغر الفم .. ينقل البصر من وجهه إلى يديه ومن يديه إلى وجهه .. وكأنه يحاول ان يستشف النتيجة من نظرات عينيه او لمسات يده .

وبدا لى كأن فحص الطبيب قد طال دهرا .. قد امسك بساقى ، واستقر على المقعد بجوار فراشى دون ان تبدو منه بادرة تنم على شيء ، لا فرحة ، ولا اسى ، لا امل ولا يأس .

واخيرا ..
واخيرا جدا .

ترك ساقى ، ونهض واقفا وهو يزوم .. ثم اطلق زفرة قصيرة من انفه .. واخذ يطرق طرف الفراش بقبضته .. طرقات خفيفة متوالية .

واحسست بشىء يلتوى فى باطنى .

لقد شممت من وجوم الرجل وزومانه ، وطرقات يده ، ريح خطر تنذر باليأس .

وقبل ان ينبس بكلمة .. هتفت متسائلة فى يأس :

ــ لم تنجح ؟ !

ونظر الطبيب إلى « أبى » وتساءل فى حيرة :

ــ أنتحدث فى الخارج ؟

وكان « أبى » قد امسك بطرف الفراش وكأنه يخشى من التهاوى وبدا وجهه قاتما .. وزم شفتيه كأنما يكتم صراخا فى باطنه .

ورد على الطبيب فى صوت أجش ملء نبراته الأسى واليأس :

ــ أمرك .

وهمّ الطبيب بمغادرة الحجرة يتبعه « أبى » .. واحسست بثقل يطبق على صدرى ويكتم أنفاسى ، وبدا لى ان خروجهما سيترك كل شىء من حولى حطاما ، وهتفت بأبى متوسلة :

ــ أبى .

وتوقف « أبى » ومد يده فامسك بيدى .

وتباطأ الطبيب وترك يده على مقبض الباب دون أن يفتحه .

وتساءل « أبى » بكل ما يملأ قلبه من أسى وحنان :

ــ نعم يا حبيبتى ؟

وعدت اهتف متوسلة :

ــ أريد أن أعرف كل شىء ! .

واحس الطبيب بما أريد وترك مقبض الباب وعاد إلىّ ، واطلق زفرة تنم عن حزن حقيقى .. وقال وهو يرمقنى فى إشفاق :

ــ قد يكون من الخير أن تعرفى .. فليس هناك شىء يخفى ..

وقال « أبى » معلقا على قوله :

ــ إننى أصارحها دائما بكل شىء .. إنها شجاعة مؤمنة .

ومد الطبيب يده يتحسس جبينى وشعرى .. وقال فى حنان :

ــ لقد فشلت هذه المرة أيضا .

وصمت برهة قبل ان يردف فى عزم وإصرار :

ــ ولكن ما زالت هناك فرصة أخرى .. وسأبذل كل ما أملك لكى أحقق لك ما تريدين .. لن أدع بابا للأمل مهما بلغ من الضآلة إلا وطرقته .. كل ما أرجوه منك مزيدا من الصبر .

واطلق « أبى » زفرة يأس ، وهز رأسه قائلا :

ــ لا داعى لأن نرهقها أكثر من هذا .. لست أظن قواها تحتمل عملية أخرى ، إنها تستطيع أن تواصل حياتها على خير حال .

واحس « أبى » وهو يرد على الطبيب أن محاولة إقناعى بعملية أخرى ضرب من المستحيل ، وأن تحميلى عذاب رقدة أخرى تسوء لا يجرؤ أحد أن يسألنى قبولها .

لقد شعر « أبى » هذه المرة بأنه هو الذى لا يرجو أكثر من أن يحملنى فى أقرب طائرة ويعود بى إلى دمشق .. قانعا من الغنيمة بالإياب ، ومن الشفاء بمجرد الحياة .

كان « أبى » أميل إلى الهروب بى أو إلى النجاة بجلدى .

ولكنى .. لفرط دهشته .. لم أكن كذلك .

كانت بقايا الأمل فى نفسى .. تمنحنى قدرة على الإصرار والمقاومة ، والشجاعة أن أخوض غمار تجربة ثالثة .

ومنحنى الطبيب بقوله خيطا أتعلق به ، وفتح لى بابا بدا من خلاله وميض ضوء .

كان قوله ما زال يتردد فى أذنى :

« ما زالت هناك فرصة أخرى » .

« سأبذل كل ما أملك لكى أحقق لك ما تريدين » .

« لن أدع بابا للأمل إلا وطرقته » .

« كل ما أرجوه منك مزيدا من الصبر » .

لقد قذف لى الرجل بلوح من حطام السفينة الغارقة . سفينة التجربة الفاشلة .

فمددت يدى فى إصرار أتعلق به .

أتراك كنت وراء هذا الإصرار .. والعزم ؟

أجل .. ما فى ذلك شك .

بعد كل ما كتبت ، وكل ما قلت ، وكل ما أكدت . من أنك تريدنى كما أنا ، وأننى أعنى لديك شيئا معنويا كبيرا لا تنتقص منه عاهة ولا ينال منه عرج .

بعد كل هذا .. كنت أحس بك تدفعنى إلى الإصرار والمقاومة ، وكأنك تحتم علىّ أن أعود إليك سليمة قادرة

ونظر إلىّ « أبى » وكأنه ينتظر أن أؤيد قوله ، وأقنع الطبيب بأنى لا أريد أن أخوض غمار تجربة أخرى .

ونظرت إلى الطبيب ، وكان قوله ما زال يتردد فى أذنى .

وهتفت به متوسلة وكأنى لم أسمع قول أبى :

— أحقا ما زالت هناك فرصة أخرى ؟

وقال الطبيب مؤكدا فى ثقة وإيمان :

— أجل .

— أهناك احتمال فى أن أشفى ؟

— لو لم يكن هناك احتمال لما قلت لك إنه ما زالت هناك فرصة أخرى .. ولما جرؤت على أن أقدم على عملية ثالثة .

ونظر « أبى » إلىّ فى حيرة ، ولم يجرؤ على أن يسد علىّ باب أمل أحاول النفاذ فيه ، وسأل الطبيب فى شىء من التردد :

— أمن الجائز أن تنجح العملية ؟

وابتسم الطبيب ووضع يده على كتف « أبى » فى رفق وصداقة قائلا :

— لا يمكن أن أقدم على عملية ليس هناك أى احتمال لنجاحها .. أنت تذكر أنى كنت ضد إجراء هذه العملية بالذات ، لأنى أعلم أنها عملية معذبة ، وأنها تحتاج إلى صبر طويل ، وكنت أفضل عليها عملية تثبيت الكاحل .. فنصف شفاء مضمون ، خير من شفاء كامل غير مضمون .. أما وقد اخترناها وصممنا عليها ، فسأبذل كل ما أملك لإنجاحها .. لن أترك باب أمل كما قلت لكم إلا وطرقته .

وأمسك الطبيب بيدى يشد عليها مشجعا .. واستطرد يقول :

— إنى أدرك مشاعرها جيدا .. وسأخوض التجربة إلى جانبها بكل قواى .. وسأبذل من أجلها كل ما أملك من جهد .

وملأنى قول الطبيب بالثقة .. وأحسست أنه استطاع بإصراره أن يغسل مرارة الهزيمة من باطنى ، وأن يصلب عودى الذى قصمته ضربة الإخفاق المفاجئة التى تلقيتها بعد طول تفاؤل .

واستطاع « أبى » أن ينفض عنه غبار الهزيمة ، ومد يده يشد على يد الطبيب بإحساس عميق بالشكر ،

وقال له فى نبرات ملؤها الثقة والإيمان .

— لن أستطيع أن أعبر لك عن شكرى .

وصمت برهة و هو ما زال يطبق يده على كف الرجل .. واستطرد يقول :

— أيا كانت النتيجة .. لن أنسى موقفك النبيل إلى جانبنا .

وعاد الطبيب يربت كتف « أبى » قائلا :

— ستكون النتيجة خيرا إن شاء الله .. المسألة تحتاج إلى صبر .. مزيد من الصبر .

ثم نظر إلى ساعته وحول بصره إلى مساعده الذى وقف طوال المدة يرقب فى صمت قائلا :

ـــ أفضل الا ننتظر كثيرا .

وشرد برهة .. ثم عاد يسأل مساعده :

ـــ ماذا لدينا غدا ؟

وهز المساعد رأسه قائلا :

ـــ لا شيء .

ـــ إذن نجريها غدا .

والتفت إلى « أبى » متسائلا :

ـــ ما رأيك ؟

ـــ أمرك .

ونظر إلى وربت يدى فى رفق قائلا :

ـــ اتفقنا ؟ !

ـــ كما تشاء .

ـــ حسن .. سأعطى أوامرى لكى يجهز كل شيء .

وقبل أن يغادر الغرفة .. التفت حوله متسائلا فى شيء من الدهشة :

ـــ أين أمها ؟

وقال « أبى » متنهدا كأنه تذكر عبئا جديدا :

ـــ فى حجرة الانتظار .. تنتظر مع بعض الأصدقاء .

وهز الطبيب رأسه وكأنما تذكر الانهيار الذى أصابها فى المرة السابقة منذ ثمان سنوات ، وقال لأبى :

ـــ لا داعى لأن تنبئها بكل هذا .

وفكر « أبى » برهة ثم أجاب :

ـــ سأقول لها إن النتيجة لن تعرف إلا فى الغد .

وتساءلت أنا فى حيرة :

ـــ وماذا نقول لها غدا ؟

ـــ نخبرها أن المسألة تحتاج إلى عملية إضافية بسيطة .

وتنهد الطبيب وخطا نحو الباب قائلا :

ـــ كان الله فى عونها .

ولوح لى بيده قبل أن يختفى وراء الباب .. واستطرد يقول باسما :

ـــ سنلتقى غدا .. وكما قلت لك .. مزيد من الصبر هو كل ما نحتاج إليه .

آلام

خضت غمار التجربة الثالثة بطريقة سريعة خاطفة .

ففى اليوم التالى كان الفراش يدفع بى إلى المصعد .. وقد استلقيت فى استرخاء وخمول بعد ان حقنت بالحقنة المهدئة .

وبدا « المشوار » من فرط ما تعودته .. كانه نزهة .. وامسكت بيد « ابى » اشجعه ، وكانه المصاب .. وقد سار بجوارى ودخل المصعد معى وتبعنى حتى غرفة العمليات .

واستقرت « أمى » فى الاستراحة بعد ان اقنعناها ان عملية مساعدة بسيطة لابد ان تجرى لاتمام الشفاء .

وكان يلم براسى وسواس مفزع .. يسائلنى عما يمكن ان يحدث لو اخفقت التجربة الثالثة ، وكنت احس به يجذبنى إلى قاع بئر عميقة ، ولا البث ان اخلص منها واطفو على السطح قبل ان تخمد انفاسى .

وكنت المح وجهك بين آونة واخرى يطل علىّ .. وفى عينيك نظرات عتاب .. وكأنى بك تلومنى على عنادى ، وتتساءل : « أما استطعت إقناعك بقدرك فى نفسى بعد كل ما كتبت ؟! » .

واهمس بك إنى اعرف قدرى فى نفسك .. اعرف كل مشاعرك ، وبعد كل هذا اصر على ان اعود إليك سليمة كاملة .. لاقف بجوارك .. كما ينبغى ان اقف ، واسير كما ينبغى ان اسير .

ولو اخفقت .. فعذرى انى بذلت كل ما املك من قدرة وجهد

وإرادة وعزم وإصرار .. وانى كما قال الطبيب .. « لم اترك بابا للأمل إلا طرقته .. وانى لم ابخل بمزيد من الصبر .. حتى لم تعد من الصبر جدوى » .

وفى غرفة العمليات اقبل مساعد الطبيب على « ابى » يساله الانصراف قائلا وهو يضحك :

ــ لا اظنك تريد المشاركة فى العملية .

وسار « ابى » نحو الباب بعد ان شد على يدى مشجعا ، والتفت إلىّ قبل ان يغيب وراء الباب ليلقى علىّ نظرة اخيرة .. وكانه ينزع نفسه من الحجرة انتزاعا .

لقد ضعفت مقاومته بعد طول الضربات .. كانت نظراته تنم على الخوف ، وعجزت سيطرته على اعصابه .. ان تخفى جزعه .. فاصر على ان يتبعنى فى المصعد ويسير حتى غرفة العمليات .. ولم يجسر احد ان يمنعه ، وهم يرون على وجهه علامات الإصرار على انه يتبعنى حتى النهاية .

وشكتنى حقنة المخدر .

ولم اعرف ماذا حدث .

حتى وجدتنى فى الحجرة مرة اخرى .

وافقت من المخدر هذه المرة .. بطريقة تختلف كثيرا عنها فى المرتين السابقتين .

كنت فى المرتين السابقتين افيق على إحساس بالراحة والاسترخاء والخمول ، وانا احس كان عبئا قد انزاح من فوق كاهلى .. عندما ادرك ان العملية قد انتهت ، وارى وجه « ابى » يطل علىّ باسما فى حنان لينبئنى بان كل شيء قد تم على خير .

ولكنى هذه المرة افقت لاحس بحمل يجثم على صدرى ويطبق على عنقى .. ولم استطع ان اميز وجه « ابى » الحبيب بين مئات الوجوه الصارخة من حولى .

واحسست بآلام فظيعة لا تحتمل .. ولم اعرف اين ولا من اين .. لم اكن فى حالة من الوعى تمكننى من التمييز .

كنت احس بانى معذبة دون ان ادرى مصدر العذاب ، اهى ساقى المزقة المحطمة .. ام انفاسى المكتومة .. ام صدرى المطبق ؟ !

اشىء فى باطنى يحاول ان يفتك بى .. ام هى الاشباح من حولى تجثم علىّ وتوشك ان تخمد انفاسى ؟

وفى غيبوبتى المعذبة رحت اصرخ واستنجد .

ولم اعرف ماذا قلت بالضبط .

لم اكن فى حال تساعدنى على ان اميز ما ارى او اعى ما اقول .. كنت ارى وجه « ابى » مختلطا بوجوه اشباح مفزعة ثقيلة ، واسمع كلماته من خلال صرخات وهمهمات وطبول تدق ورياح تعوى .

وانبانى « ابى » بعد ذلك بما فعلت .

كنت اصرخ باكية سائلة الله لماذا يفعل بى كل هذا وانا لم افعل به شيئا .

وكنت اصيح به عندما التقط وجهه وملء قسماته العذاب والالم :

ـــ لماذا تركتهم يفعلون بى هذا ! ؟ لماذا يعذبوننى ، دعهم يحطمون الجبس ؟ اريد ان اعود إلى دمشق .

وتتوالى صرخاتى المدوية كانها السياط تقرع ظهره .

وهدات آلامى برهة و استطعت ان افتح عينى لاميز وجهه واضحا .. وهو يطل علىّ والدموع تملأ عينيه ، والممرضة تقف بجواره تتطلع إلىّ وجهى .

وسمعته يقول لها :

ـــ لابد ان نضع حدا لهذا العذاب ، لابد ان نفعـــل لها شـــيئا ، لو استمرت على هذه الحال ، فسأطلب من الطبيب ان يهشم الجبس ويدعها تعود إلى دمشق كما هى .

واجابت الممرضة فى رفق :

ـــ لقد امر الطبيب ان نحقنها بالمورفين .

ـــ اكان يتوقع ان يحدث لها كل هذا ؟

ـــ اجل .

ـــ لماذا إذا لا تحقنينها ؟

ـــ لا استطيع ان احقنها حتى تفيق .

ـــ لقد افاقت .

ـــ لم تفق بعد .

واخذت اتتبع المناقشة وانا نصف مغمضة .

وقال « ابى » فى دهشة :

ـــ كل هذا الصراخ ولم تفق بعد ؟

ـــ إنه هذيان .

ـــ لقد قالت كلاما مفهوما .

وهزت الممرضة راسها غير مصدقة وردت .

ـــ اقرصها فى يدها .. لترى انها لم تفق .

ولم يقرصنى « ابى » فى يدى بالطبع .. بل اخذ يربتها فى رفق وهتف بى :

ـــ سهير .

وحاولت جهدى ان اتمالك وان اجيبه .. فرددت بكل ما املك من قوى :

ـــ نعم يا ابى .

ـــ مالك يا حبيبتى ؟

واجبت وانا احس بالآلام تمسك بخناقى ثانية :

ـــ اريد ان اموت .

ـــ بعد الشر عنك يا حبيبتى .. إنك بخير .

ـــ ابدا .. لست بخير ابدا .. إنى اتعذب ، لا اريد ان اعيش .

ورايت وجه « ابى » وكانه يعتصر من آلام مروعة ، وهتف بى وهو يهز راسه فى عذاب :

ـــ إلى متى كل هذا العذاب يا رب .. إلى متى ؟ !

وحاولت ان ابتلع آلامى ؛ واكتم صيحاتى .. لقد روعتنى آلام « ابى » ووجدتنى أحاول أن اهتف به بكل ما أملك من قوة منهارة :

ـ لا تحزن يا ابى .. ابتسم .

وهز راسه وحشرجة فى صوته تنم على بكاء مختنق وقال فى لهجة ملؤها الياس :

ـ ابتسم ؟ !

ثم هز راسه فى استسلام قائلا :

ـ حاضر يا حبيبتى .. سأبتسم .

ورسم على شفتيه ابتسامة كأنها القناع الضاحك .

وفجأة عاودتنى الآلام .. فعدت أصرخ .

ونظر « ابى » إلى الممرضة متوسلا :

ـ أؤكد لك انها أفاقت .. أعطيها الحقنة ارجوك .

ومدت الممرضة يدها إلى « الكومودينو » وتناولت الحقنة فدفعت إبرتها فى ذراعى .

ولم أنبث حتى رحت فى إغفاءة مرة اخرى .

وافقت ثانية لأجد نفسى فى الحجرة الضيقة الكئيبة ، و « ابى » قد جلس على مقعد بجوارى وامسك يدى بإحدى يديه واسند راسه إلى اليد الاخرى المتكئة على حرف الفراش .

واحسست انى بت حطاما بالية ، وان ما بقى منى لم يعد سوى اعضاء محطمة واشلاء مهشمة .

وهتفت بأبى بصوت لا يكاد يخرج من شفتى :

ـ انا متعبة .

ورفع « ابى » راسه عن عينين محمـرتين ووجه شـاحب مجهد وقال لى :

ـ ستستريحين يا حبيبتى .. كل شىء سينتهى إلى خير .

وهززت راسى واجبت فى ياس مرير :

ـ اى خير ! ؟

ـ إن الله معنا يا حبيبتى .

ـ لا اظن .. لو كان معنا لما اصبحت هذه حالنا .

ـ لا تقولى هذا .. تمسكى بإيمانك .

ـ لم يعد له وجود .

وحاولت ان ابحث عن « امى » فلم اجد لها اثرا . فتساءلت فى خوف :

ـ اين امى ؟

ورد « ابى » مترددا :

ـ فى غرفة الانتظار .

ـ اريد ان اراها .

ـ حاضر .

ـ الآن .

ولم يجد « ابى » بدا من مصارحتى بالحقيقة قائلا :

ـ لقد ذهبوا بها إلى البيت لتستريح .

ـ ماذا حدث لها ؟

ـ تعبت .

ـ فقط ؟

ـ واصيبت بنزيف .

وهززت راسى فوق الوسادة فى ياس شديد .. وتملكنى إحساس بالكره لكل شىء .

ما ذنبها هى و « ابى » يصيبهم كل هذا .. وعدت اتساءل : لماذا يفعل الله بنا مافعل ! ؟

وقلت لأبى فى صوت مختنق :

ـ لن اتزوج .

وربت « ابى » كتفى فى رفق ولم يجب .. واستطردت اقول فى حنق مكتوم :

ـــ لن اتزوج حتى لا آتى باولاد يفعلون بى ما فعلت بكم .

واطلق « ابى » زفرة حارة ولاذ بالصمت .. وعدت اكمل حديثى الملىء باليأس والكفر :

ـــ لن اساعد فى استمرار هذه المهزلة المسماة بالحياة .. هل اتى بنا الله إليها .. ليعذبنا كل هذا العذاب ؟

وامسك « ابى » بكفى يضغطها برفق قائلا :

ـــ استريحى يا حبيبتى .. إنها تجارب اليمة لابد ان نمر بها جميعا .. إنها كما قلت لك ضريبة عن ارباحنا من الحياة لابد ان ندفعها عما نحصل عليه من متع .

وبكل ما املك من قدرة على التفكير اجبت بصوت خافت ملؤه المرارة :

ـــ نحن ندفع اكثر مما ناخذ .

وزفر « ابى » زفرة حادة ، وقال هامسا وكانه يحدث نفسه :

ـــ ضريبة فادحة .. تجاوزت الارباح .. وراس المال .. صفقة الحياة خاسرة .. خاسرة .. ولعل حساب الآخرة ينصفنا ؟ !

وسمعت صوت الباب يفتح .. ورايت المرضة تدخل مسترقة الخطا لتقول لابى هامسة :

ـــ حان وقت الانصراف .

واحسست كان شيئا لدغنى وانا اسمع إنذار المرضة لابى بالانصراف .. وتشبثت بيده بكل ما املك من قوة ، وهتفت صارخة وقد تملكنى إحساس شديد بالضياع والخوف :

ـــ لا تتركنى .. إبق بجوارى .

واندفعت فى نوبة بكاء عنيفة متشنجة .

واحسست بكف « ابى » تقبض على يدى بشدة حتى يطمئننى انه باق .. ونظر إلى المرضة بعينيه المحمرتين ووجهه الشاحب وملامحه التى يملؤها الاسى والقنوط وقال بكل ما يملك من قدرة على السيطرة على اعصابه :

ـــ سابقى بجوارها .

وهمت المرضة بالرد .. ولكنه قاطعها قائلا :

ـــ لا داعى للمناقشة .. اى حديث بيننا سينتهى ببقائى ، فوفرى على نفسك المناقشة معى ، واذهبى لمناقشة رؤسائك وإقناعهم ببقائى .. لانى قطعا لن اتركها .

وهزت المرضة راسها ورفعت كتفيها وقلبت شفتيها واجابت بهدوء دون ان تحاول الدخول معه فى جدل او مناقشة :

ـــ سابلغ الرئيسة .. ولتفعل هى ما تشاء .

وغابت المرضة فترة ثم عادت ومعها رئيسة المرضات ووراءها حاشية من المساعدات .

وكان بقاء « ابى » بجوارى قد ملأ نفسى إحساسا بالطمانينة ، وجعلنى استرخى وكفى فى كفه .

ونظرت الرئيسة إلينا .. ورات علامات الهدوء والاسترخاء على وجهى فسألت المرضة قائلة :

ـــ اعطيتها حقنة مورفين اخرى ؟

وهزت المرضة راسها قائلة :

ـــ لا .

وتنهدت الرئيسة ونظرت إلى « ابى » قائلة فى هدوء :

ـــ الاوامر لدينا أنه ممنوع منعا باتا أن يبيت احد مع المرضى .. ولكنى احس انك بالنسبة إليها عامل مهدىء ، وانك اغنيتها فعلا عن حقنة مورفين اخرى .. وبهذا الاعتبار سادعك تبقى بجوارها على مسئوليتى .

وبلا إراده خرجت منى تنهيدة راحة وعلت شفتى ابتسامة شكر للرئيسة وشددت على يد « ابى » .

وربتت السيدة الكبيرة ذراعى برفق وحنان ونظرت إلى « ابى » وقد وقف بجوارى وانا امسك بكفه متعلقة به تعلق الغريق وقد بدا عليه الإعياء ونظرت إلى المقعد الذى كان يجلس عليه وتساءلت قائلة :

ـــ استمضى طيلة الليل على هذا المقعد ؟

ورد « ابى » ببساطة :

— اجل .
وقلبت السيدة بصرها فى انحاء الغرفة ثم قالت فى حيرة :
— آسفة لان الغرفة ضيقة لا تحتمل فراشا آخر .
ورد « ابى » وهو يحس انه لا يريد من السيدة اكثر من ان تتركه بجوارى :
— الكرسى مريح جدا .
وابتسمت السيدة قائلة :
— لابد مما ليس منه بد .
ثم التفتت إلى المرضة واستطردت تقول :
— احضرى كرسيا منخفضا ليمدد عليه ساقيه .. واحضرى بعض الوسائد ليريح عليها راسه .

واتجهت إلى الباب تاركة الحجرة ووراءها بقيـة الحاشـية من المساعدات والمرضات .. وبعد برهة احضرت ممرضة الليل الكرسى والوسائد .

وسالها « ابى » ان تتصل بالفندق وتنبىء السيدة زوجة « الاستاذ جمال » التى ترعى « امى » بان تطمئنها علىّ وتخبرها انهم سمحوا له بالمبيت معى .

واحسست بمزيد من الطمانينة وانا اجد « ابى » قد استقر بجوارى ومدد ساقيه واسند راسه وانا اوقن بانى لن اترك وحيدة مع آلامى ومخاوفى ونفسى المنهارة الضائعة .

ولست ادرى سبب ذلك التصدع الذى اصابنى ليلتذاك والذى قوض قدرتى على التحمل .. وجعلنى اتهاوى امام المخاوف والآلام بحيث اجزع كل هذا الجزع من ان اترك وحدى .. وبحيث اخشى وحدة الليل التى استطعت ان احتملها وانا بعد صبية منذ ثمان سنوات .

قد تكون آلام العملية التى لقيتها بمجرد ان افقت من المخدر .. والتى لا اظننى بالغت فى الإحساس بها بدليل ان الطبيب نفسه كان يتوقع من شدتها ما يحتاج إلى حقنة مورفين .

او يكون ضعف المقاومة الذى ادى إليه طول الرقدة وتوالى التجارب دون ان امنح فترة راحة او استجمام تمكننى من استعادة لياقتى البدنية والروحية حتى بت اشبه بالجندى الذى ينقل من معركة إلى معركة دون فترة راحة او ترفيه حتى ينهار او يجن .

قد يكون هذا او يكون ذاك .. او يكونان معا ، او يكون شيئا آخر لا اعرفه .

ولكن الحال التى وصلت إليها كانت اقوى من قدرتى على الاحتمال .. على الاقل فى تلك الليلة .. حتى بت من فرط الإعياء والتعب والألم والخوف .. اشبه بزجاجة رقيقة يمكن ان تحطمها مسة .

وجلس « ابى » بجوارى طوال الليل .. ولم انم وإياه إلا لماما ، اغفو لحظة ثم استيقظ فزعة وانا احس انى اغرق او اقذف من حالق .. فاتشبث بيده فى خوف شديد .

واسمع صوته وهو يكاد يذوب من فرط الحب والحنان يحاول طمانتى وتهدئتى :
— انا موجود يا حبيبتى .. لا تخشى شيئا .. إنك بخير .

وفى إحدى الغفوات القلائل خلال الليل احسست بيده تنسحب برفق من يدى .. ووجدته يهم بالوقوف .. فصحت فزعة :
— إلى اين ؟
— سأذهب إلى الحمام يا حبيبتى .
وامسكت بيده قائلة فى ذعر :
— لا تذهب .
— لن اغيب اكثر من بضع دقائق .
— قد يصادفك احد فيخرجك .
وضحك « ابى » قائلا :
— إنى لست متسللا .. لقد حصلت على إذن بالبقاء بجوارك .
وتركته يذهب وانا احس بخوف شديد الا يعود ، ولم احس بالطمانينة حتى فتح الباب وعاد ليستقر بجوارى ممسكا بيدى .

إلى هذا الحد بلغ بى الإعياء والخوف والانهار .

وقلت لأبى وانا اطلق آهة انفس بها عن آلامى :

ــ إنى متعبة .. اشعر بالجبس يضغط على ساقى ويوشك ان يحطمها .

ــ سيزول كل هذا فى الصباح .

ــ وإذا لم يزل ؟

ــ سأطلب من الطبيب ان يحطمه واعود بك إلى دمشق فى اول فرصة .

ولم احس من قوله الطمأنينة الواجبة .

كنت على كل ما بى من آلام .. ما زلت ارجو وآمل .

وكنت اترجح بين رغبتى فى الخلاص من الآلام .. ورغبتى فى خوض التجربة حتى آخرها .. فمن يدرى .. لعلهـا تكون المنقـذة المنجية .

وعاد صوت الرجل الطويل القامة ، الكثيف الحاجبين يتردد فى اذنى :

« ما زالت امامنا فرصة اخرى » .

« لن اترك بابا للأمل مهما ضاق إلا طرقته » .

« كل ما ارجو منك مزيدا من الصبر » .

والصبر مرير .. مرير .

اكاد من مرارته الفظه .

ورحمنى النوم .. فأغفـيت إغفاءة طويلة لم اسـتيقظ منها حتى الصباح .

وفتحت عينى لأجد الألم قد انتهى .. واجد نفسى احسن حالا واشد جلدا ، واقوى احتمالا .

ونظرت إلى « ابى » وابتسمت .

واحسست ما يمكن ان تفعله البسمة فى نفس أبى .

لقد بددت سحابة الحزن القاتمة عن وجهه .. واحسست به يبتسم ابتسامة خفيفة ويسألنى فى لهفة :

ــ كيف حالك الآن ؟

ــ افضل كثيرا .

ــ والآلام ؟

ــ ذهبت .

ــ الحمد لله .

قالها بكل ما يملك من إيمان بالله ، وثقة فيه .. وصمت برهة يلتقط انفاسه .. ثم استطرد يقول :

ــ لم اكن اتصور ان تستمر الحال هكذا .. غير معقول ان تبقى طوال مدة الجبس فى مثل هذه الآلام .

وقبل ان اجيبه سمعت طرقا على الباب واقبلت ممرضة الصباح تحمل ادوات الاغتسال .

والقت تحية الصباح فى رفق متسائلة :

ــ كيف حالك ؟

وقبل أن اجيبها .. استطردت تقول :

ــ تبدين احسن كثيرا ؟

ــ الحمد لله .

وبدات ترفع اغطية الفراش لتعيد ترتيبه .. واخذ « ابى » فى مساعدتها .

ولم تكد ترفع الغطاء عن ساقى حتى لمح « ابى » جرحا فى ركبتى فبدا الجزع فى قسماته وسأل الممرضة .. مشيرا إلى الجرح :

ــ ما هذا ؟

ورفعت الممرضة كتفيها وهزت راسها قائلة :

ــ لست أدرى .

واقبلت على الجرح تفحصه ، ثم قالت وهى تمسحه بالكولونيا :

— لابد وان الركبة قد احتكت فى جدار او فى باب المصعد .. وهى هابطة من غرفة العمليات .

ومس « ابى » ركبتى فى إشفاق والم وقد بدت على وجهه من آيات الجزع والحزن ما لا يستحق الجرح ، وقال للمرضة :

— كان يجب ان يأخذوا حذرهم وهم يدفعونها بالفراش لقد كانت تحت تأثير المخدر ولا تستطيع ان تعبر عن آلامها لتحذرهم .

وعجبت من فرط خشية « ابى » علىّ وجزعه من إصابتى التى كانت اقرب إلى الخدش منها إلى الجرح .

عجبت من الإنسان .. كيف يخشى على الإنسان من خدش اصاب ساقه .. فى جانب من الحياة .

وفى جانب آخر .. يمزق إنسانا ، وعلى شفتيه ابتسامة نشوة .. وانتصار .

يضنيه خدش فى الساق .

ولا يعبأ باطراف تتناثر وبطون تبقر وجلود تشوى .

يبكى على خدش إنسان .. فى جانب .

ويقتل إنسانا .. فى جانب آخر .

ولا يدرى ان القتيل الذى لم يعبأ بقتله .. له من يبكى على خدشه .. كما بكى هو على خدش صاحبه .

ومس « ابى » خدش ركبتى فى خوف شديد وسألنى فى صوت يذوب حنانا :

— أيؤلمك يا حبيبتى ؟

— قليلا .

— سأتولى أنا دفع فراشك بعد ذلك .. لن اتركك لهم لحظة واحدة .

ولقد نفذ ما قال بعد ذاك .

فلم يخرج فراشى إلى حجرة الأشعة .. إلا وكان « ابى » قائما على تحريكه .. خشية أن يمس ركبتى جدار او باب .. حتى لا تخدش .

ولم تكد المرضة تنتهى من ترتيب الفراش وغسل وجهى ويدى .. حتى سألت « ابى » ان يطلب لى « امى » حتى اطمئن عليها .

وقبل ان يرفع « ابى » السماعة .. رايت الباب يدفع وابصرت « امى » تدخل شاحبة الوجه ووراءها زوجة الأستاذ « جمال » .

وهتفت بها :

— لماذا حضرت ؟

واقبلت علىّ تضمنى فى لهفة وجزع ودموعها ملء عينيها :

— كيف حالك اليوم يا حبيبتى ؟

ثم التفتت إلى « ابى » متسائلة فى إشفاق :

— كدت اجن عندما اخبرونى انك ستضطر للمبيت معها .

وقالت زوجة الأستاذ جمال :

— لقد طمأنتنا المرضة على « سهير » وقالت ان الرئيسة سمحت لك بالمبيت معها .. ولكنها اعتقدت ان شيئا قد حدث .. ولم تنم طيلة الليل وهى تصر على الحضور إليكم .. ولم يكد يتنفس الصبح حتى ارتدت ملابسها وغادرت الفندق .. برغم ان الطبيب قد منعها من مغادرة الفراش .

ونظرت إلى « امى » وقد ارتمت على المقعد فى إعياء واخذت ترمقنى فى جزع .. وقلت لها فى إشفاق وخوف :

— ما كان يجب ان تحضرى وانت على هذه الحال .. لقد رايت انى بخير وليس بى ما يسبب لك كل هذا القلق .

واخذت « امى » تتمتم قائلة :

— الحمد لله .. لقد مزقت قلبى بصياحك بالأمس .. كنت أحس ان سكينا تمزق احشائى وانا اسمع صرختك .. ولا اعرف ماذا افعل لك .. لماذا لا يأخذنى الله ويريحنى من كل هذا .

واندفعت « امى » فى نوبة بكاء .

واخذ « ابى » يربت ذراعها فى رفق قائلا :

— انتهينا .. لقد اصبحت على خير حال .. كفى عن هذا البكا[ء]
لا تزعجيها .

وكفكفت « امى » دمعها وحاولت ان تتماسك وتبتسم .

وقلت لها :

— اظنك قد اطمأننت علىّ .. عودى الآن إلى الفندق واستريحى فى الفراش .

واجابت « امى » فى اسى :

— لن يحدث لى شيء .. ليت بى ما بك .

وقال « ابى » محاولا دفع البسمة إلى شفتينا ، وإشاعة جو من المرح بيننا :

— لا نريد حركة تنقلات بين الآلام .. انت وهى سواء .. نحن نريد الخلاص من كل هذا .. سنشفى جميعا إن شاء الله ونعود إلى بلدنا سالمين .

وقبل ان تجيب « امى » طرق الباب ، ودخلت الممرِّضة الصغيرة السريعة الخطوات الباسمة الوجه ونظرت إلى « امى » قائلة فى إشفاق :

— كيف حالك اليوم ؟

وردت « امى » باسمة وعلى وجهها علامات الإعياء :

— شكرا .. افضل من الأمس .

— ما زلت تحتاجين إلى الراحة .

ثم نظرت إلى « ابى » واستطردت تقول مازحة :

— لقد خرق بالأمس قوانين المستشفى .. ولكننا اعتبرناه واحدا منا .. سنقوم بتمرينه على التمريض .. إنه تلميذ مطيع .

ورد « ابى » مغالا :

— عندما تكون المدرِّسة فى مثل هذا الجمال .. يصبح الدرس ضربا من ضروب المتعة .

وضحكت الممرضة ونظرت إلى « امى » وتساءلت :

— وتقول هذا امام زوجتك ؟

وهزت « امى » راسها فى غير اكتراث كانها تسلم لابى ان يفعل ما يشاء .. ثم قالت للمرضة مجاملة :

— ما دام يقول الحق .. فلا لوم عليه .

ووجهت الممرضة الحديث إلى « ابى » متسائلة :

— كيف امضيت الليلة ؟

— على خير حال .

— خير حال على هذا المقعد ؟ ! غير معقول .

ثم صمتت برهة .. واستطردت تتساءل :

— كنت تسال عن حجرة اكبر من هذه ؟ !

ورد « ابى » فى حماسة :

— اجل .

— لقد خلت حجرة كبيرة هذا الصباح .. قد تكون اكثر ملاءمة .

— انستطيع ان ننتقل إليها ؟

— ساتصل بالمكتب حالا واخبرك بالنتيجة .

وغابت الممرضة لحظة ثم عادت لتقول :

— لقد حجزت الحجرة لكم .. ستريحكم كثيرا .. إنها خير من هذا الصندوق المغلق .. ستكون معدة خلال نصف ساعة .

وقبل ان تغادر الغرفة التفتت إلى « ابى » متسائلة :

— اتحب ان نضع لك فيها فراشا إضافيا ؟

ونظر « ابى » إليها فى دهشة متسائلا :

— ايمكن هذا ؟

— طبعا .. ما دمت قد اخذت الإذن بالمبيت ، تستطيع أن تبقى بجوارها حتى تغادر المستشفى .

وتملكتنى فرحة شديدة .. وانا اجد مبيت « ابى » قد اضحى امرا

مقررا .. واحسست بانى لن اقاسى من وحدة الليل ووحشته طيلة بقائى فى المستشفى .

ونظرت إلى « ابى » نظرة فيها فرحة وهتفت به :

ــ ستبيت معى ؟

ورد ابى علىّ قائلا :

ــ طبعا يا حبيبتى .

وقالت امى :

ــ سابيت انا معك .

ورد ابى :

ــ سنتبادل المبيت معك .

ثم وجه القول إلى المرضة التى وقفت تنتظر رده :

ــ سيريحها كثيرا ان يبيت احدنا معها .. سليهم ان يضعوا لنا فراشا إضافيا .

وهزت المرضة راسها باسمة .. ثم غادرت الغرفة .

وبعد فترة اقبلت ومعها بعض الخدم .. لنقلى إلى الغرفة الجديدة .

وسار « ابى » بجوارى خشية ان يمس ركبتى جدار او يخدش ساقى باب .. حتى وصلنا إلى الحجرة الجديدة .

ومن جديد بدات احس بالتفاؤل .. وانا ارى الحجرة الفسيحة تنفذ إليها اشعة الشمس وارى من خلال نافذتها شجرة كبيرة تهتز فروعها الخضر فى زرقة السماء .. لتمنحنى إحساسا بالأمل .. وتبدد من نفسى الوحشة ، والكآبة ، واليأس .

لامبالاة

مرت بى الأيام فى الحجرة الجديدة الفسيحة المشرقة .. تحمل لى المزيد من الأمل والتفاؤل .. وانتهت آلامى التى احسست بها تلك الليلة المروعة ، وعادت البسمة إلى الشفاه من حولى .. وخف توتر الاعصاب بعد ان اعتدنا الرقدة الجديدة واسترخينا فيها بلا اوجاع ولا آلام .

وبدانا فترة صبر اخرى .. او مزيد من الصبر كما سماها الطبيب .

ولم يكن الصبر عسيرا هذه المرة .

وبما لاننا تعودنا عليه من فرط ما باشرناه .. حتى بلغنا فيه حد الاحتراف .

اجل .. لقد اضحينا بلا مبالغة ، محترفى صبر .

كنا نقضم الزمن قضمة بعد قضمة .. ساعة بعد ساعة .. ويوما بعد يوم .

وابتاع لى « ابى » جميع ادوات الصبر .. شطرنج .. وبروجكتور لعرض الأفلام والصور .. واستأجر لى افلاما قصيرة .. كان معظمها قديما .. « لوريل وهاردى » و « شارلى شابلن » و « ميكى ماوس » .. وبعض افلام الرحلات الملونة .. واستأجر لى « تليفزيون » .

وبعد كل هذه الأسلحة القاتلة للوقت .. وبعد ان نلعب الشطرنج حتى يتصدع « ابى » ، ونرى الأفلام والتليفزيون ونسمع الاشرطة فى الريكوردر والاسطوانات فى البيك آب ونشرات الأخبار فى صوت

العرب .. نجد الليل قد أوشك على الانتصاف ، ونحاول التحايل على النوم .. حتى يطرق جفوننا .. فإذا استعصى .. جررناه جرا .. بأقراص النيبرترانكيل ، أو غيرها من الأقراص المنومة .

وعندما كانت « الحكة » تبدأ مناوشاتها أسفل الجبس .. يصبح النوم أمرا مستحيلا .. مهما بلغت قوة المنوم .

ولا يسع « أبى » وهو يرقد إعياء .. ويرانى أتقلب فى أرق إلا أن ينفض عن نفسه غبار النوم .. ويوقد المصباح ويقول لى فى صبر جميل :

ـــ لا داعى للقلق .. إذا كان النوم لا يريد أن يقبل .. فلا داعى له .. دعينا نسمع بعض الأغنيات .

ويأخذ فى تشغيل الجرامفون أو الريكوردر حتى أنام .

وذات صباح أقبل الطبيب وكان « أبى » يعرض علىّ بعض لوحات بالفانوس السحرى .

ونظر الطبيب إلىّ باسما ثم قال لأبى :

ـــ نجحت تماما .. فى قتل الوقت .. وهو أسوأ ما فى رقدة الجبس .. إنى أرى نفسيتها على خير حال .

ورددت ضاحكة :

ـــ الرقدة لم تعد تضايقنى .

ـــ أشكرى لوالديك .. لقد فعلا ما لم يخطر لى ببال .

ووجه الحديث إلى « أبى » قائلا :

ـــ بقيت عليك مهمتان بعد فك الجبس .. أولهما التغلب على آثار الجبس .

وتساءل أبى :

ـــ والثانية ؟ !

ـــ التغلب على آثار التدليل الذى فعلته بها خلال رقدة الجبس .

وابتسمت « أمى » قائلة :

ـــ خلال الجبس فقط ! .. إنه يدللها مذ رأت عيناها النور .

وأجاب الطبيب :

ـــ أقصد الإفراط فى التدليل .

وضحك « أبى » قائلا :

ـــ لا تحمل هما .. إنها فتاة عاقلة .. ولن يفسدها التدليل مهما بلغ .

وهز الطبيب رأسه قائلا :

ـــ أرجو ذلك .

وقبل أن يغادر الغرفة سأله أبى :

ـــ متى ستفك الجبس ؟

ورد الطبيب متسائلا :

ـــ متى أجرينا العملية ؟ !

وذكر « أبى » التاريخ باليوم والساعة .

وفكر الطبيب برهة ثم قال :

ـــ أفضل أن تبقى مدة أطول .. فلن يضيرنا إذا رقدت أسبوعا زيادة عما هو مفروض ، ولكن يضيرنا كثيرا .. إذا ما نزعنا الجبس قبل المدة الكافية .

وتنهد « أبى » .. ولم يبد عليه كثير ارتياح .

لن يضير الطبيب أن أبقى فى الفراش أسبوعا أزيد .. ولكن يضير المتشبثين بحبال الصبر .. الذين يقضمون الزمن ساعة بعد ساعة ويوما بعد يوم .. الذين يتوقون إلى معرفة النتيجة أيا كانت .. حتى يعودوا إلى بلدهم .

ولم يقل « أبى » شيئا فلم يكن من المعقول أن نستعجل الطبيب بعد أن قال ما قال .. بل لا أظن أن استعجاله يمكن أن يؤدى لأية فائدة .

وغادر الطبيب الحجرة .

وقلت لأبى وأنا أرى علامات التجهم على وجهه :

ـــ إنى لا أتعجل فك الجبس .. ليس هناك حقيقة ما يضايقنى .

ولم اكن أبالغ فى قولى .. او احاول مرضاة ابى .. فقد كنت حقيقة .. لا أحس بالعجلة فى النهوض ، ولا الضيق من الرقدة .

إحساس عجيب كان يسيطر علىّ هذه المرة .

إحساس بالاستسلام وعدم الاكتراث والاسترخاء واللامبالاة .

لم اعد انتظر النتيجة فى توتر وخوف وقلق .

لقد وطنت نفسى على قبولها ايا كانت .

كان على ان اتحمل بقية المشوار .. بعد كل ما قطعت .. لم يكن مبرر للتبرم أو الاستعجال .. كان علىّ ان اسير فى هدوء حتى ابلغ النهاية .

تقدمت يوما .. أو تأخرت يوما .. فلابد ان ابلغها .

وعند النهاية .. سأجد شيئا ما .

أيا كان هذا الشىء .. فلابد ان آخذه .. واعود به إلى بلدى .. وامضى به بقية عمرى .

وبمثل هذا الشعور المستسلم كنت اقضى ايام رقدتى الاخيرة فى المستشفى .. بلا ضيق ولا خشية ولا قلق .

وكانت رسائلك المستمرة إلىّ .. تعيننى على لهفتى عليك وحنينى اليك .. كنت اجد فيها محطات ظليلة فى رحلتى الطويلة .. وكنت أحس بك من خلالها .. مرهف الحس .. جميل المشاعر .. رحيم القلب .. رقيق البسمة .

كانت كلماتك تذلل الصعب وتهون العسير .. تملأ نفسى بالإيمان والثقة ، وتمنحنى قدرة على الصبر والتجلد والتماسك .

ووصلتنى رسالتك التى بعثت بها إلىّ عقب وصول رسالة « ابى » إليكم ، والتى انباكم فيها بإخفاق العملية الأولى ، وإقدامنا على العملية الثانية .. ووصف لكم آلام الليلة العسيرة التى قضيناها عقب العملية .

ويبدو لى ان رسالة « ابى » قد عكست عليكم ما اصابكم خلال تلك الأزمة ، ويبدو انه لم يكن قد افاق بعد من الإعياء الذى اصابه وشد أعصابه وروعه نتيجة لما أصابنى تلك الليلة .

فقد كانت رسالتك مليئة بالالم والضيق .

ولمتنى فيها لأنى اصررت على أن اخوض تجربة ثالثة برغم كل ما قلت لى فى رسالتك واتهمتنى بأنى لا أومن بحبك ولا اثق فى مشاعرك .

وقلت فى آخرها :

« لماذا كل هذا العناد والإصرار منك على خوض تلك التجارب المريرة القاسية ؟

لماذا تصرين على خوضها وحدك قبل الارتباط بى ؟

لماذا تضعيننى موضع التاجر .. الذى يتحتم تسليمه بضاعة سليمة قبل الشراء ! ؟

أتلك هى حقيقة العلاقة بيننا ؟ .. لماذا تظلميننى بهذا الإصرار ؟

انا أحب أن يملأ نفسك التفاؤل .. أحب الا تطفأ من قلبك ذبالة الأمل فى الشفاء .

وادعو الله من كل قلبى أن يمن عليك بالشفاء ويجعلك سيدة الناس كما تريدين انت لا كما اتوهم انا .

ولكنى اكره ان اعلق ارتباطى بك بهذا الشفاء .

اكره أن تعلقى ارتباطنا .. بأى شىء مهما كانت لهفتك عليه ورغبتك فيــه .

وإنى أحس اننا قد ارتبطنا فعلا .. وانه ليس هناك شىء يفصم عرا الصلة بيننا .

واكره ان تصرى على خوص هذه التجارب بمثل هــذا العنف والإلحاح .. بلا أدنى مبرر ولا سبب .

إن عمرنا معا .. طويل .. طويل ، ونستطيع ان نحاول العملية .. مرة .. بعد مرة .. ما دام هناك أمل .. وما دام فى عمرنا بقية .

فلماذا هذه العجلة وهذا الإلحاح ؟ !

إذا كانت هناك .. كما قال الطبيب .. فرص أخر .. فلنحاولها سويا .. وإذا كان هناك باب للأمل مهما ضاق .. فلنطرقه معا .

والمزيد من الصبر الذي يطلبه الطبيب .. يكون سهلا إذا ساند أحدنا الآخر .

يا سهير .. يا حبيبتي .. يا سيدة الناس فعلا .. لا وهما .

بحق موقعك عندي .. وموقعي عندك .

بحق مشاعرنا الطيبة الجميلة .. كفى عن عنادك وإصرارك .

وإذا حدث .. ابعد الله عنك الشر ووقاك السوء .. ان اخفقت العملية .. فإليك وتجربة أخرى .

عودي إليّ .. وسنحاول كل شيء معا .

عودي إليّ .. وإلا اضطررت إلى الحضور إليك وحملك على الرغم منك في أول طائرة .. ولاعود بك على اي حال كنت .

إن بي من الحنين إليك ما يجعلني اندم على حماقة .

فبحق حبنا عودي .. وجنبيني الحماقات .. » .

وكان لكلماتك وقع السحر في نفسي .

واحببتها كثيرا .. كثيرا .

لقد جعلتني أخوض المعركة في آخر أيامها .. صلبة العود قوية البأس .. ماضية العزم .

لم يتطرق إليّ القلق ولا الخوف ولا التهاوي .

كنت انتظر النتيجة وأنا اقوى منها .

كنت اشبه بالذي أخفق في عدة امتحانات من أجل الحصول على شهادة .. وعندما وقف يترقب الامتحان الأخير .. أحس بأنه لم يعد في حاجة إلى شهادة ، وأن قدره قد تجاوز الشهادة .. وانه إن لم يجتز الامتحان وإن لم يحصل عليها فلن يقلل الإخفاق من شأنه ولن يحط من قدره .

اجل .. لقد وصلت في النهاية إلى مثل هذا الشعور .

لست ادرى .. أمن وقوفك في صلابة إلى جانبي .. وشدك أزري بكل ما تملك من إحساس مخلص ، ومشاعر مرهفة .

أم من طول التجربة ومرارتها .. ومن فرط اعتياد الإخفاق ، وممارسة اليأس ؟

على أية حال .. عندما نجد أنفسنا اقوياء .. لا نحاول كثيرا ان نبحث عن سبب قوتنا .

ولقد شعرت انى أخوض المعركة في نهايتها .. قوية .. صلبة .. بلا قلق ، ولا توتر ، ولا خوف .. ولم أجد هناك ما يدفعني إلى ان انصب نفسي في البحث عن السبب .

واقتربت النهاية .

وحدد لها الطبيب يوما قبل منتصف سبتمبر .

وكتبه « أبى » في مفكرته الحمراء .. واخذ يشطب الأيام التي قبله يوما .. بعد يوم .. حتى أصبح الصبح على اليوم المنتظر ، وكان « أبى » يبيت معي تلك الليلة ، واستيقظنا لنجد شعاعا من الشمس يتسلل من النافذة ليفترش أرض الحجرة ، ولمحت فروع الشجرة الكبيرة تهزها نسمة الصباح لتنفض عنها قطرات مطر اغتسلت به خلال الليل .

وسمعت زقزقة عصافير .. طرقت اذنى بلحن جميل .. يذكرني بصباح دمشق .. بالعصافير التي تتواثب على اشجار الحور .

ورأيت وجه « أبى » يبتسم لى خلال المرآة وهو يحلق ذقنه .

وهتفت بى وهو يلمح يقظتى :

ـ صباح الخير يا حلوة .. كيف الحال ؟ !

ـ الحال طيبة .. سننزع الجبس اليوم ؟

ـ اجل .

ـ ومتى سنسافر ؟

قلتها وكأنى اسلم بالسفر على اية حال .

ورد « أبى » ببساطة .

ـ عندما يأمر الطبيب .

ـ ومتى يأمر الطبيب ؟

ـ بعد انتهاء التدليك ، والتمرين على السير .

— اتظن هذا يأخذ وقتا ؟
— قد يأخذ اسبوعا او عشرة ايام .. بعد هذه الرقدة الطويلة لابد ان تدلك ساقك جيدا .

ولم يحاول أحد منا خلال هذا الحوار .. ان يذكر شيئا عن النتيجة المنتظرة .. وبدا كل منا وكأنه لا يعلق عليها شيئا ، واردت ان اتأكد من ان هذا هو إحساس « أبى » بصراحة .

فعدت اواصل الحديث قائلة بعد فترة صمت اتجه « أبى » خلالها إلى الحوض ليغسل ماكينة الحلاقة :

— لا نريد ان نبقى هنا طويلا بعد فك الجبس .
— لن نبقى يوما بعد ان يأذن لنا الطبيب .
— أسيتوقف رحيلنا على إذن الطبيب ؟ .
— طبعا .. إنه هو الذى سيعرفنا مدى قدرتك على السير بعد هذه الفترة الطويلة .

وصمتت برهة ثم قلت فى شيء من التردد :

— ولكننا سنرحل على اية حال .
— ماذا تعنين ؟
— اعنى سواء أخفقت العملية أم نجحت .

ونظر إلىّ « أبى » وهو لا يدرك بالضبط القصد من السؤال .. الطلب به فرصة اخرى .. أم اصر على الرحيل ؟

واقترب منى وهو يجفف ذقنه من الكولونيا .. وقال فى تؤدة :

— سنفعل كل ما تريدين .

وبغير تفكير قلت له على الفور :

— اريد العودة .
— سنعود بمجرد ان تستطيعى السير .

واقبلت الممرضة .. وبدأت عملية الاغتسال وترتيب الفراش .

وحضرت « أمى » بعد برهة تحمل الغيارات والصحف والرسائل .

ولم اكد اتناول الإفطار وأمر ببصرى عبر الجرائد .. حتى اقبل

ممرض الجبس بمقصه الطويل .. وشق الجبس موفرا علينا مشقة القلق والانتظار .

وصعدت إلى غرفة الأشعة يصحبنى « أبى » ، واجريت الأشعة كما اعتدنا فى المرات السابقة .. ثم عدت ثانية إلى الغرفة .

وبدأنا ننتظر الطبيب .

واظنك تدرك جيدا مشقة الانتظار فى تلك اللحظات .

مهما قلت لك عن تجلدى وقوتى .

ومهما قلت لك عن إحساسى بعدم الاكتراث والاستسلام واللامبالاة .

ومهما حدثتك عن قدرتك على شد أزرى .. وصلب عودى .

فلا أظن كل هذا بمجد نفعا فى تلك اللحظات ..

اى نعم .. لم تكن تهمنى النتيجة .

واى نعم .. كنت أعرف أنى عائدة .. عائدة .

واى نعم .. كنت اعرف أن ارتباطى بك .. لن يفصمه شيء .

ولكن ذلك كله لم يمنع من إحساسى بالوقوف فى نهاية التجربة .. بعد طول مرارة صبر .. لانتظر نتيجة صبرى خلال تلك الأيام الطويلة القاسية .. والليالى الموحشة التى جفانى بها المرقد وهجرنى النوم واستعصى اصطياده على العقاقير والمنومات .

اجل لم تكن هناك من وسيلة لدرء إحساس التوتر والقلق والرهبة الذى يشد اعصابنا جميعا ، ونحن نجلس فى انتظار الطبيب .. ليقول كلمته .

وطال الانتظار .. وازداد التوتر .

والرجل لا يحضر .

طالت غيبته عن كل مرة .. حتى اقبل الليل .. واخذ الزوار ينفضون .. دون أن يحضر .

واستعان « أبى » بالممرضة والريسة ودق التليفون فى العيادة دون أن نعثر له على أثر .

وكان علينا ان نقضى ليلة مريرة .

لماذا لم يأت الطبيب ؟
لماذا تركنى فى قالب الجبس المشقوق .. دون أن يحضر لفحصى ؟ !
وعادت الوساوس تلح علىّ .. لابد أنه لم يجد فائدة .
إذا لماذا لم يحضر ليخبرنى بذلك ؟
لعله خجل .
ولماذا يخجل وهو طبيب .. معرض للإخفاق والنجاح ؟ لماذا لم يحضر كما حضر كل مرة ليخبرنا أنه يأسف لأن العملية قد أخفقت ؟
وعدت أجيب على سؤالى :
لعله يكره أن يرى مرارة الإخفاق على وجوهنا بعد أن منحنا أملا .
وبتنا ليلتنا فى ضيق وتوتر وقلق .
وأصبح الصبح ليمنحنا مزيدا من قلق الانتظار .
وفى الظهيرة أقبل طبيب آخر لا نعرفه .
لم يقبل الطبيب الكبير .. ولا مساعده .. وإنما أقبل رجل غريب .. لم نره من قبل .
وقال لنا إنه يعمل مساعدا للطبيب بدل مساعده الذى يقضى أجازته بعيدا عن لندن .. وأن الطبيب سيأتى فى المساء وحاولنا أن نسأله عن النتيجة فقال إنه لا يعرف شيئا .
وتستطيع أن تدرك الجزع الذى ملأ نفوسنا .
لابد أن العملية أخفقت .. وأن كليهما خجل من الحضور .
ولكن أبمثل هذا يتصرف أطباء مسئولون ؟
ولم يكد ينصرف الطبيب الغريب حتى ضرب « أبى » كفا بكف قائلا فى ضيق :
ـ هذا شىء لا يحتمل .. إنه استهتار .. لماذا لا يحضر أحدهم ليقول لنا إن العملية أخفقت ويريحنا .
ورفعت « أمى » كفيها إلى السماء داعية فى لهجة متوسلة :
ـ يارب .. لطفك يارب .
وأخيرا .

وأخيرا جدا .
أقبل الطبيب .. وعلى شفتيه ابتسامته الرقيقة المعهودة .
ولم يكن لأحد منا القدرة على أن يرد له ابتسامته .
ولحظ الرجل تجهمنا فتساءل ضاحكا :
ـ غبت عليكم .. أرى على وجوهكم عبوسا شديدا . معكم حق ؟
ولم يرد عليه أحد .
وأقبل الرجل ينزع الجبس عن ساقى .. وهو يقول فى لهجة مرحة :
ـ دعونا نرى .. لعلنا نرد الابتسامة إلى شفاهكم .. إنى أكثر تفاؤلا هذه المرة .
وأخذ الرجل يجس ساقى وقدمى و .. ورفعها من الجبس وأخذ يحرك مفصلى .
ثم أمسك أصابع قدمى وسألنى :
ـ حركى أصابعك .
وحاولت أن أحرك أصابع قدمى فأحسست بألم شديد فى مفصلى فصرخت .
وعلت شفتى الرجل ابتسامة واسعة وعاد يسألنى :
ـ حركى أصابعك .
ـ لا أستطيع .
ـ لماذا ؟!
ـ مفصلى يؤلمنى .
وعاد الرجل يجس قدمى ويسألنى :
ـ أتشعرين هنا ؟
ـ أجل .
ـ وهنا ؟
ـ أجل .

واطلق الرجل تنهيدة طويلة تنم عن الإحساس بالراحة والتفت إلى أبى وأمى قائلا :

— أخيرا .

ثم شد على يد « أبى » مهنئا وقال لأمى :

— تهنئتى الحارة .

وكان « أبى » ينظر إليه محملق العينين فاغر الفم ، وهو يسأل :

— أنجحت يا دكتور ؟ !

— أجل .

وانهمرت الدموع من عينى « أمى » .. واندفعت فى نوبة بكاء ، وضحك الطبيب قائلا لها :

— كنت أظننى سأعيد الابتسامة إلى شفتيك .

ورفعت بصرى إلى الطبيب وقلت له غير مصدقة :

— أحقا نجحت ؟

— لست أظن المجال يحتمل المزاح أو الشك .. إما أن تكون نجحت أو أخفقت ، وعندما قلت إنها نجحت .. فأنا أعنى أنها نجحت .

ولم أجد فى كلمة الرجل « نجحت » التعبير الكافى عن الحدث الضخم فعدت أقول له :

— أعنى هل سأستطيع السير ؟

— طبعا .

— بلا مشد ؟

وضحك الرجل وأجابنى فى هدوء وصبر :

— أتظنين أننا قد فعلنا كل هذا لكى ننجح فى منحك القدرة على السير بمشد ؟

وعدت أسأل غير مصدقة :

— أعنى .. هل أسير .. ككل الناس ؟

— طبعا .

— بلا .. بلا ..

وأتم الرجل قولى مؤكدا :

— بلا عرج .

ثم أتم قوله ضاحكا :

— ستسيرين كأية فتاة .. رشيقة .. أنيقة .. فاتنة . أليس هذا ما تريدين ؟

واطلقت تنهيدة طويلة ، وحاولت جهدى أن أبتلع دمعة توشك أن تطفر من عينى وقلت له فى صوت خافت :

— شكرا .

وربت الرجل يدى فى حنان قائلا :

— لقد عاونتنى بعزمك وصبرك .. أنا سعيد لأننى حققت لك ما تريدين .

وتنهد « أبى » ومد يده ثانية ليشد على يد الدكتور وقد بدأ يدرك حقيقة ما حدث :

— أشكرك يا دكتور .. أشكرك كثيرا .. إننى أب ، وأنت تعرف قيمة الأبناء .. وتعرف قيمة ما أسديت إلىّ من جميل .

وربت الرجل كتف « أبى » قائلا فى إخلاص :

— لا داعى للشكر .. لقد أدركت مشاعرك من لحظة أن أقدمت على هذه العملية .. أدركت مشاعرك وأنا أراك تعرف عن الحالة أكثر من طبيب .. ولست أبالغ عندما أقول لك إنى أشعر بسعادة حقيقية .. لنجاح العملية .. إنها فوق كل شىء معركة انتصرنا فيها .. انتصر فيها الإنسان بكل ما يملك من مشاعر طيبة .. وثقة بنفسه وإيمان بالله .

والتفت الرجل إلى وقد وقفت الممرضة بجوارى تحمل قالب الجبس وقال :

— ما زالت أمامك فترة شاقة .. لتتغلبى على آثار الجبس .. سأطلب من ممرضة التدليك أن تقوم لك بالتمرينات المطلوبة حتى تعود إلى المفصل مرونته ، وستعلمك الوقوف والسير .. ستستعينين أولا

بعكازين ثم تحاولين السير بالعصا .. وعندما تحسين بأنك فى غير حاجة إليها .. ستسيرين .. كما يسير الناس .. اتفقنا .. ؟

وهززت راسى وقلت :

— اجل .

وتساءل ابى :

— كم من الزمن سنحتاج إلى هذا التمرين ؟

— اسبوعا او اكثر قليلا .

ونظر إلىّ قائلا :

— الأمر يتوقف على إرادتك وقدرتك على التحمل ، ولكنه لن يكون سهلا .

ورد « ابى » بتنهيدة :

— كل شىء يهون .. ما دامت العملية قد نجحت .

وتركنا الرجل وانصرف ، ومرت بنا فترة وجوم .. ينظر بعضنا إلى بعض غير مصدقين .

واخيرا اقبل « ابى » ليضمنى إليه فى حرارة قائلا :

— مبارك يا سهير .. مبارك يا حبيبتى .

ورفعت « أمى » وجهها إلى سقف الحجرة موجهة الحديث إلى الله :

— يا رب .. انت كبير يا رب .. يا رب نحمدك على كل شىء .

واقبلت علىّ تضمنى إليها ودموعها — كالمعتاد — على خديها .

وقلت لها ضاحكة :

— علام البكاء ؟

وهزت رأسها كالمشدوهة قائلة :

— من كان يصدق هذا ! ؟

وعادت تحدث الله مرة اخرى ناظرة إلى السقف :

— يا انت كريم يارب .

واقبلت الممرضة تمسح ساقى « بالأثير » لتزيل عنها آثار الجبس

وقد كستها قشرة وبدت محمرة كأنها قد اصيبت بحرق .

وبدأت بعد ذلك فترة التدليك والتمرين على السير .. ولم يكن الطبيب مبالغا عندما قال لى إنها فترة شاقة تحتاج إلى إرادة وقوة تحمل .. فقد احسست كأن ساقى تكسر من المفصل فى كل مرة احاول تحريكه .

وعندما هبطت من الفراش اول مرة لاقف مستندة إلى العكازين بمساعدة ممرضة العلاج الطبيعى .. احسست بغثيان ودارت الدنيا من حولى .. وكدت اتهاوى على الارض لولا ان اسندنى « ابى » الذى كان يقف ملاصقا لى .

وبدأت بعد ذلك التمرين على السير بالعكازين .. فى ممر المستشفى .. وكنت اخجل فى اول الامر ان اسير امام الناس خشية السقوط ، ولكنى رويدا رويدا بدأت اتعود السير بهما .. حتى اضحى من العسير ان اسير بغيرهما .

وبدأت بعد ذلك مرحلة السير بالعصا .

وغادرت المستشفى على ان ابقى تحت الرقابة الطبية بضعة ايام اخر .

واستقر بى المقام فى الفندق .

واحسست بمزيد من الحرية وانا انتقل على عصاى فى حجرات الجناح ، واطل من النافذة .. واخرج فى عربة الأجرة إلى المستشفى .. ثم اتجول فى شوارع لندن وامر بكل ما رايته ، واجلس فى « هايد بارك » امام السرابنتينا لأرقب القوارب تمخر الماء .. والناس يمرحون على الشاطىء .. او يستلقون على النجيل تحت الأشجار .. ومن حولهم بدت زهور التيوليب بالوانها الرائعة .

واخيرا انتهت مرحلة التدليك والتمرين ، وذهبت إلى عيادة الطبيب مع « ابى » . وقام بفحص ساقى ثم اذن لى بالرحيل .

وحل يوم الرحيل ووجدت نفسى استقر على مقعد الطائرة لتحلق بى فى السماء منطلقة إليك ، وقد شفيت تماما ، واصبحت استطيع ان احقق املك فى ، وان اكون كما تريدنى .. سيدة الناس .

٣٦

فى انتظـــار الفجـــر

انطلقت بى الطائرة وكانها تفسح لى فى صدر الكون طريقا ارحب من صفحة السماء واشرق من وهج الشمس ، وكان الوقت قبيل الغروب ومبانى لندن ومداخنها والنهر الملتــوى فى باطنهــا قد اخذت تتبــاعد وتتضاءل ، ورقعة الأرض الخضراء المنمقة قد ازداد اتساعها وبهتت معالمها حتى حجبتها كتل السحاب المتناثرة اســفلنا .. وبدت اشــعة الشمس طليقة فى صفحة السماء لا تقيدها سحب ولا يكسر ضوءها ظلال .

وانطلقت آمالى كأشعة الشمس .. بلا قيود ولا حدود ، القاك .. واضمك إلىّ .. واعدو معك لنرتع فى ربوع الأرض ، فى الغوطة ، وفى نبع بردى ، والعين الخضراء .. وفى لبنان الجبل .. واعود بك فى الطائرة إلى لندن .. لنشهد معا مرة اخرى .. المعالم التى رايناها سويا أول مرة فى الشتاء .. بجليدها وبردها .. ووجهها القاتم المكفهر ، وفى الصيف بأرضها الخضراء ، ووجهها المشرق الباسم .

ومددت يدى أتحسس ساقى ، بلا مشد يثقلها ويطرق بها الأرض ، وحركت قدمى بالحذاء الجديد الأنيق الذى اشتراه لى ابى .. والذى لم يخذلنى القدر فى لبسه كما خذلنى اول مرة .

اترانى .. اصبحت سيدة الناس ؟ !
ساحاول دائما انى اكونها .. من اجلك .
لن اخذلك ابدا .
لقد منحتنى اشياء كثيرة فى حياتى .
اشياء كثيرة ؟ ! لماذا لا انصفك واقول إنك منحتنى الحياة ذاتها .
وجذبنى ابى من انطلاقى إليك .. عندما سمعته يقول :
ــ ارجو ان تكون البرقية التى ارسلتها إلى خالتك قد وصلت .
وهزت « امى » راسها قائلة فى غير اكتراث :
ــ تصل او لا تصل .. المهم ان نصل نحن .
ــ سنصل إن شاء الله ونجد كل شىء على خير حال .
وقالت « امى » متسائلة :
ــ سنصل فى منتصف الليل .
ورد ابى قائلا :
ــ قبل ذلك إن شاء الله .

وقفز خيالى إلى المطار .. ورحت اتصوره بمبناه الجديد الأنيق .. واتصورك تقف بين المستقبلين ملوحا لى بيدك .

ترى كيف القاك ؟ .
اعدو إليك واضمك إلىّ ؟ !
والناس ؟ !
الأقارب والأصدقاء الذين سيكونون فى انتظارنا .
ماذا يقولون ! ؟
بل انت نفسك .. ماذا تظن بى ؟
إن انسى ما جرؤت ان افعله .. انى اسندت راسى ذات مرة إلى كتفك فى الغوطة .
ساشد على يدك فى حرارة .
ثم اضمك بعد ذلك .. فى أول فرصة .
ولكن هل ستاتى لاستقبالى ؟

بالطبع ستاتى .. ستخبر خالتى « حسان » .. سيخبر حسان « نادية » .. وتخبرك نادية .

وغير معقول ان تسمع انى قادمة ولا تحضر لاستقبالى عندما اصل .

وفجأة انحرف بى الذهن انحرافة حادة .. كتلك التى تنحرف إليها الأذهان عندما تحاول العبث بنا والسخرية منا .

ووجدتنى اسأل نفسى فى انحرافة ذهنى :

اترانا سنصل فعلا ؟ !

لقد قالت « امى » عندما تحدث « ابى » عن البرقية « تصل او لا تصل .. المهم ان نصل نحن » .. اترى هناك احتمال الا نصل ؟

ولِمَ لا ! ؟

بين يوم وآخر نسمع عن طائرة تحطمت او احترقت ، ومات كل من بها .. اليست طائرتنا طائرة ؟ !

وراح ذهنى يتابع الطائرة وهى تسقط .

ونظرت من النافذة ، لأرى الظلام قد خيم ، ولمحت لهبا احمر يخرج من جناح الطائرة .

واصابنى خوف شديد .

اترى جناح الطائرة يحترق ؟

وقائد الطائرة لا يدرى ؟ .. والمضيفة لا تدرى ؟ .. والركاب لا يدرون ؟ لا احد يدرى سواى ؟

غير معقول .

وإذا حدث ! اليس من الخير ان انبه إلى ذلك ؟

لا . لا . لا داعى لهذه الحماقة ... لابد ان يكون هذا شيئا طبيعيا ، وملت على « ابى » وقلت متسائلة فى غير اكتراث :

ــ هناك لهب ينطلق من جناح الطائرة .

وبدت الدهشة على « ابى » ثم مد راسه إلى النافذة ليرى ما اشير إليه ثم قال ضاحكا :

ــ هذا شأن الطائرات النفاثة .

ــ لماذا لم اره من قبل ؟

ــ لأنك لم تسافرى ليلا قبل هذا .

وكان علىّ ان اطمئن واهدأ .. ولكن الذهن العابث عاد يتابع الطائرة فى سقوطها .. ورايت نفسى فى ماء البحر اصارع الموج .. حتى اقرب شاطىء .

واتصور كيف سيصل إليك نبأ سقوط الطائرة .

ثم نبأ إنقاذى سليمة .

ولم الث حتى نفضت من راسى كل هذه السخافات .. والتفت إلى « ابى » اجره إلى حديث ينقذنى من انحراف ذهنى إلى الأفكار السخيفة .

قلت لأبى :

ــ عندما نصل نريد ان نقضى بضعة ايام فى الغوطة .

ــ إن شاء الله .. ستكون معدة لاستقبالنا عندما نصل .. لقد اتموا إصلاح العريشة .. وبناء الحجرة والحمام .

وتساءلت امى فى دهشة :

ــ متى فعلوا هذا ؟

ــ لقد امرتهم به قبل ان اسافر .

ــ الم اقل لك لا داعى لعمله .

وضحكت .. فتساءلت امى :

ــ اكنت تعرفين انه فعل هذا ؟

ــ اجل .. لقد اتفقنا عليه قبل ان نسافر .

ــ وانا لا حساب لى؟

ــ ستعجبين به عندما ترينه قد تم .

وهزت امى راسها وتنهدت ، وهى تقول فى استسلام :

ــ اشياء لا لزوم لها .

ورد ابى قائلا فى خليط من الجد والمزاح :

— سنحتاج إليها عندما تتزوج سهير .

ونظرت إلى « ابى » وانا اتساءل ضاحكة :

— لم يكن هذا هو الاتفاق .

— ولكنه سيكون النتيجة .

وببساطة غير ابى مجرى الحديث متسائلا :

— ما هى اخبار حمدى ؟

وبرغم انه لم يربط بين الموضوعين ربطا مباشرا .. فقد احس كل منا .. أن الموضوعين يتمم احدهما الآخر .. الزواج .. وانت .. وانه عندما يطرق موضوع زواجى .. لا يبرز فى الصورة غيرك .. وملأنى إحساس بالارتياح والسعادة .. وانا احس بارتباطنا معا .. يتاكد فى كل لحظة .

واجبت « ابى » بنفس البساطة التى وجه بها السؤال :

— على خير حال .

وعدنا إلى الصمت .. واغمض « ابى » عينيه .. وعدت احملق من النافذة فى الفراغ الأسود الذى لا يبدو منه غير لسان اللهب الخارج من الجناح .

وبدات المرحلة الاخيرة من الرحلة .. بعد ان غادرنا روما .

واخلد كل منا إلى الصمت .. صمت النوم .. او صمت شرود الذهن .. حتى أخذت الطائرة تقترب من دمشق .

وسمعنا صوت المضيفة تقول :

— بعد بضع دقائق سنهبط فى مطار دمشق .

ثم استرسلت فى تعليماتها المعتادة عن شد الحزام ، وترك التدخين وتمنياتها بأن نكون قد استمتعنا برحلة سعيدة وان نعود مرة اخـرى للطيران على خطوط الشركة .

واخذت الطائرة فى الهبوط وانا اقرا الفاتحة واحسسنا بطرقات العجل على الارض ثم وقف المحرك .

وبرغمى انطلقت تنهيدة طويلة حارة وهمست حامدة الله .

اخيرا .. عدنا .

وتركت جسدى يسترخى فى المقعد .

كنت ابلغ اقصى درجات التوتر العصبى .. فى لحظة الرحيل ، ولحظة الوصول .

اتنفس الصعداء عندما تنطلق الطائره فى الجو ، واحس بها تسرى فى السماء .

واتنفس الصعداء ثانية عندما احس بها قد استقرت بى على الارض .

وفككنا الاحزمة وتركنا المقاعد وجذبنا الاحمال من فوق الرفوف .

وسار « ابى » امامنا ، وقد علق على كتفه إحدى حقائب الطيران وحمل فى يديه حقيبتين اخريين وسرت اتبعه اتوكأ على العصا وورائى « أمى » .

وهبطنا درج الطائرة وانا احاول ان اختطف نظرات إلى مبنى المطار وسرنا وزاء المضيفة تلفنا الظلمة ، واجتزنا باب جناح القادمين حتى تنتهى إجراءات الجمرك والجوازات .

واندفع إلينا « حسان » يرحب بنا فى حرارة ، ووراءه نادية وخالتى حفيظة وسلمى .

وانتهت فترة الترحيب بكل ما فيها من دموع واشواق .

واحسست بخذلان شديد .. وانا لا أجد وجهك بين المستقبلين ، ولم استطع فى حماسة الوصول وفرحة اللقاء .. ان أسال عنك .. حتى لا ادع لمشاعر الخيبة والخذلان والضيق والقلق التى ملأت نفسى ، وانا لا اراك بينهم .. سبيلا إلى مظهرى او تصرفاتى .. ورحت القاهم بحماسة وفرحة وكأنى لا افتقد شيئا .

وجلسنا على بعض المقاعد ريثما ينتهى « حســـان » من تخليص إجراءات الوصول ، ودار الحديث متقطعا ، سؤال من هنا وجواب من هناك .

قالت خالتى للمرة العاشرة وهى تربت ظهرى فى حنان :

ـــ حمدا لله على السلامة يا حبيبتى .. الف حمد الله على السلامة .. قلوبنا كانت معكم فى كل لحظة .

واحسست فى لهجة « خالتى » نوعا من الاستسلام الذى احس به دائما فى لهجة « أمى » ، ورايت فى وجهها علامات هزال وشحوب ، لم تكن تبدو عليها من قبل .

لم ار فى عينيها الحماسة والقوة واليقظة التى كنت اراها دائما واحسست ان بها شيئا ، وسالتها عن زوجها قائلة :

ـــ كيف حال عمى ؟

واطلقت زفرة ضيق واجابت :

ـــ لا يريد ان يفيق من الصدمة .. منذ تركتمونا ونحن فى حال لا يعلم بها إلا الله .

وصمتت برهة ثم اردفت قائلة :

ـــ ليس لدينا ما يبعث على الرضاء سوى عودتك بالسلامة .

وقلت احاول ان اسرى عنها وانا مشغولة بغيبتك .. متلهفة إلى سماع اخبارك :

ـــ لا تضيقى هما يا خالتى .. كل شىء سينتهى إلى خير حال .

وهزت راسها قائلة فى حيرة :

ـــ كيف ؟

ولم استطع ان اقول لها كيف ، او على الاصح لم اجسر فما كنت ارى هناك سبيلا إلى إنهاء الأمر بالنسبة لهم على خير حال .. إلا بالرضاء بالواقع .. ولكنى لم اجد ان الأمر يمكن ان يكون مقبولا لديهم بمثل هذه السهولة .. وانا احس بما فى حديثها من مرارة وضيق .

وتمنيت لو تغير مجرى الحديث ، وتلهفت علىّ أن يخبرنى احد عنك .. ونظرت إلى اختك « نادية » استغيث بها .

وابتسمت لى « نادية » ولم تقل اكثر من الجملة التى اخذت اضيق بها ذرعا :

ـــ حمد الله على سلامتك .

وعادت نادية تقول :

ـــ لقد اتينا إلى المطار بعد ان انتهى مهرجان الشعر .. لقد القى « حسان » حديثا عن البحترى .. وكان المفروض أن يحضر « حمدى » المهرجان ثم ياتى معنا إلى المطار حسب اتفاقنا عندما حدثنا فى التليفون وسألنا عن موعد حضورك .

وصمتت « نادية » ووجدتنى اسألها ببساطة :

ـــ ولماذا لم يحضر ؟

ـــ لست ادرى ماذا اخره .. لقد وعد بالحضور من الجبهة فى الساعة السابعة مساء إلى مسرح المعرض .. كان يجب عليه أن يتحدث فى التليفون إذا كان قد وجد أن ...

واقبل « حسان » بعد ان انتهى من إجراءات الجمرك .. وكان قد استمع إلى جملة « نادية » الأخيرة فقاطعها قائلا :

ـــ إنه لم يجزم باستطاعته العودة فى السابعة .. لقد قال إنه سيحاول ان يستاذن الليلة لكى يحضر لاستقبالها معنا فى المطار فإذا لم يستطع فسيحضر فى الفجر .

وهكذا استطعت ان أعرف عنك شيئا .. عرفت انك كنت تنوى الحضور ، ولم تستطع ، وانك ستحضر فى الفجر .

وان علىّ ان انتظر حتى مطلع الفجر لكى القاك ، او اتحدث إليك .

كان علىّ ان اصبر حتى ينتهى الليل ، وينقشع الظلام .

مرة اخرى .. مزيدا من الصبر .

والذى منحنى الصبر حتى انتهى ليل ياسى .. وانقشع ظلام تعاستى وبؤسى .. لن يستعصى عليه ان يمنحنى الصبر بضع ساعات اخر .. حتى يشرق الفجر .. والتقى بك .. واخبرك انى عدت إليك .. ملء نفسى الأمل والحب والثقة والإيمان .. وإنى موافقة على ما سألتنى إياه ، مرحبة بالارتباط بك حتى آخر العمر .

ونهضنا لمغادرة المطار وركبت عربة حسان مع نادية وسلمى .. وسألت سلمى عن حالها وحال أسرتها وحال الكلية وحال البلد كلها .

وضحكت سلمى قائلة :

— لا شىء أكثر مما أرسلته لك فى رسالتى الأخيرة .. رياض ما زال يبحث عن زوجة .. وأختى عزة .. ما زالت ساخطة على الوحدة وعلى الحكم .. وشكيب أضحى صديقا لها بحكم خصومتهم للوحدة وبحكم تعاونهم فى إطلاق الإشاعات والتشنيع بالحكام .. وأبى متوجس من حالة القلق التى تسود البلد .. نتيجة التوتر الذى حدث بين المشير والسراج .

ورد « حسان » وهو يتجه بالعربة نحو الطريق إلى دمشق :

— لقد استقال السراج وانتهت المشكلة .

وتساءلت فى دهشة وقد انتابنى إحساس خفى بأن الموقف يبعث على الطمأنينة والارتياح :

— استقال .. متى .. وكيف ؟

وقال حسان شارحا :

— بعد التنظيم الأخير الذى وحد جهاز الحكم فى الجمهورية كلها .. فى وزارة واحدة .. أحس السراج بأنه أبعد عن السلطان .. ووجد نفسه فى القاهرة لا يفعل شيئا بعد أن كان يحكم سوريا كلها .

وقالت نادية متسائلة :

— كيف ؟ .. ألم يكن نائب رئيس الجمهورية للشئون الداخلية كبقية نواب رئيس الجمهورية الذين حددت لكل منهم اختصاصاته !

— المفروض هذا .. ولكنه — كما تقول الشائعات — لم يحس أنه يمارس سلطة فعلية فى القاهرة .. وأنه حاول الحصول على بعض البيانات من وزارة الداخلية . فلم يفلح . وأنه عندما أحس بهذا .. أخذ نفسه وحضر إلى دمشق .. وجمّع أوراقه من المجلس التنفيذى ..

ومن الداخلية .. واستقر فى مكتبه بمقر الاتحاد القومى .. قائلا إنه إذا كان لم يعد بعد رئيسا للمجلس التنفيذى .. أو وزيرا للداخلية ، فهو ما زال أمينا عاما للاتحاد القومى .. وأنه ليس هناك ما يحول دون ممارسته لعمله فى الاتحاد .

ووجدت نفسى أقاطع حسان مستفسرة :

— من الذى يعمل فى وزارة الداخلية هنا ؟ !

— لا أحد .

— كيف ؟ !

— لأن كل الوزراء فى مصر .

— ألا يوجد وزراء هنا ؟ !

— جهاز الحكم موحد هنا وهناك .. والمفروض أن تستقر الوزارة كلها ثمانية أشهر فى مصر ، وأربعة أشهر فى دمشق .

— وخلال الثمانية أشهر التى تقضيها الوزارة فى القاهرة من الذى يستقر فى الوزارات هنا فى دمشق ؟

ورفع « حسان » كتفيه دون أن يجيب .

وعدت أسأل مستطردة :

— وخلال الأشهر الأربعة التى تستقر فيها الوزاره فى دمشق .. من الذى يدير شئون الوزارات فى القاهرة ؟

وقال حسان :

— المفروض أن يكون مقر الحكم المركزى ثمانية أشهر فى القاهرة وأربعة فى دمشق .. وأن تحكم الجمهورية ثلثى العام من القاهرة وثلثه من دمشق .

ولم أقتنع تماما .. فقد كنت أحس أن الناس فى دمشق أو فى القاهرة لا يمكن أن يحسوا أن مصالحهم تقضى بوزارة بلا وزير فى مبناها .. وأن ثمانية أشهر فى القاهرة وأربعة فى دمشق ستترك الناس حيارى وهم يرون الوزارات عندهم بلا وزراء .

واستطرد حسان يقول وهو يحس بحيرتى :

— لقد كان هناك اتجاه يرى ان كل إقليم يجب ان يعامل حسب ظروفه الخاصة .. وان ما يطبق على مصر لا يصح تطبيقه على سوريا .. وان الأوضاع فى سوريا غيرها فى مصر .. ومستوى المعيشة هنا غير هناك ؛ ولكن الاتجاه الاخير يرى اننا جمهورية واحدة وشعب واحد وان التفرقة بين الإقليمين بدعوى ان لكل إقليم ظروفه واوضاعه امر لا يتفق مع اسلوب الوحدة ، وان الوحدة يجب ان تطبق عمليا باقصى حدودها وانه يجب الا تكون هناك اية تفرقة بين إقليميها .

وصمت حسان برهة .. يتذكر ماذا كان يقول عندما قاطعته وسالته اذكره بما انتهى إليه حديثه :

— ماذا حدث بعد أن استقر السراج فى مكتبه فى الاتحاد القومى ؟

— بدا التوتر بينه وبين المشير الذى وصل إلى دمشق لتغيير اسلوب الحكم ، بداه بإصدار قرار بالا يقبض على اى فرد إلا بامر النيابة ، كما بدا عملية إلغاء المكتب الثانى فنقل ضباطه ، وقيل إن السراج رد على قرار عدم القبض على اى فرد إلا بامر النيابة بأن هذا « شرشحة » له وانه لم يقبض على من قبض عليهم إلا لأمن البلد وان المعتقلين لا يزيدون على تسعين ، كما حاول ضباط المكتب الثانى الا ينفذوا امر النقل فاحتل المكتب الثانى بقوات الجيش واغلق ، وقد قيل إن المكتب الثانى قد سبق ان قدم تقارير ضد ضباط القيادة واتهمهم بالتآمر ، كما قيل إن الصراع بين المكتب الثانى والمخابرات العسكرية صراع قديم .

وصمت حسان وزاد إحساسى بالقلق فعدت اتساءل :

— وماذا حدث بعد ذلك ؟

— بدا السراج يمارس عمله في الاتحاد القومى على النطاق الشعبى بالاجتماع بالاعضاء ، وزعم البعض انه نفى مسئوليته عن القوانين الاشتراكية ؛ وشمت الخصوم فيما احسوا به من بوادر النزاع .. وتظاهروا بتاييد السراج برغم بعضهم له واعتباره المسئول الاول عن كل شىء .. وبدات الاقوال تنقل بين الطرفين بطريقة زادت هوة الخلاف ، ووضح الخلاف فى كيفية انتخاب اللجان التنفيذية للاتحاد القومى ،

فالسراج يحاول تنفيذ قرار موجود لم يصدر امر بإلغائه ، والمشير يحاول تنفيذ قرار جديد كلف بتنفيذه .. حتى تفاهم الطرفان على السفر إلى مصر لفض الخلاف ، ولكن الخلاف استعصى فضه ، واصر السراج على الاستقالة فلم يكن هناك بد من قبولها .. وعاد المشير إلى دمشق ومعه السراج بعد أن قبلت استقالته .

وصمت حسان ولم استطع ان امنع نفسى من ان يتسلل إليها إحساس بالخوف .. خوف مبهم .. من ظلمة تطبق على البلد وضباب يخيم فى ارجائه يجعل الرؤية متعذرة .. ويملأ الإنسان شعورا بانه لا يرى من ايامه القادمة ابعد من انفه .

ولم يطل بى الخوف طويلا ..

لم يطل بى اكثر من بقية الطريق .. حتى وقفت العربة امام باب البيت ووجدتنى ببساطة اطرد من ذهنى كل تفكير سياسى لالقى عبئه ومشكلاته على اصحابها والمسئولين عن حلها .

وملكت نفسى مشاعرى الخاصة التى تدفقت فى حرارة وانا اقف امام البيت ارقب الشجرة الضخمة المتعالية ، واشم عبق الياسمينة المتسلقة إلى نافذة حجرتى وارقب دمشق باضوائها المتلألئة اسفل الجبل ، وارى « حنيفة » تندفع من باب البيت لتضمنى فى لهفة إلى صدرها وهى تنشج باكية وتتمتم باقوال غير مفهومة .. خليط من الدعوات وآيات القرآن .

وسرت إلى الباب متكئة بخفة على ذراع « ابى » وقد تركت العصا جانبا وتمنيت لو اقبلت علىّ ساعتها لترانى كيف اسير ، بلا مشد .. ولا عصا .. ولا عرج .. مشية متزنة ثابتة .. برغم ما بى من إجهاد السفر .

لو انك اتيت لاستقبالى !

لن تستطيع ابدا ان تتصور مقدار لهفتى على لقائك .

لقد كنت احق الناس برؤيتى .. وانا اقبل عليكم بعد تجربتى المريرة الشاقة .. سليمة الجسد متزنة الخطا مرفوعة الهامة .

لقد فعلت ما فعلت من أجلك .
اجل .. لا جدال فى ذلك ..
اقولها بلا حرج بعد ان اجتزت التجربة بنجاح .
فعلت ما فعلت لكى اقضى وإياك حياتنا الطويلة .. متكافئة معك .. لا اشعرك لحظة بأنى حمل عليك .. ولا اشعر لحظة بأن مشاعرك بها مسحة من عطف او شفقة او رثاء .
وعدت أسائل نفسى فى ضيق وانا اصعد السلم .
« لماذا لم تأت » ؟ .
وحاول الذهن ان ينحرف نجاة إلى الشكوك المريرة ، ليذكرنى بغيبتك ليلة زفاف نادية .
اتراه معركة اخرى مع اليهود ؟
ونفيت الخاطر عن ذهنى فى سرعة وحزم .
غير معقول .
لو ان هناك معركة لعرفنا .
ولكننا لم نعرف فى المرة السابقة .
ولكنك تحدثت هذه المرة لتخبرهم بأنك قادم فى السابعة او فى الفجر .. وفى المرة السابقة لم تستطع التحدث اصلا .
ولكن هل تحدثت حقيقة ام انهم يحاولون طمأنتى بإحدى الاكاذيب ؟
والتفت إلى نادية وهى تعبر باب البهو ورائى وقلت لها فى تشكك :
— احقيقة تحدث حمدى ؟ !
— اجل .
وماذا قال ؟
— قال إنه سيحاول ان يأتى فى الساعة السابعة ليذهب معنا إلى المطار ، فإذا لم يستطع فسيغادر الجبهة فى ساعة متأخرة من الليل ليصل إلينا فى ضوء الفجر .
وكان علىّ ان انتظر حتى ضوء الفجر .
ولكن كيف اراك فى الفجر ! ؟

غير معقول ان تأتى إلينا من الجبهة رأسا .. لتوقظنا فى الفجر .
ليتك تفعل .
ليتك تملك الجراءة على ان تصل مع الفجر لتطرق بابنا .
إذا لوجدتنى افتح الباب لك والقاك بين ذراعى .
ولكنك لن تفعل .
انا اعرف حياءك .. ستذهب إلى بيتكم .. بيت حسان ونادية الجديد فى برمانة .. حيث تعيش والدتك وحيث تنزل انت فى إجازتك .
اترى ستحدثنى فى التليفون ؟ !
على الاقل افعل هذا .
دعنى اسمع صوتك .. إذا كان حياؤك وذوقك يمنعانك من إقلاقنا .
دعنى اسمع صوتك عندما تصل .
لا تخش ان تقلق احدا .. فسأضع التليفون بجوارى لارد عليك بمجرد ان يدق الجرس .
ولماذا لا احدثك انا ! ؟
عندما يضمحل الليل .. وتنقشع الظلمة .. وتتسلل خيوط الفجر من النافذة سأرفع السماعة واطلبك .
وإذا كنت لم تصل بعد . ؟
ازعج امك .. وبقية اهل الدار .. ليظنوا انك المتحدث وان شيئا قد وقع .
حماقة ان افعل هذا .
اخبر نادية .. ان تسألك ان تطلبنى فى التليفون بمجرد ان تصل ؟.
قد تكون نائمة عندما تصل !!
هل اجسر ان اسألها ان تسهر حتى تصل ؟ !
حتى الفجر !!
ماذا تقول علىّ .. مجنونة ! ؟
لماذا لم تحضر لتريحنى من كل هذا ؟ !

ابدا تخذلنى عندما اتلهف عليك واتوق إلى لقائك .

ولكن لماذا اظلمك ؟

برغمك لم تات .. ما فى ذلك شك ..

وستاتى غدا .

لماذا لا انتظر اذا ؟!

مزيدا من الصبر .. مزيدا من الصبر .

غدا سينتهى الليل .. وستشرق الشمس .

اجل ستاتى غدا .. فما من ليل هناك بلا آخر .

ليل باسى الطويل قد انقضى .. ولم تبق إلا ساعات على ليل قصير .. عمره فى يد الشمس المقبلة من وراء الأفق .

وهى آتية آتية .. مشرقة مشرقة .

ووقفت فى الشرفة أعب نسمات الليل فى صدرى .. تختلط فيها أنفاس الياسمين بأنفاس دمشق .

دمشق الحبيبة .. الطيبة .. المخلصة .. المنفعلة كالطفل .. اذا فرح قهقه .. وإذا تألم صرخ .

دمشق التى تنفعل ولا تؤذى .. تضرب ولا تخدش .. تخدش ولا تجرح .. وتجرح .. لتضمد الجراح .. لا تقتل ولا تسحل .

ووددت فى وقفتى لو ضممت أشجار السرو .. ومسحت وجهى على صفحة بردى .

وجاوز بصرى المدينة النائمة إلى الأفق الشرقى .

وراء الخط الشاحب الفاصل بين السماء وقباب المدينة وأطراف الشجر .. يختفى قرص الشمس .

ما زال بعيدا .

ولكنه يقترب .

تتقدم موكبه .. سهام أنواره ورماح أشعته .. فى ثقة ، وحزم وإصرار .

هذه الحشود المعتمة المتلاصقة .. التى تنتشر على طول الأفق لن تجسر على مقاومة زحفها .

لن تجسر حتى على الوقوف لانتظارها .

أطراف السهام وأسنة الرماح ، ستجعلها تنكص على عقبيها مذعورة مندحرة .. مهرولة متعثرة .. ستجعل من انسحابها هروبا .. ومن هزيمتها اندحارا .

انت آت مع قرص الشمس .

آت مع انتصار النور .

آت فى أعقاب الليل .

ليل .. ككل ليل .. لابد له من آخر .

ليل طويل

نمت ليلتى الأولى انتظر ضوء الفجر .. والتليفون بجوار الوسادة .. لعل اولى رناته تحمل إلىّ صوتك ، واسلمنى جهد الرحلة ، وصخب اللقاء ، وتوتر الأعصاب فى انتظار لقائك ، إلى خليط مشوش مضطرب من الأحلام ، كنت فيها القاسم المشترك الاعظم ، اذكر منها رقدتى فى المستشفى بلندن وقد اخفقت العملية الأخيرة ، وانت تقف بجوارى ترجو ان أعود إلى دمشق وانا اصر على إجراء عملية اخرى .. ثم رايتك تحملنى على جواد وتنطلق بى إلى الفضاء ، وانا فى سعادتى الغامرة اخشى ان تسقط من حالق وانت تؤكد لى ان السحاب يسندنا ، خرافات كثيرة رايتها فى احلام ليلتى تلك .. مليئة بالأمل والخوف ، والرجاء واليأس .. وكان آخرها ما رايته من إقبالك علىّ فى قطار لا يريد أن يتوقف وهو يحملك بعيدا عنى ، وانت تلوح لى بيدك وانا اجرى للحاق بك .

وايقظنى من حلمى الكئيب رنين .. خلته برهة رنين اجراس المحطة التى كنت أودعك فيها ، ومضت بضع ثوان وانا احاول ان إنفض النوم عن جفنى واذكر اين اكون حتى ادركت انى فى حجرتى وان الرنين رنين التليفون فمددت يدى ارفع السماعة إلى اذنى فى لهفة وانا اتوقع سماع صوتك .. هاتفة فى فرحة شديدة :

— الو .. حمدى ؟

وسمعت صوت اختك « نادية » تجيبنى :

— انا نادية يا سهير .. متأسفة إذا كنت قد ايقظتكم .

ولم اكن فى حال تسمح بالدخول فى مناقشة اعتذارها . فرحت اتساءل بسرعة :

— أين حمدى ؟

وردت « نادية » فى تردد :

— حمدى .. لم يصل بعد .

— الم يتحدث فى التليفون ؟

— كلا .. ولكن ...

— لكن ماذا ! ؟

— إننا نسمع صوت طلقات آتية من ناحية استراحة المشير .

وتساءلت فى دهشة :

— وماذا يعنى هذا ؟

— يقال إنه قد حدث انقلاب وإن الدبابات تحاصر قيادة الأركان وبيت المشير .. ولست أعرف اين يمكن ان يكون « حمدى » .

وغلب الانفعال صوتها .. ومضت برهة صمت .. ثم سمعت صوت حسان فى السماعة يهتف قائلا :

— لا داعى للخوف يا سهير .. إننا لم نتبين بعد حقيقة ما حدث . ولا ما هو المقصود به .

— وحمدى ؟

— لعله لم يات من الجبهة بعد .. وقد يكون فى الطريق إلينا .. على اية حال ساحاول الاتصال ببعض الضباط لعلى أعرف حقيقة ما حدث .. وسننتظر بدء الإذاعة .. فلا شك انها ستوضح لنا حقيقة ما حدث .. على اية حال لا داعى للقلق .. فلست اظن هناك شيئا جادا .

وكان « أبى » قد اقبل وهو يهز رأسه متسائلا :

ـــ ماذا هناك ؟ !

وسنمته سماعة التليفون وانا احس بصوتى تكاد تخنقه العبرات .. وقد سرى إلى نفسى خوف شديد .

ماذا قد خبأ لنا القدر وراء ذلك الليل الذى تابى شمسه ان تشرق ؟ هذه الطلقات التى سمعت عند بيت المشير .. ماذا تعنى ؟

انقلابا ؟ !

ممن ؟ !

وضد من ؟ !

واين انت من هذا الشبح الكئيب الذى يطل علينا فى أعقاب ليل نتلهف على رحيله .. ليطمس فجره .. ويحجب شمسه ؟ !

ابعد كل هذا الذى قاسيته ؟ !

بعد الصبر الطويل ، والآلام المبرحة ، وبعد ان قدمت إليك .. ملء نفسى الامل .. امد لك يدى فى إيمان وثقة .. فإذا بالظلمة والضباب تحول بينى وبينك .. ولا أعرف اين انت .. من هذا الليل الطويل الكئيب الذى لا يريد ان ينتهى .

ولكن لماذا كل هذا الجزع واليأس ؟ !

ماذا يحول بينك وبين المجىء ؟ !

حتى الانقلاب الأحمق لو وقع .. فلن تبلغ به الحماقة .. ان يمس وحدتنا المقدسة ، التى امتزجت فيها دماؤنا .

دمك انت بالذات قد امتزج بدم إخوتك السوريين على ارضنا .. فى التوافيق .. لن يجسر أحد من هؤلاء الحمقى أن يمسك .. وفى ارضنا بعض دمك .. الذى جعل من أرضنا ارضك .. ومن دمك دمنا .

اجل .. ايا كان صاحب الانقلاب ، وايا كان هدفه فلن يجسر بحال أن يمس وحدتنا .. التى منحتنا الاستقرار والقوة ، والقدرة على البناء .

لقد كانت الوحدة ، مرفأ الأمان فى حياتنا ، ما احسست ان احدا

من الساخطين .. قد جرؤ مرة واحدة خلال سخطه على ان يجد فى هدمها وسيلة للخلاص .

حتى « زوج خالتى » فى اشد حالات سخطه على القوانين الاشتراكية ، لم يجرؤ على مس الوحدة .

ولكن .. من وراء الانقلاب ؟ !

اتراه السراج ؟ قد يكون الضيق دفعه إلى القيام به .

اهكذا .. وبهذه السرعة ؟ !

لا اظن .. غير معقول .

ام تراهم الشيوعيون ؟ !

وسرى إلى نفسى الخوف من جديد .

إننا لا نستطيع أن نأمنهم ، وهم يكرهون الوحدة .. ما فى ذلك شك .

اتراهم البعثيون ؟ .. وازداد بى الخوف .. الم ينقلبوا هم ايضا على الوحدة ؟

وامسكت بالراديو .. ادير المؤشر يمنة ويسرة لعلى التقط إذاعة تنبئنى بحقيقة ما حدث .

ولكنى لم اسمع سوى صفير وضوضاء .

وكانت الساعة لم تتجاوز الخامسة .. وموعد الإذاعة لا يبدأ قبل السابعة .

ولم اجد فى نفسى القدرة على الصبر حتى يحين موعد الإذاعة .. وذهبت إلى الشرفة وحاولت ان استطلع حقيقة ما حدث .. وتطلعت بعينى فوجدت المدينة نائمة ، ترتجف فى ارجائها اضواء آخر الليل ، ولافتات النيون تضىء وتنطفىء فى رتابة ، وأشجار السرو تعلو فى الأفق مع المآذن والقباب ، وعربات تمرق بين آونة واخرى .

لم اسمع صوت طلقات ، ولا أحسست فى المدينة النائمة حركة غير طبيعية ، وشممت أنفاس الصبح تتصاعد هادئة من الياسمينة المعلقة على النافذة تحملها إلى نسمة رطبة لتملأنى يقينا بأن كل شىء

هادىء فى المدينة ، وتؤكد لى ان كل ما سمعته تصورات واوهام .

وعدت من الشرفة لاجد « امى » قد استيقظت وعلمت من « ابى » ما حدث ، وبدت عليها علامات القلق والجزع .

وقلت اطمئنها :

— لابد وان هناك شىء ..

وردت « امى » بلهجة مهمومة :

— والطلقات التى سمعت ؟ !

— قد تكون مناورة للجيش قريبة من المدينة .

واردف « ابى » يقول :

— جائز .. جائز جدا .

ثم صمت برهة واستطرد يقول :

— لا أظن عاقلا يقر وقوع انقــلاب أيا كان .. لقد ذقنـــا طعم الاستقرار .. وليس هناك ما يساوى فقده مرة أخرى .

واحسست بمزيد من الطمأنينة لقول « ابى » . وعدت احرك مؤشر الراديو لالتقط صوتا يمنحنى المزيد من الطمأنينة .

ولم أسمع سوى الصفير .. وبعض المحطات الاجنبية .

وقالت لى أمى :

— انهضى إلى فراشك لتستريحى .. إنك لم تنامى سوى بضع ساعات .

ولم يكن من المعقول ان يقرب النوم عينى وانا لا اعرف اين انت .. وهززت راسى وقلت لامى :

— ليس لدىّ رغبة فى النوم .

ثم رفعت سماعة التليفون أطلب « حسان » أو « نادية » لعلى اجد ما يطمئننى عليك .

ورد علىّ « حسان » فسألته فى لهفة :

— ما الأخبار ؟

واجاب حسان :

— لا شىء .

— وحمدى ؟ !

— لم يصل بعد .

— الا تستطيع الاتصال به فى الجبهة ؟ !

وهتف « حسان » فى دهشة :

— جبهة ! ؟ كيف ؟

— بالتليفون ! ؟

— الظاهر انه ليس لديك فكرة .

— عن اى شىء ؟ !

— عن الانقلاب .

— ولكنى لم ار له اثرا .. لقد نظرت من الشرفة فبدا كل شىء طبيعيا .. المدينة هادئة .. وليس هناك اية انفجارات .

— لقد رايت بنفسى الدبابات تحيط بقيادة الأركان .

وهتفت فى جزع :

— حقيقة ؟ !

— طبعا .

— وما العمل ؟

— لا شىء .. لا شىء سوى الانتظار .

— وحمدى ؟ !

— لست أظن هناك ما يهدده .. سيكون آمنا مهما كانت الظروف .

— ولكن ....

وترددت برهة .. ولم اعرف كيف اعبر عن لهفتى عليك .. وعلى معرفة اخبارك .. وصمت برهة ، ثم عدت أقول :

— ولكن .. كيف نطمئن عليه ؟ !

— سننتظر حتى الصباح .. سيتبين لنا كل شىء .

حتى الصباح !!

كيف انتظر حتى الصباح .. وانا لا أعرف عنك شيئا . اين انت ؟ .. وكيف انت ؟ !

وخطر لى ان اطلب « سلمى » .. فلعل رياض يستطيع أن ينبئنا بشىء .

وادرت القرص .. ومضت مدة دون أن يجيب أحد .. لقد كانوا نياما ولا شك .. لم يعلم احد منهم شيئا عن الانقلاب .

وكدت اعيد السماعة إلى مكانها عندما سمعت صوت « سلمى » ترد علىّ وهى نصف نائمة :

ـــ آلو ..

ـــ انا سهير يا سلمى .

وبدا الجزع فى صوت « سلمى » وهى تتساءل :

ـــ خير يا سهير ؟ !

ـــ لقد وقع انقلاب فى البلد والدبابات تحاصر قيادة الاركان وبيت المشير .

وردت « سلمى » فى دهشة شديدة تنفض النوم عن عينيها :

ـــ ماذا تقولين ؟ .. انقلاب ؟ .. غير معقول ..

ـــ هذا هو ما حدث .. لقد راى « حسان » الدبابات بعينيه .

ـــ ولكن من الذى يفعل هذا ! ؟ ولمصلحة من ؟ !

ـــ لا نعرف شيئا .. ولقد كان المتوقع أن يصل « حمدى » من الجبهة فى الفجر .. ولكنه لم يصل حتى الآن .. ولا أحد يعرف عنه شيئا .

وردت « سلمى » تحاول طمأنتى :

ـــ لعله فى الطريق .. او لعله لم يستطع الاستئذان .

ـــ وكيف نعرف ؟ !

واحسست ان احدا بجوار « سلمى » يسألها عما حدث ، فقد سمعتها توجه الحديث إليه قائلة :

ـــ سهير تقول إن انقلابا قد حدث .. والدبابات تحاصر قيادة الاركان .

ثم وجهت « سلمى » الحديث إلىّ قائلة :

ـــ رياض سيحدثك يا سهير .

وسمعت صوت « رياض » يتساءل فى دهشة شديدة :

ـــ خير يا سهير .. ماذا حدث ؟

ـــ انقلاب .

ـــ اواثقة انت ؟

ـــ حسان يؤكد انه راى الدبابات بعينيه .

ـــ عجيبة !!

وقبل ان يسترسل فى الحديث سألته فى لهفة :

ـــ الا تستطيع ان تعرف شيئا عن حمدى ؟ !

وتساءل رياض فى شرود :

ـــ حمدى ؟

واجبته فى شبه توسل :

ـــ اجل .. كان المتوقع ان يأتى أمس فى السابعة حتى يذهب معهم للقائد فى المطار وقال إذا لم يتمكن فسيأتى قرب الفجر .. وحتى الآن لم يصل !!

وصمت برهة التقطت انفاسى .. ثم عدت اتساءل :

ـــ الا تستطيع أن تسأل عنه ؟ !

ورد « رياض » مؤكدا :

ـــ طبعا .. سأنزل حالا واذهب إلى قيادة الفرقة لاسأل لك عنه .

وصمت « رياض » برهة .. ثم استطرد بكل ما يملك من إيمان :

ـــ لا تقلقى عليه ابدا .. إنه واحد منا .. ليس هو وحده .. كل المصريين منا .. لقد امتزجت دماؤنا على ارضنا .. لن يستطيع احد مهما ساءت نواياه .. أن ينكر هذه الحقيقة .. سأذهب إلى هناك وسأرد عليك .. لا تقلقى ابدا .. مع السلامة .

وتناولت « سلمى » السماعة لتقول لى مطمئنة :

ــ لا تقلقى يا سهير .. كل شىء سينتهى إلى خير .. وسآتى إليك بمجرد ان يطلع النهار .

ووضعت السماعة وجلست انتظر .. ويدى على مؤشر الراديو .. ومر الوقت بطيئا متثاقلا حتى دقت الساعة .. وبدأ صوت المذيع يقول فى هدوء :

« أيها المستمعون الكرام .. ستستمعون إلى تلاوة من آى الذكر الحكيم » .

ثم علا صوت المقرىء .. ليملأنى بالطمأنينة والامان .

أجل .

لقد بدت الإذاعة طبيعية .

لا صياح ولا ضجيج .

لم يكن هناك انقلاب .. إذن كل ما قاله « حسان » وهم فى وهم .

وقلت لأمى وانا أبتسم :

ــ لا يبدو هناك شىء غير طبيعى !

كانت تلاوة المقرىء .. كأنها يد تربت ظهرى فى رفق وحنان .

وانتهى المقرىء من التلاوة .

ومضت فترة صمت ، واخذت ارهف السمع لعلى اسمع ما يؤكد الطمأنينة التى ملأتنى بها صوت المقرىء .

ولكنى فوجئت بما يشبه اللطمة .

لقد علا صوت يصرخ فى عصبية بالغة :

فى صباح هذا اليوم قام جيشكم الذى كان دائما وسيبقى ابدا دعامة وطنية راسخة فى الحفاظ على أرض الوطن وسلامته وحريته وكرامته .. قام لإزالة الفساد والطغيان ، ورد الحقوق الشرعية للشعب .. وإننا نعلن أن هذه الانتفاضة الوطنية لا صلة لها بشخص أو بفئة معينة ، وإنما هى حركة هدفها تصحيح الأوضاع غير الشرعية .

« أيها الشعب العربى .. ثق بجيشك فإننا اقوياء بعون الله وقوته .. إننا قد طرقنا كل باب فى إصلاح الفساد قبل أن ينفجر فلم نجد وسيلة للتحرر من المستغلين واتباع طريق الحرية والقوة سبيلا .. لكى تعاد للشعب حريته ، وللجيش كرامته ، ولن نرضى بعد اليوم لراية العروبة مفرا إلا هامات النصر ــ وهذه دماؤنا ــ نكتب بها أننا قد وفينا العهد وأبينا العيش إلا كراما ــ والله أكبر والعزة للعرب .

القيادة الثورية العربية العليا للقوات المسلحة

واصابنى من مجرد الصوت الصارخ العصبى إحساس بأن شيئا يلتوى فى باطنى ، ولم استطع ان افهم ماذا يعنى البيان .. وماذا يريد .. اى فساد ذلك الذى يرغب فى إزالته ، واى طغيان ذلك الذى يهدف إلى الخلاص منه ، واى حقوق يريد ردها إلى الشعب ؟

لم استطع ان اعرف من صاحب البيان ولا ماذا يريد . كان بيانا مبهما .. عصبيا .. يصرخ .. دون أن يفهم من صراخه شىء .. ولكن كان واضحا انه ضربة فى صميم الوحدة .. وانه معزز لكل خصومها .. محقق لمؤامراتهم ضدها .

واشتد قلقى عليك .. ولم احتمل الانتظار فى استسلام وانا اجهل مصيرك .. ولم اطق الانتظار حتى تصل « سلمى » فنهضت واقفة فى ضيق قائلة لأبى على مسمع من أمى :

ــ اريد ان اذهب إلى سلمى .

وتساءل « ابى » فى شىء من الدهشة :

ــ لماذا ؟

وازدردت ريقى وانا لا اعرف كيف اجيبه ... وتساءلت « أمى » مستنكرة :

ــ تخرجين والبلد فى هذه الحال ؟ !

ــ لا اظن هناك شيئا فى الطريق إلى بيتها .

ولم يصعب على « ابى » أن يدرك حقيقة ما بى من قلق وجزع ، ووجدته ببساطة يؤيدنى قائلا وهو يتجه إلى حجرته :

— آتى معك لاوصلك .
واحتجت « أمى » صائحة :
— لا يمكن أن تخرجا فى هذه الظروف .
وأجاب « أبى » فى هدوء :
— إذا وجدت ما يقف فى طريقنا .. سنعود .
وأمسكت بالتليفون وطلبت « سلمى » ولم تكد تسمع صوتى حتى هتفت قائلة :
— سآتى إليك يا سهير .
— بل سآتى أنا .
— ولكنى على أهبة النزول .
— ليس لديك عربة وقد لا تجدين وسيلة للمواصلات . سيوصلنى أبى إليك حالا .
وانتظرت أن تقول شيئا عن « رياض » ولكنها لم تقل أكثر من :
— سأنتظرك إذن .
ولم أجد بدا من سؤالها :
— وما أخبار رياض ؟
— لم يأت بعد .
— والحالة عندكم ؟ !
— لا شىء غير عادى .. سوى بعض عربات الجيش التى تمرق فى الطريق .. ودبابة ألمحها تقف أمام مبنى مصلحة الهاتف .
ووضعت السماعة .. بمزيد من الضيق .. ومزيد من الخوف عليك ثم هبطت وأبى إلى العربة .
وسارت بنا العربة فى المنحدر حتى بلغنا طريق برمانة متجهين إلى بيت « سلمى » قرب الساحة على نهر بردى دون أن تعترضنا عقبة ، ولم يبد فى الطريق شىء غريب .. لا شىء أكثر من باعة الصباح وتجمعات العمال عند محطات الأوتوبيس .

وأوصلنى « أبى » حتى باب شقة « سلمى » ثم ودعنى قائلا :
— عندما تريدين العودة .. اطلبينى من البيت .
ولمحت « عزة » وقد ارتدت ملابسها وبدت على وجهها علامات الفرحة والتهلل وقالت لسلمى وهى تهبط السلم :
— سأغيب طول اليوم .. لدينا اجتماع فى الحزب .. لقد جاء الفرج .. وحلت النهاية .. أخيرا ! ..
ولم ترد عليها « سلمى » وقالت وهى تحيى « أبى » وتسأله الدخول :
— ستتناول سهير الغداء معى .
— كما تريد .
ونظرت إلىّ « سلمى » مؤكدة :
— ستبقين حتى الغداء ؟
ولم تكن بى رغبة فى الارتباط بأى شىء يحول بينى وبينك .. كل ما كنت أريد هو أن أعرف أين أنت وكيف أراك ! ؟
وأجبت « سلمى » فى تردد :
— سنرى ماذا يحدث خلال اليوم ، حسب الظروف .
وأدركت « سلمى » مدى قلقى واضطرابى ، فأجابت وهى تفسح لى الطريق :
— كما تريدين .. تعالى .. سيكون كل شىء على ما يرام إن شاء الله .
ودخلت إلى حجرة « سلمى » ... وأخذنا ننصت إلى الراديو فى لهفة وقلق .. فى انتظار مزيد من الأنباء .. وآذاننا موزعة بين رنات التليفون ، ورنين جرس الباب . لعل شيئا منها يحمل إلينا نبأ عنك .
واستمر الراديو يطلق صرخاته الموسيقية .. حتى توقف فجأة وأعلن المذيع عن البلاغ رقم (٢) .
وانطلق الصوت الصارخ يتلو البيان .
وأنصت إليه بكل جوارحى .. لعلى أفهم ما وراءه .. ومن وراءه -

ولكنى لم اجد فيه سوى الالتواء والتضليل .

فقد وجه نداءه إلى الشعب العربى المكافح فى سوريا ومصر ، وادعى أن الشعب العربى المكافح فى سوريا ومصر قد قام متكلا على الله بحركة عربية ثورية لمحق المتمردين الذين ضربوا الوحدة العربية المقدسة فى الصميم .. وببساطة منح النداء لاصحابه صفة الشعب العربى المكافح ليس فى سوريا وحدها بل وفى مصر ايضا ، وحدد لنفسه هدف حماية الوحدة من متمردين ضربوها فى الصميم .

واحسست بعجزى عن الفهم ، وانا اشعر أن اصحاب البيان هم اول المتمردين الذين ضربوا الوحدة فى الصميم بحركتهم تلك .. وان تحدثهم باسم الشعب المكافح فى سوريا ومصر أمر يشعر بأن المتحدث يستهين بقدرة المستمع على التفكير .

واستطرد البيان .. فى جمله البراقة .. المهوشة .. المستغفلة .. حتى بدأ يلوح منه .. ما يكشف الزيف عن وجهه الحقيقى .. المستتر وراء اقنعة التضليل .. عندما حمل على القرارات الاشتراكية بوصفها :

« قرارات سمتها ثورية ، والثورة منها براء .. قرارات ظاهرها فيه الرحمة وباطنها فيه العذاب » .

واحسست كأن الجملة قد سلطت الضوء فجأة على شبح يحاول التسلل والاستتار ، واخذت استمع إلى بقية البيان بغير وعى .. وقد علقت العبارة فى ذهنى .

وذكرت قول « زوج خالتى » .. « إن الحال لا يمكن أن يستمر على ما هو » .

واحسست أن هذا الانقلاب الذى يحمل على القرارات التى ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب .

لابد وأن يكون قد منح أصحاب شركات الاستغلال والاحتكار الرحمة وازال عنهم العذاب .

وسمعت « أبا سلمى » يهز رأسه وقد انتهى من الإصغاء إلى البيان قائلا :

ــ فعلوها بالبلد .. من أجل اطماعهم فعلوها بالبلد .. الله يجازيهم .. ولا يبارك لهم .

ووجدت ذهنى يقفز طويلا إلى الماضى البعيد .. يوم عيد ميلادى حين اصبت بالشلل .. عندما ولد مشروع ضم شركة « زوج خالتى » إلى بقية الشركات من اجل القضاء على المنافسة وممارسة الاحتكار والاستغلال والتحكم فى الأسعار والأرباح ، وكيف اصبح بضعة أفراد يملكون معظم تجارة البلد ويتحكمون فيها .. وكيف فرضوا نفوذهم على الحكم .. وكيف كانت خالتى نفسها .. قبل الوحدة .. لا يستعصى عليها أمر لدى الحكام .

وعجبت أن تقوم انتفاضة .. لتعيد إلى بضعة أفراد حقهم فى الاحتكار والاستغلال والسيطرة .

عجبت كيف تقوم انتفاضة على الشعب لتنتزع منه امتلاكه لكل بلده وكل مقوماته .

وبدا لى من مهازل الانتفاضة .. أن تكون من بين برقيات مؤيديها .. برقية من شركة « زوج خالتى » .. الشركة التى كونت منذ سنوات لضمان الاحتكار والسيطرة .

وانتهى البيان الفاضح .. الفاضح لحقيقة الحركة .. الكاشف للدافع لها .. وتوالت الصرخات الموسيقية والأناشيد العسكرية .

وازداد بى القلق .. وانا لا أعرف شيئا عن مصيرك بعد .. واحسست بالأصوات الصاخبة فى الراديو تحطم أعصابى ، ومدت « سلمى » يدها تدير مؤشرها باحثة عن محطات اخر للإذاعة .. وسمعت إذاعة الأردن تهلل للحـركة .. ثم إسرائيل .. تذكر أنباءها بفـرحة وشماتة .

واحسست بشىء يدمى فى باطنى .

أبمثل هـذه السهولة تهون سوريا العزيزة .. على أصـحاب الانقلاب ! ؟ أبمثل هذه السهولة ينقلونها إلى جانب إسرائيل !

واستمرت « سلمى » تدير المؤشر .. حتى وصـل إلى صوت

العرب .. ومضت فترة قبل ان يعلو صوت « الرئيس عبد الناصر » يذيع بيانه الأول من دار الإذاعة ، فى مرارة اليمة .. احسست بها من قبل فى صوته وهو يذيع انسحاب القوات المصرية من صحراء سيناء محافظة على كيان الجيش .. خلال العدوان الآثم على القنال .

وانتهت الخطبة وانا انصت إليها بكل جوارحى .

واخذ يتردد فى ذهنى قول الرجل الكبير فى إصرار :

« لن اعلن ابدا بأى حال من الأحوال انى انتهز هذه الفرصة بعد المتاعب التى قابلتها لإعلان حل الجمهورية العربية المتحدة فانا مسئول عن هذه الجمهورية من القامشلى إلى اسوان ، وانا مسئول عن الأهداف التى اعلنتموها والتى قبلت تحقيقها معكم .. مسئول عن الوحدة العربية ، وعن دعوة القومية العربية .. لن انتهز هذه الفرصة واقول لتحل عنى هذه المتاعب واعلن حل الجمهورية العربية المتحدة ابدا » ..

صبور .. صبور .. هذا الرجل .

ووجدت نفسى اقول فى غيظ :

« اقذف بها فى وجههم وارح نفسك » .

وقبل ان استرسل فى افكارى العصبية الثائرة ..

دق جرس الباب .

وقفزت « سلمى » إليه لتفتحه .

واقبل « رياض » وقد بدا التجهم على وجهه .. ولكنه لم يكد يرانى حتى كسا وجهه بابتسامة ترحيب قائلا :

— اهلا سهير .. لقد اتيت لأحدثك عن حمدى .

— كيف حاله ؟

— بخير .

— واين هو .. ؟

— فى رئاسة الفرقة .. بحى المزرعة .. لقد اتيت من عنده حالا .

— ولماذا لم يات .. ؟

وبدت على وجه « رياض » علامات الحيرة .. وقال مترددا :

— لم يأت .. لان .. لان .. لأنهم مشغولون .

وقلت فى ضيق وعصبية :

— كيف ؟ ! قل الحقيقة ؟ !

— اؤكد لك انه بخير .. وهو فى رئاسة الفرقة .

— لماذا إذن لم يحضر ؟ !

— لانه لا يستطيع مغادرة رياسة الفرقة فى هذه الظروف .

— لماذا لم يتحدث فى التليفون ؟

— لأنه .. لأنه لا يستطيع .

ونهضت فى عصبية شديدة متجهة نحو الباب وانا اقول :

— ساذهب انا لرؤيته إذا .

وقفز « رياض » ممسكا بذراعى قائلا فى حيرة وهو يحاول طمأنتى :

— اهدئى يا سهير .. لقد قلت لك إنه بخير .. ويجب ان تصدقينى .

— لن اهدأ حتى اراه او اسمع صوته .

ثم اردفت صائحة :

— لماذا لا يحدثنى ؟ !

واجاب « رياض » وهو يزفر ضيق :

— لأنه معتقل .. مع بقية الضباط المصريين .

وصحت اتساءل فى دهشة غير مصدقة :

— حمدى معتقل .. لماذا ؟ ! الأنه حارب فى الجبهة معكم جنبا إلى جنب ! ؟ لأن دماءه سالت على ارضنا .. من اجلنا جميعا !

وردد « رياض » وهو يحس بشىء من الخجل :

— لا تاخذى الأمر هكذا يا سهير .. إنها تصرفات خرقاء من بضعة افراد .

وصحت والدموع تطفر من عينى :

— إنها سبة فى جبيننا .. إنه عار يلحقه بنا هؤلاء الخونة .

وامسكت بى « سلمى » تحاول تهدئتى قائلة :

— اجلسى يا سهير .. هذه تصرفات مؤقتة .. ستنتهى بلا جدال .

وجلست على المقعد وانا احاول ان اتماسك ، وسألت « رياض » قائلة :

— قل ماذا حدث له ؟ !

— لقد وصل من الجبهة فى الساعة الرابعة صباحا هو واحد زملائه ، واتجه إلى بيتنا فى طريق برمانة ، عندما سمع صوت طلقات فى اتجاه استراحة المشير ، فاتجه بالعربة مع زميله إلى الاستراحة فلم يستطع ، إذ وجد الطريق مغلقا بإحدى الدبابات .. واحس بشىء من الدهشة ، واتجه إلى قيادة الاركان فوجد النوافذ مضيئة وراى الدبابات تحيط بها ومدافعها موجهة إليها .. فأحس ان القيادة محاصرة . وعندما همّ بالاقتراب منها وجهت إليه إحدى الدبابات مدافعها ، فلم يجد بدا من التراجع ، وذهب إلى مقر قيادة فرقته فى المزرعة ، فوجد هناك رائدا سوريا من رئاسة الفرقة فسأله عن الموقف فقال له : « شرفوا هون » ندخل معه المكتب هو وزميله وعاود السؤال عن حقيقة الموقف فأجابهما بأن الضباط مطلوبون للتجمع فى القيادة ، فأخبراه بأنهما وصلا من الجبهة حالا ، وانهما يريدان فرصة للاستراحة وإبدال الثياب ، فقال لهما سيسأل عما إذا كان هذا ممكنا ثم تركهما واغلق الباب بالمفتاح .. فادرك حمدى ان الامر ليس من البساطة كما يتصوران .. وانه لابد ان يكون هناك شىء ضد المصريين .

وصمت رياض .. وقلت أسأله لكى يكمل حديثه :

— وماذا حدث بعد ذلك ؟

— لا شىء . استمر اعتقال الضباط المصريين فى المبنى . وقد استطعت ان القاه ، وكان « مقدم » من ضباط الحركة قد حاول ان يسوقه هو وإخوانه بالرشاشات إلى المطبخ مبالغة فى الامتهان .. ولكننا ثرنا عليه واضطررناه لإعادتهم إلى المكتب والمحافظة على كرامتهم .

وتساءلت فى ضيق :

— ولماذا يحاول امتهانهم ؟ !

— اسباب خاصة ، لا تستحق ابدا كل هذا الانفعال . لقد كان هذا « المقدم » ثائرا على الضباط المصريين لأنه وهو « مقدم » لم تكن له عربة .. و « نقيب » مصرى يستعمل عربة .. وقلت له من الجائز ان تكون العربة للمنصب وليست للرتبة .. وآخر غضبان لأن الضباط الذين يعينون فى مصر لا يمنحون اختصاصات .. وقد سمعنا من البعض انهم منحوا اختصاصات ولكنهم لم يحاولوا تأديتها .. وآخر ثائر .. لان تصرفات بعض الضباط المصريين .. كانت سيئة فى دمشق .. ونسوا ان كتيبة المظلات السورية ضربت حى مصر الجديدة بأكمله .. ولم يحتج احد وأن اتساع القاهرة يبتلع إساءات الضباط السوريين .. وضيق دمشق يبرز إساءات الضباط المصريين .

ووجدت « ابا سلمى » ينفخ من انفه كمظهر من مظاهر الدهشة والاحتجاج وتساءل قائلا :

— يعالجون الزكام بقطع الأنف .. يشفون التهاب لوز الوحدة بقطع رقبتها .. ما اعقلهم .. واحكم رايهم .. والله لو اتبعت اسلوبهم الحكيم لطلقت امك منذ عشرات السنين .

ومدت يد الرجل العجوز تعبث بالراديو .. لتسمعنا البلاغ رقم ٣ :

« إن القيادة العربية الثورية العليا للقوات المسلحة تعلن للشعب العربى فى سوريا انها مسيطرة تماما على الموقف وهى واثقة كل الثقة من ان الشعب الواعى سيحافظ محافظة تامة على إخوانه المصريين وانه يعاملهم بأحسن ما يعامل به الأخ أخاه من كرم وعناية ووفاء » .

وصحت فى غيظ دون ان استمع إلى بقية البيان وانا احس انه نوع من الإيحاء بتأليب الشعب على المصريين :

— حرام ان يقولوا مصرى وسورى . اليس من السخرية ان الذين يسوقون الضباط بالرشاشات .. هم الذين يحذرون الشعب السورى من الاعتداء على المصريين .. إن الشعب السورى لا يمكن ابدا ان يفكر فى الاعتداء على المصريين .. إنهم يحاولون الإساءة إلى الشعب السورى بكل ما يقولون ويفعلون .

لا مســاومة

لم يكد ينتهى البلاغ الأحمق الذى طلب فيه الانقلاب من الشعب السورى المحافظة على ارواح المصريين .. حتى تعالت من الطريق أصوات هتافات .

ونهضت « سلمى » إلى الشرفة ترقب الطريق لترى أولى مظاهرات الانقلاب .. مظاهرة محدودة العدد .. بدت فى الطريق كأنها زحام على محطة أوتوبيس تحمل العلم السورى ، وتهتف هتافات مضادة للوحدة والمصريين .

واحسست بالأسى يملأ قلبى .. وانا احس كأن يدا تعيد عجلة التطور إلى الوراء .. وتدفعنا القهقرى عبر التاريخ .

وتلتها مظاهرة أخرى .. لمحت بها « شكيب » .. أوضحت هتافاتها .. حقيقة أمرها .. وطبيعة مدبريها .. كانت تمزق علم الوحدة وتسب الجمهورية العربية المتحدة .. وتهتف هتافات مضادة لرئيسها ، ثم تتوج هتافاتها بهتاف منغم .. « عاش الشعب السورى عاش .. بقيادة خالد بكداش » .

ولم أطق النظر إلى بقية المظاهرات المدبرة .. وانا احس كأنها سكين يجز به الانقلاب رقبة سوريا .

وهممت بالعودة عندما ابصرت لافتات الجرائد المصرية فى العمارة

المجاورة تسقط وتمزق بواسطة المظاهرات المدبرة .. التى تسير كأنها فرق منظمة من الجنود .

ووجدت نفسى أسائل « سلمى » فى دهشة حقيقية :

ـــ لمصلحة من يثار شعور الخصومة .. بين السوريين والمصريين ؟

وهزت « سلمى » رأسها حائرة .

وسمعت اباها يجيب وهو يقف وراءنا :

ـــ لمصلحة كل من كرهوا وحدتنا .. لمصلحة الذين حاربوها خلال الأعوام الثلاثة .. لمصلحة إسرائيل التى افزعها وجود جيش عربى يطبق عليها كالكماشة .. لمصلحة ملوك الرجعية الذين تزعجهم العدالة الاجتماعية التى تطبقها الوحدة وتفسد بها عليهم شعوبهم .. لمصلحة الاستعمار الذى فشل فى مقاومة الوحدة باتحاداته المفتعلة .. وحكامه الرجعيين .. لمصلحة الشيوعيين الذين اطارت الوحدة حزبهم .. لمصلحة حكام البعثيين الذين قضت الوحدة على نفوذهم .. إن المسألة قد تعدت أصحاب الشركات الاحتكارية .. لقد تقذف الضباط الساخطون كرة الانقلاب والتقطها الموتورون من التأميم ، والتقطها من هؤلاء وهؤلاء .. اعداء الوحدة الحقيقيين .. والله وحده يعلم مصــير هذا البلد المسكين .. بين كل هؤلاء .. ادخلوا .. وكفى مناظر مؤذية .

وتركنا الشرفة .. وعاودنا الاستماع إلى سلسلة البلاغات المتتالية .

وبدأت تبدو فى البلاغات لهجة الخوف عن إفلات الزمام .

فقد اذاع البلاغ السادس أن قيادة الانتفاضة تشكر المواطنين على إظهار مشاعرهم لتأييد حركتها وتطلب منهم الهدوء والكف عن مظاهر التأييد الجماعية لئلا يفسح المجال أمام مستغلين أو انتهازيين يحاولون الإساءة إلى قدسية الحركة .. وهددت القيادة بالضرب بيد من حديد على كل من يحاول الاستغلال أو الإساءة .

وفى البلاغ السابع قبيل الساعة الواحدة عادت القيادة تناشد الشعب الخلود إلى السكينة والهدوء .. مؤكدة انها ستقمع كل محاولة

للإخلال بالامن ، وطلبت وقف القيام بالمظاهرات والتجمعات مهما كانت غايتها .

وبعد نصف ساعة صدر البلاغ الثامن بأن القيادة أمرت القوات بقمع كل تجمع او تظاهر فورا .

وكان « رياض » قد خرج ليلتحق بوحدته العسكرية ، ولم اجد حولى من يستطيع طمانتى عليك .. وانا احس ان قلقى عليك يزداد ، فقلت لسلمى :

— اتستطيعين الاتصال برياض ؟

— اجل .

— اطلبيه لى .

وقبل ان تنهض لتدير قرص التليفون .. علا صوت المذيع قائلا :

« أيها الإخوة المواطنون .. إليكم البلاغ رقم (٩)

وارهفت أذنى وإحساس باليأس يملأ نفسى ..

واستطرد المذيع يقول :

— إن القيادة العربية الثورية للقوات المسلحة التى دفعها الشعور بالخوف على وحدة الصف العربى وحماستها للقومية العربية وتأييدها ودفاعها عن مقوماتها ، تعلن للشعب العربى الكريم انها لا تنوى المس بما أحرزته القومية العربية من انتصارات ، وتعلن أنها لمست عناصر مخربة انتهازية تريد الإساءة لقوميتنا ، فقامت بحركتها المباركة تلبية لرغبة الشعب العربى وآماله واهدافه ، وانها عرضت قضايا الجيش واهدافه على سيادة المشير نائب رئيس الجمهورية والقائد العام للقوات واتخذ الإجراءات المناسبة لصالح وحدة وقوة القوات المسلحة والجمهورية العربية المتحدة ، وقد عادت الأمور العسكرية إلى مجراها الطبيعى اعتمادا على ثقتها بحكمة القائد العام للقوات المسلحة وقائد الجيش الأول اللذين يحققان أهداف القوات المسلحة والجمهورية العربية المتحدة .

وتملكنى الذهول وانا استمع إلى البيان .. ورغم ما فى البيان من

تناقض وتخبط وهو يبدأ باسم القيادة العربية الثورية التى اكدت فى بلاغاتها السابقة أنها ثارت لتقضى على إساءة الطغاة والمستعمرين الذين سلمهم الشعب العربى الأبى فى سوريا كل مقدراته والتى اتهمت — على حد قولها — الطغمة الفاسدة بأنها تصدر بين الحين والحين قرارات ، ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب .

هذه القيادة الابية الثورية التى اكدت كل ذلك فى بياناتها السابقة والتى تسمى حركتها مباركة .. تؤكد فى بيانها هذا انها لا تنوى المس بما احرزته القومية العربية من انتصارات ، أعتقد أن اهمها القرارات الاشتراكية التى سبق أن وصفتها بأنها قرارات ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب .. ثم تقول إنها عرضت قضية الجيش على سيادة المشير نائب رئيس الجمهورية العربية المتحدة والقائد العام للقوات المسلحة ، وان الأمور العسكرية قد عادت إلى مجراها الطبيعى اعتمادا على ثقتها بحكمة القائد العام .

كيف يتفق مجرد وجود قيادة ثورية يصدر باسمها البيان مع وجود قائد عام للقوات المسلحة يوثق بحكمته ؟

ومع ذلك لم اترك لنفسى فرصة التفكير فيما حواه البيان من تناقض ظاهر غير مفهوم .. فقد هزتنى نشوة سماع اسم الجمهورية العربية المتحدة يتردد مرة اخرى .. واحسست انه مهما كان بالبيان من تناقض فهو يعنى فى مفهومه المجمل .. انتكاس الحركة وانفضاض الانقلاب .. واستقرار الوحدة .. وبعد كل هذا .. إطلاق سراحك .. وعودتك إلىّ .. لترانى كيف اصبحت .. ولننطلق معا فى طريق الحياة المشرق لنحقق امانينا واحلامنا .

ونهضت اقبل « سلمى » والدمع فى عينى وأنا اهتف بها :

— انتهينا يا سلمى .. انزاحت الغمة .

وسمعت اباها يهتف من اعماقه :

— الحمد لله .. لك الحمد يا رب .. كانت تجربة قصيرة ولكنها مرة .. اللهم لا تعدها .

وامسكت بيد « سلمى » وصحت بها قائلة :

ـــ هيا بنا .

ـــ إلى اين ؟

ـــ إلى بيت « حسان » .. كان واجبا علينا ان نذهب من قبل لأم حمدى لطمأنتها والاطمئنان عليها .. ولكن شغلتنا المفاجأة .. وكنا نحن فى حاجة إلى من يطمئننا .. هيا بنا .

وكان من البديهى أن يتجه ذهنى .. أول ما يتجه .. إلى محاولة لقائك .. وكان المكان الطبيعى المفروض ان نذهب إليه بعد انتهاء اعتقالك هو بيت « حسان ونادية » .. حيث تقيم انت فى عطلاتك .

لقد كان واجبا علىّ ان اذهب منذ ان سمعت انباء الانقلاب إلى هناك .. ولكن لهفتى على سماع اخبارك ، ويقينى ان « رياض » بحكم مركزه كضابط هو اقدر الناس على الاتصال بك ومعرفة اخبارك .. جعلنى اتجه إلى بيت « سلمى » .

وكما قلت لسلمى .. كان حالى من القلق والجزع ابعث على طلب الطمأنينة .. منه على إعطائها .

وهكذا لم اكد اسمع نبأ حركة الانقلاب حتى اندفعت إليك .. واثقة أنى ساجدك فى بيت « حسان » .

وسألتنى سلمى :

ـــ أخبر أباك أننا سنذهب إلى بيت « حسان » ؟

ـــ نخبره من هناك .

ـــ قد يفضل أن يرسل لنا العربة ؟

ـــ لا داعى لإضاعة الوقت فى الانتظار .

ـــ أخشى أن يكون الطريق ...

ـــ لا تخشى شيئا .. لقد هدأت الحال .. هيا بنا .

وجررتها من يدها فى عجلة .. كنت احس أن الدقائق التى تمر بى قبل أن القاك ضائعة من عمرى .

وهبطنا الدرج إلى الطريق .. لنجد مظاهرة ضخمة تتدفق من

ناحية مبنى البريد سائرة بجوار فندق « سميراميس » تعبر كوبرى الساحة متجهة إلى ميدان السبع بحرات .

ورأينا اعلام الجمهورية العربية المتحدة ترفرف فوقها وصور رئيسها تعلوها .. والهتافات المدوية بالوحدة تنطلق فى حماس جنونى .

وملأنى الإحساس بالارتياح ، وأنا اسمع صوت الشعب الحقيقى ينطلق فى قوة وعنف .. ليمحو أثر الهتافات المسمومة للمظاهرات المدبرة .

وعبرنا الساحة متجهين إلى طريق « برمانة » .. حيث بيت « حسان » .. ولقيتنا « نادية » بالباب ، وقد بدت الفرحة على وجهها وضمتنى إليها والدموع فى عينيها قائلة :

ـــ الحمد لله .. غمة وزالت .. كل شىء يمكن احتماله إلا زوال الوحدة .

وأجبتها فى إيمان :

ـــ لقد بذلنا من أجلها الكثير ، وحققنا بها الكثير .

ـــ وحرام ان نضيعها من اجل اخطاء تحدث فى كل أسرة .

ـــ إذا كان البعض قد اساء التصرف .. فليس من العسير علاج اخطائه ووقف إساءته .

ولمحت « أمك » تقبل علينا .. وقد بدا على وجهها الإعياء وكانت المرة الأولى التى أراها بعد عودتى ، وكان المفروض أن أراها وإياك هذا الصباح لولا الأحداث المفاجئة التى جرفتنا .

وضمتنى إلى صدرها فى حنان ولهفة .. قائلة فى لهجة لا تخلو من الأسى :

ـــ حمد الله على السلامة يا حبيبتى .. ألف حمد الله على السلامة .. لم تفارقى تفكيرنا لحظة واحدة .. كان حمدى يطلب منى أن ادعو لك بالشفاء وبالعودة سالمة .. وما كنت اظننى فى حاجة إلى طلبه .. فما نسيتك مرة واحدة فى صلواتى .

ونظرت « امك » إلى « نادية » واستطردت والدموع فى عينيها :

— كم كان « حمدى » يتلهف على لقائك .. كان يعد الساعات فى انتظارك .. وكان يقول لى .. عندما تأتى سهير ، سأفعل كذا .. وكذا .. كل شىء كان يؤجله حتى تأتى سهير .. ويشاء القدر ان تأتى فلا تجدينه .

وقالت « نادية » وهى تحاول أن تزيل جو الاسى الذى اشاعته امك :

— سيأتى « حمدى » .. وسيلقاها .. وسيفعلان كل ما يريدان .

وسألت « امك » فى تشكك :

— متى سيأتى ؟

وردت سلمى :

— بين لحظة واخرى .. لقد انتهى كل شىء .. وعاد الامر إلى طبيعته .

وجلسنا فى البهو المطل على الشرفة .. بعد ان اخبرت « امى » انى ذهبت إلى بيتكم .. وقلت إنى سأبقى حتى تحضر .. ووعدتنى بالحضور هى وأبى بعد الغداء .

وبدأ الوقت يمر ، ونحن نحاول ان نقتله بالحديث .. وكل منا يحاول ان يخفى قلقه .. واسماعنا معلقة بالباب .. مرهفة لكل وقع خطا على الدرج .. أو صيحة بوق فى الطريق .. أو رنين جرس بالباب .

وكنت أول من التقطت صوت عربة تقف فى الطريق ، فاندفعت بغير وعى إلى الشرفة .. فوجدت عربة « حسان » تقف بالباب .. ومددت عنقى ارقب باب العربة .. لعلى اراك قادما مع « حسان » ، ولكنى وجدته يهبط وحده .. ويتجه إلى الباب صاعدا إلينا .

واقبل علينا « حسان » .. ولم يكن وجهه مريحا .. لم تكن تبدو عليه فرحة الانتصار .. ولم اشك فى انه مجهد من فرط انفعالات اليوم الحافل .. وقلت اسائله وهو يرتمى على احد المقاعد :

— ما الاخبار ؟

وهز كتفيه قائلا :

— كما سمعتموها فى الإذاعة .

وسألت « نادية » بتحديد اكثر :

— ما اخبار حمدى ؟

— المفروض ان يأتى .

وقلت فى قلق :

— ولكنه لم يأت .

وبدت على وجه « حسان » علامات الحيرة والضيق ، ولم يجب .. فاستطردت قائلة :

— الا نستطيع ان نسأل عنه فى التليفون ؟

وقال « حسان » .. دون حماسة :

— نجرب .

ثم امسك بالتليفون يدير القرص ويرفع السماعة .. وكرر العملية بضع مرات قائلا :

— مرة مشغول ، ومرة لا يجيب احد .

وتساءلت « امك » فى صوتها الخافت المستسلم :

— ولكن لماذا لم يأت ؟

وهز « حسان » رأسه فى حيرة قائلا :

— قد يكون لديه عمل .

— عمل .. اى عمل هذا ؟

وعاد « حسان » يهز رأسه .. وقال فى صوت خافت كأنه يحدث نفسه :

— اشياء تبعث على الحيرة !

وتساءلت نادية :

— كيف ؟

ورد « حسان » بنفس اللهجة :

— الدبابات ما زالت تحيط بقيادة الاركان .. وبيت المشير محاصر .. والإذاعة وبقية المرافق .. كل شيء على ما كان منذ الصباح .

وقالت « سلمى » فى دهشة :

— ولكن البيان الأخير قال إن الأمور العسكرية عادت إلى مجراها الطبيعى .

ورد « حسان » فى عصبية قائلا :

— كذب .. لقد رايت كل شيء على ما هو .

وقالت « نادية » فى لهجة واثقة :

— ربما احتاج إلغاء الإجراءات العسكرية إلى وقت .

واردفت أنا مؤكدة :

— ربما تكون الإجراءات العسكرية متخذة الآن من قبل القيادة العامة للقوات المسلحة ؟ !

واطرق « حسان » قائلا :

— جائز .. معقول جدا .

وقالت سلمى :

— لقد كان البيان واضحا .. إن كل شيء قد انتهى .. وإن قضايا الجيش قد عرضت على المشير الذى تفهم حقيقتها واتخذ الإجراءات المناسبة لها .

ورد حسان :

— إذا كانت المسألة كلها معلقة بمشكلات الجيش .. فلماذا كل هذا الضجيج .. الذى اوشك ان يطيح بالوحدة بأكملها .. ثم إن راس الحركة .. هو مدير مكتب المشير موضع ثقته .. لماذا لم يحاول عرضها على المشير من قبل والوصول إلى حل لها ؟

وصمت « حسان » برهة ثم استطرد يقول فى اشمئزاز :

— رائحة الغدر والخيانة تفوح من الحركة .. لا شيء فيها يبعث على الطمأنينة .. وهى تضم بعض عناصر لا يمكن ان تبعث على الثقة او الاحترام .

وهتفت « نادية » قائلة فى دهشة :

— على اية حال لقد انتهت .

وتنهد « حسان » قائلا :

— اجل انتهت .. لو استمرت لكانت كارثة .

ورحنا نقتل الوقت بالحديث .. والقلق يزداد بنا .. وقالت أمك وعينها معلقة بالساعة وهى تطلق تنهيدة اسى وحزن :

— لم يات حمدى بعد .. الا تنهضون للطعام ؟

وقال حسان :

— ليست لى قابلية للأكل .

ورددت فى شرود :

— لننتظر حتى يأتى حمدى .

وردت أمك فى حسرة :

— من يعلم متى سيأتى !

ومدت « سلمى » يدها إلى التليفون قائلة :

— سأحاول ان اسأل عن رياض .

وادارت القرص وسألت عن اخيها فلم تجده .. وادارت رقما آخر فرد عليها صوت سألته :

— الرائد رياض موجود ؟

انتظرت برهة ثم تساءلت فى لهفة :

— رياض .. كنت ابحث عنك فى كل مكان .. نريد ان نطمئن على حمدى .. انا احدثك من بيتهم ، وكلنا قلقون عليه .

واخذت « سلمى » تنصت إلى حديث « رياض » وترد بهمهمات ونحن من حولها نتطلع إليها فى لهفة حتى انهت الحديث قائلة :

— حسن .. إذا حصلت على اية معلومات اتصل بنا هنا .

ثم املته رقم التليفون ووضعت السماعة والتفتت إلينا قائلة :

— كان يحاول الاتصال بنا .. لقد قابل حمدى وهو على خير حال

.. لقد اعتذروا إليهم عن كل ما حدث .. وادعوا ان الإجراء الذى اتخذ معهم كان لصالحهم .. لأجل حمايتهم من اعتداء الشعب .

وتملكنى الضيق .. من الافتراء الكاذب .. وصحت فى غيظ :

— يريدون حمايتهم من اعتداء الشعب ؟؟ .. يسوقونهم إلى المطابخ بالرشاشات .. ويدعون حمايتهم .. ما هذا الكذب الحقير ؟ .. لماذا يفترون كل هذا الافتراء ؟

وقالت « سلمى » فى هدوء :

— هكذا قالوا يا سهير .. ولا داعى لأن نثور لكل حماقة يرتكبونها .. لابد أن يبرروا حماقاتهم .. على اية حال لقد اعتذروا إليهم وقدموا إليهم الشاى ، واكرموا وفادتهم .

وتساءلت « امك » وهى تنصت فى لهفة :

— ولماذا لم يأت ؟

وصحت أنا فى دهشة :

— أجل لماذا لم يطلقوا سراحهم ؟

وبدت الحيرة على وجه « سلمى » .. وقالت بتردد :

— لقد أبقوهم فترة .. قائلين إن هذا مجرد إجراء تحفظى .

وهز « حسان » راسه واطلق من انفه زفرة ساخرة ، وقال متسائلا فى مرارة :

— إجراء تحفظى ؟ .. بعد ان انتهى كل شىء ، يستمر اعتقال الضباط المصريين كإجراء تحفظى ؟

وتساءلت « نادية » وقد فغرت فاها :

— تحفظى من اجل من ؟

وهززت راسى فى حيرة وانا لا اكاد افهم ما يحدث . وتساءلت قائلة :

— عجيبة .. كيف تترك الأمور فى يد القائد العام للقوات المسلحة .. فى الوقت الذى تحاصر القيادة .. ويستمر اعتقال الضباط المصريين ؟

وكانت « سلمى » اكثرنا هدوءا وتفاؤلا فاجابت :

— إنهاء هذه الإجراءات يحتاج إلى وقت .. لا داعى ابدا للقلق .. كل شىء سينتهى إلى خير .. لقد اكد لى رياض انه راى حمدى وانه على خير حال ، ولابد ان يعود إلينا اليوم .

وتنهدت « امك » قائلة :

— ربنا يسمع منك .

ثم التفتت إلينا مستطردة فى حزم :

— انهضوا للطعام .

ثم وجهت القول إلى « حسان » وهى ترى التردد على وجهه :

— انهض وكل .. إنك ما زلت على لحم بطنك .. قم .

والتففنا حول المائدة .. وكانت الساعة قد بلغت الرابعة ، وازدرد كل منا لقيمات فى محاولة للأكل حتى نريح امك .. وغادرنا حجرة الطعام .. واسترخينا فى البهو .. انظارنا معلقة بالساعة .. واسماعنا معلقة بالطريق .

وحاولت « نادية » ان تبدد سحابة الصمت القاتمة التى تجثم علينا .. فمدت يدها إلى الراديو بجوارها وادارته .

وانطلقت اصوات الموسيقى العسكرية والأناشيد الحماسية .

وقال « حسان لنادية » فى ضيق :

— اغلقى الراديو .

وقبل ان تمد يدها لإغلاق الراديو صمتت الموسيقى .

وارهفت « نادية » سمعها بطريقة لا إرادية قبل ان تدير المفتاح لتغلقه .

ودقت الساعة خمس دقات .. وانطلق صوت المذيع يصرخ فى عصبية :

« هنا دمشق ..

ايها الإخوة المواطنون .. إليكم البلاغ رقم ١٠ .

واحسست بشىء يلتوى فى اعماقى .. وانا اسمع كلمة البلاغ .

واستطرد المذيع يصيح :

« إن القيادة الثورية العربية للقوات المسلحة تعلن للشعب العربى أنها لدى اتصالها بالمشير عبد الحكيم عامر وعدها بالقضاء على الانتهازيين والمخربين مما دعاها لإذاعة بلاغها رقم ٩ ، ولكن ما لبث المشير ان نكث بوعده .. لذلك وحرصا من القيادة الثورية على انتصـــارات الشعب العربى والقومية العربية ، تعلن للشعب اعتبار بلاغها رقم ٩ لاغيا ، وهى تعلن أنها وضعت يدها على كافة الأمور ، وتعاهد الله والوطن على حماية الأمة وحماية حقوقها والحفاظ على كرامتها ، والقيادة الثورية لها من سعة وعى الشعب عدم السماح للمأجورين والانتهازيين إن وجدوا ان يندسوا بين صفوفه ، فالحركة للشعب وإلى الشعب » .

وصمت صوت المذيع .. وانطلقت الصرخات الموسيقية وخيم علينا صمت ثقيل كئيب قاتل .

كانت المفاجأة مذهلة .

فبرغم ما كان بنفوسنا من تشكك وقلق .. إلا اننا لم نتصور قط أن النكسة يمكن ان تتم .. وبمثل هذه السرعة والمفاجأة .

وانطلقت من صدر « حسان » زفرة حارة وأخذ يطرق بعصبية على المنضدة .

وكانت « امك » أول من تكلمت قائلة فى صـــوت مـــلؤه الاسى والحزن :

ـــ يا رب لطفك يا رب .. اللهم احمه .. والطف به .

وبرغم كل ما بى من خوف عليك وشوق إليك .. فقد قطعت لهجة « امك » شغاف قلبى .. ووجدت نفسى بغير وعى انهض لأضمها إلى صدرى قائلة :

ـــ لا تخشى شيئا يا خالتى .. أنتم فى أعيننا .. وفى قلوبنا .. لن يجسر احد على مسكم .

وهزت « امك » رأسها وهى تربت ظهرى فى حنان :

ـــ أعرف يا حبيبتى .. اعرف .. ولكنى فقط اود على ان اراه .

وردت سلمى :

ـــ سترينه يا خالتى .. لا تخشى عليه ابدا .

وهزت « أمك » رأسها فى إيمان قائلة :

ـــ أنا لا اخشى عليه .. الذى نجـــاه من أعدائه .. ينجيـــه من أصدقائه .

واصابنى من قولها ما يشبه الاختناق .

وحبست دمعى .. وحاولت ان استمد من ضعفى قوة ، وان ابعث فى نفس « امك » الطمأنينة .. وانا فى اشد الحاجة إليها .

وقلت « لأمك » فى حماسة :

ـــ لا يمكن ان تتحكم هذه العصابة فى الشعب .. لا يمكن أن يتركهم يحطمون مثله .. ويضيعون مكاسبه .

وأردف « حسان » مؤكدا قولى :

ـــ إن اللاذقية لم تستسلم لهم ، وحلب ما زالت تتحداهم فى إذاعتها باسم الجمهورية العربية المتحدة .. لن يقبل الشعب السورى أبدا ان يوضع فى جانب إسرائيل .. لن يقبل ابدا هذا التضليل والعبث والافتراء .. لن يقبل ان يعود القهقرى .

ودق جرس التليفون ، ورفعت « نادية » السماعة متسائلة :

ـــ آلو .. أهلا عمى .. اجل موجودة .

ثم مدت يدها إلى بالسماعة قائلة :

ـــ بابا .. يا سهير .

وتناولت السماعة فسمعت صوت « أبى » يتساءل :

ـــ أارسل لك العربة ؟

ـــ الا تنوى المجىء ؟

ـــ لا اظننا سنستطيع . خالتك حفيظة وزوجها هنا . يستحسن ان تحضرى أنت .

ـــ إننا نجلس مع خالتى أم حمدى .

— احضروها معكم .. هاتى نادية وحسان .. وتعالوا نجلس هنا .. سأرسل لك العربة حالا .. مع السلامة .

ولم يترك « ابى » لى فرصة الرد . فقلت له : « مع السلامة » ووضعت السماعة والتفت إليهم قائلة :

— ابى يريدنا ان نذهب إليهم .. هيا بنا يا خالتى .

واجابت امك :

— أفضل البقاء هنا .

ونهض « حسان » يربت ظهرها بحنان قائلا :

— دعينا نذهب يا امى .. سنجلس كلنا معا .. يؤنس بعضنا بعضا .. هيا بنا .. سينتهى كل شىء إلى خير إن شاء الله .

وبعد بضع دقائق وصلت العربة .. ونزلنا فيها جميعا واوصلنا « سلمى » إلى بيتها بعد ان وعدت بالاتصال بنا إذا تلقت اى نبا من « رياض » .. ثم اتجهنا إلى بيتنا .

وفى الطريق ادار « حسان » راديو العربة .. وسمعنا المذيع البلاغ الثانى عشر قائلا « إن المشير عبد الحكيم عامر غادر البلاد فى الساعة الخامسة والثلث عائدا إلى القاهرة » .

وسادنا الوجوم ، ولم يعلق احدنا بكلمة .. حتى وصلنا إلى البيت والتقينا بخالتى وزوجها .

وبدت « خالتى » حذرة فى إبداء مشاعرها .. او على الأصح كانت مشاعرها خليطا متناقضا متارجحا بين مصلحة زوجها المرتبطة بهذه الحركة .. وبين إحساسها الأصيل بالحق وبالصالح العام .. وبارتباطها الوثيق مع المصريين .. قبل الوحدة وبعدها .. وميلها الطبيعى لمصر .. ولكل ما يوثق اواصر الوحدة .. وتقديرها لمشاعرنا الخاصة النابعة من ارتباط اسرتنا بأسرة مصرية ، واندماج اسرتينا بزواج ابنها من « نادية » .. وبارتباطى انا بك .

ولم يكن زوجها كذلك .. فقد كان ارتباطه بالحركة اكيدا .. بعد وضوح اتجاهها ضد القوانين الاشتراكية .

ولم يكن هناك بد من ان تدور المناقشة بين الطرفين .. طرف الانقلاب الرجعى الذى يمثله « زوج خالتى » .. والطرف التقدمى الذى يمثله حسان وانا ونادية .

وقال « زوج خالتى » وهو يهز راسه فى ثقة :

— كان لابد ان يحدث هذا .. لم يكن من المعقول أن تستمر هذه القوانين الظالمة .

ورد « حسان » بعصبية :

— لم تكن قوانين ظالمة .. لقد وضعت من اجل تحقيق العدالة الاجتماعية والمساواة .. وضعت من اجل القضاء على الاحتكار والاستغلال .. وضعت من اجل حق المواطن العادى .. العامل والفلاح .

— هذا كلام خطب وصحف .. ومقاه .

— بل هذه حقائق تعرفها انت يا ابى .. تعرف تحكمكم فى الأسعار .. تعرف الارباح الخيالية التى تحققونها دون ان يملك احد مناقشتكم او مراجعتكم .. تعرف سيطرتكم على جهاز الحكم فيما مضى .

— لقد اقمنا باموالنا مشروعات لخدمة البلد .

— بل وضعتم البلد فى خدمة اموالكم .. البنوك الاجنبية او البنوك التى تتحكمون فيها كانت تمول من البنك المركزى من اموال الشعب والحكومة .

— اكان يستدعى ذلك اخذ اموالنا ؟

— ولم لا ! ؟ إذا كنتم تاخذون اموال الشعب .. فلماذا لا يأخذ الشعب اموالكم ؟

— على اية حال سيعود كل شىء إلى ما كان عليه .. لقد حاولنا بالذوق فلم يفد الذوق .

— اكان يتحتم عليكم إذا أن تقضوا على البلد كلها .. ان تقضوا على الوحدة .. وتطعنوها فى الصميم ؟

ـ لم نكن نريد ابدا ان نقضى على الوحدة . لقد قلنا إن كل ما نريد هو إلغاء القوانين الاشتراكية ، وكان الضباط لا يريدون اكثر من حل مشكلاتهم .. وان يكون زمام الجيش السورى فى أيدى السوريين لا فى أيدى المصريين .. ولقد قالوا هذا للقائد العام .

وتساءلت فى دهشة ولهفة :

ـ وماذا قال لهم ؟

ـ قال إنه على استعداد تام لحل مشكلات الجيش السورى بما يرضى الضباط السوريين ويحافظ على كيان الجيش .. ووجه اللوم إلى احد قواد الحركة الذى يعمل مديرا لمكتبه انه كان مسئولا عن هذه المشكلات .. فلماذا لم يعرضها عليه او يعمل على حلها وهو مدير مكتبه .. أما عن القوانين الاشتراكية فقال إنه لا يستطيع مناقشتهم فيها .. وإن اية مشكلات خاصة بها لابد من عرضها على سيادة الرئيس .

وتساءل « حسان » وكأنه يعلم الرد سلفا :

ـ وماذا كان رأى سيادة الرئيس ؟

ـ قال إنه يرفض المساومة .. فكان على الحركة ان تستمر .

ورد « حسان » وهو يهز رأسه فى دهشة :

ـ طبعا يرفض .. ماذا كنتم تظنون المسالة ؟ تجارة ؟ يعطيكم الشركات ويأخذ الحكم ؟ إنها مبادىء يا ابى .. إن للرجل مبادىء واضحة .. إنه يريد ان يمنح مال الشعب للشعب .. يريد ان يحقق له العدالة والمساواة .. ويزيل عنه الاحتكار والاستغلال والسيطرة .. إن الحكم وسيلة لتطبيق مبادىء وتحقيق مثل .. وليست المبادىء والمثل وسيلة للوصول إلى الحكم .. حتى تجوز المساومة فيها .

ورد الرجل ضاحكا فى سخرية :

ـ دعه يطبق المبادىء والمثل فى بلده .. نحن سنفعل ما نريد فى بلدنا .

ـ انتم من ؟ حفنة من اصحاب رءوس الأموال .. تفعلون فى البلد ما تريدون .. والشعب ؟ والناس ؟ .. كل هؤلاء الناس لا قيمة لهم ؟ .. الفلاح الذى اخذ الأرض .. والعامل الذى شارك فى المصنع .. سيترككم تفعلون ما تريدون ؟

ـ لا تحمل همهم .. سنمنحهم ما يرضيهم ويسكتهم .

ـ ليست المسالة منحا .. ولكنها حق .

ـ حق او منح ، سمها كما تشاء . لقد استقر الأمر لنا .

ـ انتم واهمون يا ابى .. لم يستقر لكم الأمر .. لقد استغللتم ضيق الضباط لصالحكم ، وسيستغلكم اعداء الوطن الحقيقيون لصالحهم .. إن المسالة اكبر مما تتصور يا ابى .. منذ أن قامت الوحدة والاستعمار وملوك الرجعية وإسرائيل قد طاش صوابهم .. واعقبتهم الشيوعية عندما اطارت الوحدة الحزب الشيوعى وقضت على آمالهم فى السيطرة .. وراحوا جميعا يحاولون قصم ظهر الوحدة .. بدءوا بالاتحاد العربى الذى قضت عليه ثورة العراق ، وحاولوا تثبيت حكم « شمعون » فقضت عليه ثورة لبنان .. وراح الاستعمار والشيوعية يتعاونان فى العراق على استغلال « قاسم » والقضاء على القومية العربية وعزل العراق .. وتآمر ملوك الرجعية من اول الأمر للقضاء على الوحدة بالتآمر والاغتيال ، واخفقوا جميعا .. حتى اتيتم انتم بأنانيتكم وطمعكم لتقدموا لهم رأس الضحية .. لقمة سائغة .. افهمت يا ابى ما فعلتم ؟ إن وزركم اكبر مما تتصورون ويتصور الضباط .

وهز الرجل رأسه ضاحكا فى سخرية وهو يقول :

ـ لا عليك .. لقد عادت حقوقنا إلينا وانتهى الأمر .. عندما ترثها انت وزعها على الشعب .

ـ ارجو الا اعيش حتى ارثها .. ارجو أن توزعها القوانين .. فلا اظننى احتجت إليها او ساحتاج إليها .

ـ لقد علمتك .. وكسوتك منها .

— سيكون التعليم حقا لكل مواطن .. ولا اظنني كنت احتاج لكسائى .. إلى كل هذه الاموال .. وكل هذا الاستغلال والاحتكار .

ومد « حسان » يده يفتح الراديو وهو يقول :

— سيلقى الرئيس جمال عبد الناصر خطابا فى الساعة السابعة . دعونا نسمعه .

وجلسنا نستمع إلى الحديث فى إنصات .

وانتهى الحديث وصوته يتردد فى اذنى :

« ايها الإخوة المواطنون .. إنى ارفض منطق المساومة .. إن النضال عندما تتدخل إليه المساومات يفقد كل قداسته .. إن الجمهورية العربية المتحدة لم تقم على المساومة وإنما قامت على المبدأ » .

مهما طال

علمت فى الايام القلائل التالية ما وقع لك .

كم اشعر بالخجل وانا ارده .. الخجل من ان ينسب إلى شعب سوريا ما حدث فى تلك الايام .

ولكنى اعرف ان الشعب السورى براء مما حدث .

وانه هو نفسه اخذ غدرا فى هذه الايام السود .. ومضت عصابة الانقلاب التى راحت تتحدث باسمه فى الإذاعة تقضى على كل المثل التى تبعث على الاحترام والثقة واقدمت باسمه على كل ما يثير الازدراد والاحتقار .

علمت انك نقلت والضباط المصريون فى جنح الليل .. محملين كاسرى اليهود فى لوريات مغلقة وانه القى بكم فى عنبر من الصاج فى معسكر « القدم » الخاص بالإشارة على بعد ٥ كيلومترات من دمشق .

وعلمت انكم بقيتم ثلاثة ايام بملابسكم بلا طعام إلا ما استطعتم ابتياعه من كانتين المعسكر بحيث كان يحصـــل الضابط على نصـــف ساندويتش فى اليوم .. وكنتم تذهبون إلى دورات المياه التى تبعد نصف كيلومتر عن المعسكر .. والعساكر الحراس يوجهـــون بنادقهم بالسونكى إلى ظهوركم فى غدوتكم وروحتكم .

وثارت ثائرتكم على هذه المعاملة غير الادمية .. وطالبتم ان تعاملوا

معاملة الآدميين ، اسرى او معتقلين او مساجين او اى وضع آدمى يقبله العرف الدولى وكان رد ضباط الحركة الشائنة الذين اذلوا سوريتنا وعروبتنا وآدميتنا .. انكم تتقاضون مرتبات تبلغ الالف ليرة فى الشهر ، وانكم تستطيعون شراء طعامكم .. وتجاهلوا انه لا يوجد مكان لشراء الطعام او سبيل إليه .

واخيرا .. وافقوا على صرف الطعام إليكم .. برغل فى قروان كبير وبصل ولبنه بلا صحاف ولا ادوات للأكل .. وفى نفس العنبر الذى احتشدتم للنوم فيه .. وبلا فرصة لاستحمام او غيار .

ولم استطع ان ادرك .. سبب تلك المعاملة .. اهى حقد دفين من بعض الحاقدين المرورين .. ام هى خطة مدبرة لتبغيض المصريين فى السوريين حتى يسدوا السبيل على اى احتمال لعودة الوحدة !

عندما اتصور كيف عوملتم احس بجبينى يندى خجلا ، واحس بآدميتى تتوارى حياء .. واحس بشىء يتلوى فى باطنى ومرارة تسرى فى حلقى .

ليس من اجلك وحدك .. تملكنى هذا الشعور .. وانا اعرف كيف قاتلت فى ارضنا .. وكيف جرحت .. وامتزج دمك بترابنا .

ليس من اجلك وحدك .. استبشع ما حدث .. ولكن من اجلكم جميعا .

كم وددت لو كانت هذه الطغمة اكثر آدمية ، واشد رجولة .. وان يعاملوكم ما داموا قد اصروا على أن يجعلوا منكم خصوما .. معاملة الشرفاء لخصومهم .

ولكن لماذا يكونون شرفاء فى خصوماتهم ، وهم لم يكونوا شرفاء فى اى شىء .. حتى فى انقلابهم .. قبض بعضهم ثمنه من الخارج ! ؟

وفى افتراءاتهم الكثيرة .. التى راحوا يطلقونها فى الإذاعة الواحدة بعد الاخرى .. عن الاستعمار المصرى .. والفرعنة المصرية ، وسرقة الذهب ، والاسلحة .

وراحوا يلتقطون اسبابا للخصومة ، وللسباب .. حتى تمثال

رمسيس المصنوع من آلاف السنين .. كان سببا للاتهام .. واتخذوا من مواقف الشرف .. مصادر للافتراء والتشنيع .. جعلوا من المائة وعشرين جنديا من المظلات التى لم يستطع « الرئيس عبد الناصر » وقفهم عندما علم باستيلاء الحركة على اللاذقية وحلب ، وأمرهم بالتسليم بلا مقاومة ، جعلوا منهم غزوا بالمظلات ابيد عن آخره .. وادعوا انهم يحملون ملايين الليرات المزيفة .

وسمعنا بعد ذلك فى خطبة « الرئيس » انه امر بإرسال قوات لنجدة حامية حلب واللاذقية ، ولكنه عندما علم باستيلاء الحركة عليها .. امر القوات بالعودة حتى يتجنب سفك الدماء .

وشكلت الوزارة فى اليوم التالى للانقلاب برئاسة حامى شركة الاحتكار .. وبدا وجه الحركة الكريه .. انفصاليا .. رجعيا .. ينقض على كل مكاسب الشعب ، وانتصارات الوحدة .

ورحل شعراء العرب وادباؤهم المشتركون فى مهرجان الشعر .. كالاسرى يحيط بهم الحراس .

وسمعنا اقاصيص يندى لها الجبين خجلا .. عن ترحيل المصريين .. سمعنا كيف أعطيت الأوامر لحراس الحدود لمضايقتهم وتعذيبهم ؛ وسمعنا عن ام طلبت ماء لتصنع اللبن لرضيعها بعد رحلة عشرين ساعة ؛ فمنعه منها الحراس لان الأوامر لديهم أن يضايقوا المرحلين قدر ما استطاعوا .. وسمعنا كيف ثار الشعب السورى فى كل مكان على الحراس ، وأكرم المصريين بكل ما يملك من جهد ومال .

وهكذا بدات الأمور تتبلور فى الأيام القلائل التالية . واحس الشعب بحقيقة ما يدور حوله .

اعيدت الشركات والبنوك إلى اصحاب رءوس الأموال ، وانتزع الإقطاعيون اراضيهم بالسلاح من ايدى الفلاحين ، واقبلت على « حنيفة » تنبئنى باكية بان « اخاها » ضرب وطرد من الأرض التى تسلمها .. وانه سياتى إلى دمشق لعله يجد عملا .

واعترف بسوريا خليط عجيب من الدول .. ينبىء بوضوح عن

الاتجاه المراد دفع سوريا إليه .. اعترفت بها إيران صديقة إسرائيل ، وتركيا لعبة الأمريكان فى تهديدنا ، وحكومة تشاتج كاى شك الطريدة ، وحكومة جواتيمالا التى يسمونها حكومة شركة الفواكه الأمريكية .

خليط عجيب من الحكومات الطريدة والعميلة والخائنة قد مد يده لتاييد الحركة فى سوريا ومن ورائها .. إسرائيل تهلل سعيدة بوجهنا الأسود الجديد .

كيف اصف مشاعرى لك وانا ارى الليل الذى انتظرت رحيله قد ازداد ظلمة .. وارى الفجر الذى اوشك أن يطل قد ازداد نايا .

وانت .. الشعاع الذى اضاء طريقى .. وملأنى ثقة بالدنيا ، وجعل لحياتى قيمة .

انت الذى منحتنى القدرة على الصبر والعزم والإصرار حتى تغلبت على كل ما بى من نقص ، وعدت إليك .. سليمة قادرة افتح ذراعى للدنيا ، وكانى اود ان احتضن كل ما بها .

انت يا منبع الأمل ، والضوء فى حياتى .

ملقى فى غياهب سجن .. تتحرك والسلاح فى ظهرك .. كالمجرم او كالخائن !

انت الذى ارقت دمك على ارضنا ، وملء قلبك الفرحة بتضحيتك ، والإيمان بوطنك العربى ، والثقة فى إخوانك السوريين الذين يقاتلون إلى جوارك .. تؤخذ من خط القتال .. اسيرا .. بين اصدقائك .. لا بين اعدائك . وفى سجن يسلط عليك السلاح ، الذى كان يجب ان يصوب إلى عدوك ، لا عليك .

انت فى سجنك الصغير ، وبلدى فى سجنه الكبير .

وإذاعتنا تردد ما تردده إسرائيل ، من افتراءات حقيرة وتضليل مثير .

والأفاعى قد عادت تطل من الشقوق ، تلتهم ما تستطيع التهامه من بلد استباحه حكامه .

إلى متى ؟ !

وإلى اين المصير ؟ !

والشعب ماخوذ .. مذهول .. ضائع بين الأباطيل والأكاذيب .

يسلب منه كل ما اعطى .. وهـو مكمم .. لا يسـمع من حوله إلا اصوات غريبة عنه وعن مشاعره .

واحسست ان صوتا لابد ان يرتفع ليقول الحـق .. ليعـبر عن احاسيس الشعب الصادقة ، وليعلن عن إرادته وساءلت نفسى :

لماذا لا يفعل هؤلاء الناس شيئا ! ؟

لماذا لا يصيحون ويصرخون ، ويعبرون عما يحسون ! ؟

وكنت اجلس فى حجرتى اسبح ببصرى فى ظلمات الليل وريح الخريف الباردة تسرى فى اوراق الشجر .

ولم يجبنى احد .

وعدت اسائل نفسى :

ولماذا لا اصيح انا ؟ !

ومن يسمع صوتى ؟

انا وكل صاحباتى واصحابى .. فى الكلية .

ــ كيف ؟ !

من اين نبدا .. وكيف نلتقى ؟ !

نلتقى فى الكلية ، ونتجه من هناك .. إلى الإذاعة .. ومنها نسمع اصواتنا للعالم كله .. نسمع له صوت الشعب الحقيقى .. الشعب السورى الابى الحر .. الشعب السورى ذى الوجه العربى الأصيل .. الذى لا يمكن ان يلتقى بالاستعمار .. لا يمكن ان تهلل له إسرائيل .

وحدثت حسان عن فكرتى .. فقال لى بثقة :

ــ اصبرى يا سهير .. لا تظنى اننا مستسلمون ولكن المسالة تحتاج إلى وقت وتدبير .. لا تظنى ان السورى الحر يغلب على امره .

ولم يرحنى قول حسان ..

لم يهدىء ثورتى .. واندفاعى .. لم اكن استطيع صبرا .. لقد صبرنا .. الكثير .

حتى ضقت بالصبر .. وكنت أشعر انى .. إما ان افعل شيئا .. او اختنق .

وقلت لسلمى الطيبة .. فذهلت فى أول الأمر .. ولكنها لم تملك إلا موافقتى عندما رات إصرارى .

وبدانا الاتصال .. بكل من نستطيع الاتصال به من الزميلات والزملاء .

وفى الموعد المحدد التقينا امام الكلية .

ولم اكن اتصور أن مثل هذا العدد يمكن أن يتجمع بمثل هذه السرعة .. لقد انتشر نبا تجمعنا من زميلة إلى زميلة ومن صديق إلى صديق .

وملأنى التجمع إحساسا عميقا بالقوة ، ورفعت إحدى الزميلات علم الجمهورية العربية المتحدة .. فالتهبنا حماسة .

وتحركت المظاهرة إلى مبنى الإذاعة تتعالى هتافاتها المدوية بالوحدة وبعبد الناصر ، وبالاشتراكية ، والعدالة .. وبكل المثل الطيبة .

وازدادت المظاهرة تضخما ، والناس ينضمون إليها فى الطريق .

وكانت المظاهرة مفاجاة لحكام الرجعية .. لم يفيقوا لها حتى وصلنا إلى دار الإذاعة ، وكانت الدبابات ترابط حولها .

وتمهلت المظاهرة برهة .. ولكنى اندفعت اتقدم بلا وجل .. كنت قد عزمت على أن اتخطى كل ما امامى ، لكى اسمع صوتى للعالم .. لكى يعرف الصوت الحقيقى للشعب السورى .

وهمّ بعض جنود الشرطة الذين احضرتهم إحدى العربات بمحاولة تشتيت المظاهرة .. ولكنهم ضاعوا فى غمارها .

ورحت أتقدم نحو الدبابات إلى باب الإذاعة ، ورايت المدافع فى برجها تستدير نحوى .. ولم أشعر بالخوف .. ربما لانى لم يدر بخلدى أن المدفع يمكن أن يطلق علىّ .. انا الفتاة العزلاء .

وربما لأن الحماسة اعمتنى عن كل خطر .

لقد رحت اتقدم صارخة وعلم الجمهورية فى يدى .

واطلق المدفع .

سمعت صوت طلقات متتالية .

وسمعت الصيحات تتعالى .. والناس يتدافعون فى ذعر شديد .

ورحت اقاوم ، واتقدم .

وأنا اصرخ بملء حنجرتى .

حتى احسست بصوتى ينحبس .. واحسست ان قدمى لا تستطيعان حملى ، وتهاويت على الأرض .. اختلطت المرئيات امامى ، واظلم الطريق فى وجهى .. ولم أعد اشعر بشىء .

وافقت لاجد نفسى فى المستشفى .

لا تحزن يا حبيبى إذا قلت لك إنى عدت مرة اخرى قعيدة الفراش .

هذه المرة بكلتا الساقين .

لقد اصابت الرصاصة جانبى ، ومست العمود الفقرى ، واحدثت به ما شخصوه صدمة للنخاع الشوكى .

وأنبئونى بأنى أصبت بشلل مؤقت .. واكدوا لى انى سابرا منه .

الأمل العريض يملأ قلبى .

برغم كل ما اصابنى .

وما اصابك .

احس بلهفة شديدة عليك ، ولا اعرف كيف القاك .. وانت اسير فى سجنك وانا مقعدة فى فراشى .

ولكنى مع ذلك لا احس باليأس .

شللى مؤقت .

وفراقنا إلى حين .

أسمع صوت « عبد الناصر » يتسلل من الراديو .

المرضات يسمعنه خلسة .

صوت متهدج حزين .. ملؤه الجراح ، يهتف فى اسى .. وكان العبرات تقطر منه :

« وإنى لاثق .. ننس ثقتى بالله .. ان هذه التجربة لن تكون الأخيرة . وإنما كانت تجربة عملية رائدة ، استفدنا منها الكثير .. » .

وخنت الصوت فلم اعد اسمعه .

وعدت ارهف اذنى حتى استطعت ان التقط قوله :

« وإنى لاثق فى حتمية الوحدة بين شعوب الأمة العربيــــة ثقتى بالحياة .. وثقتى بطلوع الفجر بعد الليل مهما طال » .

واحسست بعبرتين تنسابان من مقلتى .

وتركتهما تنسابان .. علهما تخففان ذلك الاختناق الذى احسست به فى حلقى .

ومضت برهة وانا احملق فى رقعة السماء التى بدت من النافذة ، تتلاحق فيها السحب ، ويهتز وراءها الورق والغصون .

واطلقت من صدرى زفرة حارة .. واسترخيت فى فراشى ومضيت مع الايام اجتر ذكراك فى صبر وأناة .

عجيبة هذه الحياة !

تدفعنا حتى القمة ، ثم تكر بنا راجعة إلى السفح .

عندما وقفت ارقب المدينة النائمة ليلة وصولى من النافذة ، واستعجل ظهور الفجر ، وطلوع الشمس التى ستحملك إلىّ .. فى الصباح .

كنت احس انى اقف على حافة الأفق فوق قمة الحياة .

وكنت ارى الشمس .. التى لم تشرق .. من وراء الأفق اراها قبل ان تطلع .

اراها برغم الظلمات .

وماذا يفصلنى عنها الآن ؟

مزيد من الظلمات ؟ !

ومتى حالت الظلمات .. مهما تكاثفت .. بيننا وبين ترقب النور ، وانتظار الفجر ؟

ليظل الليل .. لتعصف ريحه ، ولتدلهم ظلماته .

متى كان الليل بلا آخر .

متى كانت الظلمة بلا فجر .

مرة ثانية يا حبيبى اقف منك على حافة الأفق .. على قمة الحياة .

امد لك يدى ، وانا واثقة انك مقبل مع مطلع الفجر . آت مع مشرق الشمس .

مهما طال البعد .. وشق المزار .. مهما ضربت ايدى الفـــرقة بيننا .

فراقنا .. إلى لقاء .

وانفصالنا .. إلى وحدة .

ورحيلك .. إلى عودة .

لن ادع اليأس ابدا يتسلل إلى نفسى .. سأنهض من رقدتى .. وستقبل من بعدك ، لنلتقى .. لنسير جنبا إلى جنب فى طريق مشرق .. مزدهر .. لا ينطفىء نوره .. ولا يأفل زهره .

سينتهى الليل يا حبيبى .. وتقبل مع الفجر .. لتجدنى اهتف باسمك .. وامد ذراعى لالقاك باسمة وابقى بجوارك لاكون كما اردتنى .. سيدة الناس .. يا سيد الناس .

(تمت)